

تشارلز كينغسلي

أَطْفَالُ الْمِيَاهِ



ترجمة
زينب بني سعد

الفاروق

أَطْفَالُ الْمِيَاهِ

أطفال المياه

تشارلز كينغسلي

ترجمة: زينب بني سعد

The Water-Babies

By Charles Kingsley

Translated by Zeinab Bani Saad

الطبعة الأولى: يناير - كانون الثاني، 2022 (1000 نسخة)

This Edition Copyrights@Dar Al-Rafidain2022

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر
بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 643 - 82 - 3

All Rights Reserved / جميع حقوق الطبع محفوظة (C)

حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير،
وتخلق ثقافة نابضة بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشراءك نسخةً أصلياً من هذا الكتاب
ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو
توزيعه أو أيٍّ من أجزائه بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتاب والمترجمين
وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القراء بالكتب.



بغداد - العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647714440520 / +9647811005860

✉ info@daralrafidain.com f dar alrafidain
✉ daralrafidain@yahoo.com Dar.alrafidain
🌐 www.daralrafidain.com @daralrafidain

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 643 - 82 - 3

تشارلز كينغسلي

أَطْفَالُ الْمِيَاهِ

ترجمة

زينب بني سعد



www.daralrafidain.com

مقدمة

إذا كان مؤلف تشارلز داروين «أصل الأنواع» قد أشعل فتيل «ثورة التطور»، فقد ألهم أيضًا صنفًا من الرواية شهد من تأثروا به إعادة ابتكار مصطلح «دُنيا الخيال» من خلال خلق أنواعٍ أدبيةٍ جديدةٍ تُطلق عليها هنا «حكايات علمية - خرافية» التي تأخذ فيها الجِنِّيَّات دور «النصير للطبيعة». وبالفعل، دخل داروين بلاد العجائب، وظهر هذا النوع من الحكايات وبلغ ذروته في ستينيات القرن التاسع عشر.

أطفال المياهِ الصادرة عام 1863 والحائزة على جائزة لويس كارول عام 1963، هي قصة توم الصبِّي العامل في تنظيف المداخن، الذي ينطلق مع سيِّده لإنجاز مهمةٍ شاقَّةٍ في قصرٍ ضخم. لكنه أثناء تسلُّقه إحدى مداخل القصر المتفاغرة كتفاغر الأوعية الدموية، يتوه وينزل في غرفةٍ تعود لطفلةٍ صغيرةٍ نائمةٍ في سريرها. فيلمح توم صورته في مرآةٍ موضوعةٍ في الغرفة، ويكتشف أنه ليس سوى «قرد أسود صغير» بسبب الأوساخ الملتصقة بجِلده، ثم يُشار إليه لاحقًا بعد هروبه من نافذة الغرفة على أنه «غوريلا أسود صغير هرب نحو الغابة». وببطءٍ، ينسج النَّصُّ الداروينيُّ نفسه داخل النَّصِّ الرئيسيِّ للرواية الكينغسليَّة.

وفي الزمكان الذي يبدأ فيه توم المغامرة، يقع في مياهِ الجدول كما سقطت «أليس» في حفرة الأرنب في رائعة لويس كارول التي صدرت بعد عامين من إصدار «أطفال المياهِ»، ويتحوَّل توم إلى طفلٍ مائيٍّ، أي أنه ينحدر لكائنٍ بدائيٍّ أكثر. لينخرط في المغامرات ويخوض اختبارات أخلاقية على يد جنِّيَّتين عجيبتين تمثلان سيدتيَّ الوجود في عالم هذه الخُرافة: السيدة بدايد الصارمة التي تعمل باسم القانون، والسيدة الرقيقة دايوالتي تعمل باسم الحب.

توصِّف هذه الحكاية بأيِّ طريقةٍ باستثناء كونها حكاية عادية قادمة من دُنيا الخيال. لأنَّها قصة مُلغِزة حيث تلتقي الحقائق بالخيال وحيث تتعايش شخصيات خيالية وعلماء مشهورون، بعد أن رحَّب كينغسلي بنظرية التطور لأنه لم يرها عقبه أمام الإيمان. بل

بالعكس، فقد اشتهر بإيمانه بأن الله لم يتوقّف عند خلق هذا العالم فحسب، وإنما بلغت قدرته حدًّا أكثر دهشة: لقد هيأ هذا العالم لصُنْعِ نفسه بنفسه. إلى جانب ذلك، تُعدّ «أطفال المياه» عملاً تهكُّمياً على القساوسة وبالأخصّ التابعين للكاثوليكية الرومانية، وبمثابة هجاءٍ للسلوكيات السائدة في العصر الفيكتوري المتمثلة في استغلال الأطفال الصغار في أعمال تنظيف المداخن والمناجم. وقد نجحت الرواية بالفعل في هذا الصدد، فبعد عامٍ من صدورها، أصدر البرلمان قانوناً ينصُّ على عدة ضوابط متعلّقة بشأن توظيف الصغار العاملين في تنظيف المداخن.

إذا كان داروين يتحدّى مكانة الإنسان في مملكة الحيوان، فإن كينغسلي يُترجم هذه الفكرة حرفياً عن طريق نقل التسلسل الهرمي العمودي لسلسلة الوجود العظمى على طول مجرى أفقي. حيث يواجه توم جميع أنواع المخلوقات الداروينية تحت المياه ابتداءً من جدول قينديل الرقراق مروراً بالبحر ثم الثُهير منتهياً بالمعين المائي. ووَصَفَتْ ملحمتُهُ بأنها صراعٌ من أجل الحياة، وتمّ تصوير توم كحيوان بريّ عليه أن يدافع عن نفسه إذا أراد البقاء على قيد الحياة: «إنه مجرد مخلوقٍ وحشيٍّ الآن ويُشبهُ الوحوش التي تفتنى. ومن الوحوش التي تفتنى، عليه أن يتعلم».

وبذا، فإن «أطفال المياه» هي محاولة لتكييف النظرية الداروينية في وسطٍ غير متوقّعٍ من الحكاية الخرافية لإظهار أن العلم والدين وكذلك الخيال يمكن أن يتعايشوا في بيئة متماسكة. وشرحت المفاهيم التي تتّسم بالتعقيد والجسامة من خلال نصوصٍ خياليةٍ لطيفةٍ وسلسةٍ. وبالنظر إلى أن الجانب المثير للجدل في نظرية داروين هو فهم كيفية ارتباط الجنس البشري بمملكة الحيوان، يوضّح كينغسلي هذا النقاش من خلال تحويل توم إلى مخلوقٍ في منتصف المسافة بين الجنس البشري والحيواني.

ولعلّ القراء يتساءلون: لماذا توقّفت الجنّيات اللواتي عشنّ في ظل العصر الفيكتوري عن أداء مهامهنّ المعتادة في ستينيات القرن التاسع عشر وأخذن دور «نُصراء الطبيعة»؟ وما

هونوع التدخل التي تمثُّه روابة أطفال المياهو؟.. ستكون الإجابة طويلهً نوعًا ما، لكنها تجربة تستحق أن تُعاش.

المترجمة

الإهداء

إلى:

أصغر أبنائي

غرينقل آرثر

وكل الصغار الطيبين

هلموا نقرأ أحجيتي، فليقبل كل فتى طيب.

وإن عجز أحدكم عن تدبر مغزاها

فلن يتمكّن الراشدون من ذلك!

الفصل الأول

«بينما كنتُ أتوسّدُ العشبَ مسترخيًا في بستان

مستجيبًا لآلاف الألحان المتناغمة

في غمرة ذلك الجوّ العذب.

وفي النهاية، جرّث الأفكار البهيجة

أفكارًا تبعث على الأسى، في ذهن المرء.

فتوحّدت هذه الطبيعة بآثارها الفاتنة،

مع الروح البشرية التي تنبض بداخلي.

وكثيرًا ما ينفطر قلبي من التفكير

بما يفعله الإنسان بأخيه الإنسان»

ووردزورث.

يُحكى أنه كان هناك صبيّ صغيرٌ يعملُ في تنظيف المداخن، وكان اسمه توم. وهذا اسمٌ دارجٌ وقد سمعتموه من قبل. لذلك، لن تواجهوا صعوبةً كبيرةً في تذكّره. عاش توم ببلدةٍ كبيرةٍ في شمال البلاد حيثُ الكثير من المداخن لتنظيفها، وبالتالي أموالٌ وفيرةٌ على توم أن يجنيها، لكي يُنفقها سيّدُهُ. لم يكن توم يعرفُ القراءة ولا الكتابة، ولم يكن يعبأ بتعلّمها. لم يسبق له أن استحمَّ أو نظّف نفسه من سناج المداخن، لأنه ما من مياهٍ في المزرعة التي يعيش فيها لكي يستحمّ. ولم يسبق له قطُّ تعلّم تلاوة صلواته. ولا يعرف شيئًا عن الربِّ

والمسيح البتّة، فيما عدا كلماتٍ لم تمرّ على أسماعكم من قبل. كان يُفضي جُلّ وقته باكيًا، ويضحك فيما تبقى منه. كان يبكي، عندما يضطر لتسلّق عوادم المداخن المعتمّة، وهو يُمسّد ركبتيه الهزيلتين ومرفقيه المسحوجين. ويبكي كلما يدخل سناج المداخن في عينيه والذي يدخل كل يوم من أيام الأسبوع، وكلما يضربه سيده الذي لا يفتأ يضربه في كل يوم طيلة الأسبوع، وكذلك، عندما لا يملك طعامًا كافيًا ليأكل، وهذا ما يجري على مدار سبعة أيام بصورة مماثلة.

وأما القسم الآخر من النهار، فكان يضحك فيه عندما يهّم برمي عملة النصف بنس المعدنية في الهواء لإجراء قرعة قبل البدء باللعب مع الأولاد الآخرين، وعندما يلعب لعبة الوثب من فوق الأسوار، وكذلك حين يقذف الحصى على سيقان الجياد وهي تجتاز الطرق خبيًا، حيث كان للأخيرة متعة لا تُضاهيها لعبة غيرها، خاصةً عندما يكون ثمة جدار قريب منهم، للاختباء خلفه أثناء الرمي.

أما بالنسبة لعمله في تنظيف المداخن وشعوره بالجوع وتعرّضه للضرب، فإنه واجه كل ذلك كما هو ماضٍ في مسار الحياة، كما الأمطار والثلوج والرعد، يتحمّل بصبر، موليًا ظهره لمثل هذه الأمور حتى تنصرم، كما يصمد حماره العجوز في مواجهة عاصفة ثلجية، ثم يعود لبهجته كما هي الحال دومًا، مفكرًا بالأيام الجميلة المقبلة لما يُصبح رجلًا وسيدًا لعمال المداخن، متخيّلًا نفسه يجلس في حانةٍ مع ربع غالون من البيرة وأنبوب غليونٍ طويل. يلعب الورق مقابل قطع فضيةٍ مرتديًا ثيابًا مخمليةً ثقيلةً وحذاءً ذا عنقٍ يصل للكاحل، مصطحبًا معه كلبًا بلُدغ أبيض اللون بأذنين رماديتين ويحمل معه جرائها، تمامًا كما يفعل الرجال.

وأنه سيكون تحت يده متدربون، واحد، اثنان، أو ثلاثة إن كان بإمكانه. وراح يتخيل كيف سيضربهم ويستضعفهم كما فعل به سيّده تمامًا. وتخيّل أنه سيجعلهم يحملون أكياس السناج إلى بيوتهم، فيما يركب أمامهم على حماره، واضعًا غليونه في فمه وزهرةً في عروة سترته، مثل ملكٍ على رأس جيشه.

نعم، ثمة أوقات حُبلى بلحظات السرور كانت تحلُّ عليه، فمثلاً، أن يتركه سيده ليرتشف ما تبقى من الجعة الخاصة به، فيشعر توم بأنه الصبي الأكثر بهجةً في البلدة برُمَّتها.

في يوم من الأيام، قصَدَ سائسٌ خيلٍ فناءَ المزرعة حيث يقيم توم، الذي كان على وشك الاختباء خلف جدارٍ ليلقي بقرميدٍ مشطورٍ على ساقِي حصانه كما جرت العادة في تلك البلدة عندما يُرحَّبون بالغرباء. إلا أن السائس شاهدَهُ ونادى عليه لمعرفة مكان إقامة السيد غرايمز، مننِّظ المداخن.

حينها، كان غرايمز هوسيد توم، وتوم كان بمثابة رجلٍ أعمالٍ صالحٍ لطالما كان مهذبًا مع الزبائن. وهكذا، تركَ القرميد المكسور خلف الجدار بشكلٍ هادئٍ، ومضى لتلقّي الأوامر. فأخبر السائس بأن السيد غرايمز من المقرر أن يصل صباح اليوم التالي إلى حيث يقطن السير جون هارثوكر، كون مننِّظ المداخن القديم خاصته، كان قد دخل السجن، وأن مداخن منزله يعوزها التنظيف. وبهذا، ركب السائس حصانه وانطلق مبتعدًا دون أن يمنح توم الفرصة لتوضيح مدعاة دخول مننِّظ السير جون للسجن! والتي كانت مسألة ذات أهمية بالنسبة له، لأنه شخصيًا، كان قد خَبَر دخول السجن لمرّة، أو اثنتين.

إلى جانب ذلك، بدا السائس بمظهرٍ حَسَنٍ وفي غاية النظافة، يرتدي جرموقين مُعَبَّرَيْن وبنطلونًا قصيرًا باهت اللون وسترةً من القماش بلونٍ رمادي، ربطة عُنقٍ ناصعة البياض يُزيئها بروشٍ أنيقٍ. وله وجهٌ مدورٌ مُحَمَّرٌ ونظيفٌ، حتى أن توم شعر بالإهانة والسامة من مظهره، وعدّه رجلاً متعجرفًا لا يسعه إلا أن يتفاخر بنفسه لأنه يرتدي ثيابًا أنيقةً دَفَعَ آخرون ثَمَنَهَا. فذهب وراء الجدار حيث ترك القرميد المشطور لإحضارها. لكنه، لم يُلقها على ساق الحصان. متذكّرًا أن السائس قَدَمَ في سبيل العمل، وكان إن صحَّ التعبير، رافعًا راية الصلح.

كان سيد توم في منتهى السعادة بزبونه الجديد حتى أنه ضرب توم وطرحه أرضًا بطريقة تخلو من السيطرة على تصرفاته. وشربَ في تلك الليلة كميةً من الجعة أكثر مما كان يشرب عادةً في ليلتين لكي يتأكد من الاستيقاظ في الوقت المحدد صباح اليوم التالي، لأنه كلما

زاد صداد الرجل الثَّمَل عند استيقاظه، كلما زاد سروره لأن يغادر فراشه وأن يخرج لاستنشاقِ نفسٍ من الهواء المنعش. وعندما استيقظ السيد غرايمز في تمام الرابعة من صباح اليوم التالي، ضرب توم وأوقعَهُ أرضًا كَرَّةً أُخرى، من أجل تذكيره، كما اعتاد الفتیان في المدارس العامة، أنه يتوجب عليه التصرف كصبيٍّ مطيعٍ للغاية في ذلك اليوم، لكونهم في طريقهم للعملِ بمنزلٍ كبيرٍ جدًّا، ولربما ينالون أجرًا مميّزًا بمجرد أن يتمكنوا من تقديم نتيجةٍ مُرضيةٍ في عملهم. وبالمثل، فكَّر توم بنفس الطريقة التي فكَّر بها سيدهُ، وكان ليفعل ويتصرف على أحسن وجهٍ حتى دون أن يضرِبَهُ غرايمز. فمن بين جميع الأماكن على وجه الأرض، كانت عذبة هارتوثر - والتي لم يسبق له رؤيتها - من أجمل الأماكن. ومن بين كل البشر على الأرض، كان السَّير جون - والذي سبق له رؤيته، بعد أن زَجَّه في السجن لمرتين - أكثر رجلٍ يهابهُ الناس.

كانت عذبة هارتوثر مكانًا واسعًا حتى بالنسبةٍ لشمال البلاد الوارفة، يتوسطها قصرٌ كبيرٌ للغاية لدرجة أنه، كما خطر على بال توم فور رؤيته، كان من السهل بمكان، إيواء دوق ولينغتون وعشرة آلاف جندي مناوئٍ فيه، خلال فترة تمرد اللاضيون(1)، أو على الأقل، هكذا حُيِّل لتوم. العذبة مُلحقةٌ برحبةٍ مليئةٍ بالغزلان والتي حُيِّل لتوم أنها وحوشٌ درجت على التهام الأطفال. تمتد فيها أميالٌ من محمّيات الصيد، حيث اعتاد السيد غرايمز والفتيان من عمّال المناجم الصيدَ فيها في بعض الأحيان. رأى توم خلالها طيور التدرُّج وأخذ يتساءل عن كيف هومذاقها. ورأى أيضًا نهرًا صافيًا من أسماك السلمون حيث كان ليرغب السيد غرايمز وأصدقاؤه بالصيد فيه. لكن، كان عليهم الخوض في المياه الباردة وهذا ما لم يُعجِبهم على الإطلاق.

(1) اللاضيون: حركة اجتماعية ثورية نشأت في إنكلترا مع بدايات الثورة الصناعية في أوائل القرن التاسع عشر أسسها الجنرال نبد لاض).

خلاصة القول، كانت هارتوثر مكانًا عظيمًا وشاسعًا، والسَّير جون رجلٌ جليلٌ مُسنٌّ، حتى أن السيد غرايمز يحترمه. وذلك ليس فقط لأنه بإمكانه زجَّ السيد غرايمز في السجن متى

ما استحق - كما فعل ذلك مرةً أو مرتين خلال الأسبوع - وليس لكونه مالك هذه الأرض ميلاً ميلاً، أولاً لأنه سيدٌ كَيِّسٌ صادقٌ ورشيدٌ فحسب، كعهده بالإبقاء على قطيع من كلاب الصيد حيث يحسب بأن أمر تواجدهم صائبٌ لجيرانه بقدر ما هو صائبٌ بالنسبة له، وإنما، يتعدى الأمر إلى ما هو أكثر من ذلك. كان يَزِنُ خمسة عشر ستون(2)، لا أحد يدري كم يبلغ عِزُّ صَدْرِهِ، وكان بإمكانه أن يَسْحَقَ السَيِّدَ غرايمز نفسه في معركةٍ عادلةٍ حيث لا يجرؤ أحدهم هناك على مواجهته سوى عددٍ قليلٍ من الناس. والذي يا صغيري العزيز، لم يكن من الصواب بالنسبة له أن يفعل ذلك، كما أن الكثير من الأشياء العظيمة لا يجرؤ المرء على فعلها في آنٍ واحدٍ، وإن كان من دواعي سروره فعلها.

(2) ستون: وحدة بريطانية لوزن الجسم تناهز 6.35 كيلوجرام)

لذلك، فإن السيد غرايمز دائماً ما يرفع قَبَعَتَهُ للسَّيرِ جون كلما رآه ماراً بعربته في شوارع المدينة، ودأب على مخاطبته بـ «سيدي الجليل» ورفيقاته الشابات بـ «أنساتي المحترمات» وهذا يُعتبر ثناءً رفيعَ المستوى في شمال البلاد، وأظن أن المسألة متعلّقة بالصيد غير المشروع لطائر التدرُّج الخاصِّ بالسَّيرِ جون؛ حيث يُمَكِّنُك أن تدرك من خلال ذلك، أن السيد غرايمز لم يَرْتَدُ أيَّ مدرسةٍ حكوميةٍ وطنيةٍ، مفحوصةٍ بشكلٍ سليمٍ.

والآن، أراهن على القول بأنه لم يسبق لك النهوض من فراشك في تمام الثالثة من فجرِ صباحٍ صيفيٍّ قانِظٍ. مع أن معظم الناس يستيقظون لأنهم يُريدون صيْدَ السلمون، وبعضهم لكونهم يُريدون تسلُّقَ جبال الألب، والأكثر من ذلك، لأنه ينبغي على بعضهم النهوض كتوم مثلاً. غير أنني أؤكد لكم، أن الساعة الثالثة من فجر منتصف الصيف هي أمتع وقتٍ من بين جميع الساعات الأربع والعشرين، والأجمل من بين الثلاثمئة وخمسة وستين يوماً. وإني لأعجبُ لعدم استيقاظ كل الناس حينها، وأجهل سبب عدم قيامهم بذلك، إلا أنهم جميعاً مصمِّمين على فقدان أعصابهم وإحراق الضرر ببشرتهم من خلال القيام طوال الليل، بما يمكنهم القيام به طوال النهار. لكن عوضاً عن الخروج لتناول العشاء في تمام الثامنة والنصف ليلاً أوللعِبِ كرة القدم عند العاشرة واللهو في مكانٍ ما بين الثانية عشرة والرابعة،

خَلَدَ توم للنوم في تمام السابعة حالماً خرج سيِّدُهُ قاصداً الحانة، ونام مثل خنزيرٍ ميِّتٍ. فقد كان صبيّاً مفعماً بالحيوية والنشاط كأنه ديكٌ مصارعةٍ، اعتاد أن يفيق في وقتٍ مبكرٍ لتنبيه الخادِمات من نومهن! وعلى أتمّ الاستعداد للبقاء متيقظاً حتى يحين موعد خلود النبلاء من السيدات والسادة، للنوم.

بعد ذلك، انطلق هووسَيِّده. كان غرايمز يركب الحمار ويتقدّم توم الذي يمشي خلفه حاملاً فراشي التنظيف، وغادروا المكان عبر الشارع مروراً بالنوافذ المغلقة منتهين بالمرور برجال الأمن المرهقين. حتى بانَت سقوف المنازل مع بزوغ الفجر، وهي تلمع بلونٍ رماديٍّ شاحبٍ.

ثم عبروا من خلال قرية بيتمن، حيث كان كل شيءٍ مطبّقاً وهادئاً. حتى أخذهم الطريق الرئيسيّ خارج البلدة. حيث واصلوا المسير بتثاقُلٍ على امتداد الدرب المُغَبَّرِ المُتَشِحِّحِ بالظلام بين حُبَّتِ الأسوار المعتمة من دون أيِّ صوتٍ فيما عدا أصوات صريرٍ ودويٍ مكبوتٍ لمحركات ضخّ المياه المنصوبة في الحقل المجاور. ولكن سرعان ما اتَّسَحَّ الدربُ بلون الفجر، والأسوار كذلك، حتى بانَّت عند حوافِّها أعشابٌ طويلةٌ وأزهارٌ غريبة الشكل، كلها مبلولةٌ بالندى. وبدلاً من صرير محركات الضخّ، تنهى إليهما صوت طائر القُبْرَةِ يُرْتَلُّ صلواته الصباحية وهو يحلّق عاليًا في السماء وصوت العصافير المغرِّدة بين نباتات السعادي مثلما ظلت تُزقزق طوال الليل. ما عدا ذلك، فإن الصمت كان يُخيِّم على المكان.

السيدة الأرض العجوز لا تزال مستغرقةً في نوم عميق، ومثلها مثل العديد من الجميلات، بدت أجمل أثناء نومها مما هي عليه وهي مستيقظة. وفوقها، تغفوا أشجار الدردار الهائلة بين المروج الذهبية الخضراء حيث تنام الأبقار نومًا عميقًا أسفل منها، بل إن بضعة غيوم متفرقة كانت مستغرقةً في النوم كذلك وهي في غاية التعب لدرجة أنها تسطّحتْ واتَّخَذَتْ شكل ألواحٍ طويلةٍ وُندِفٍ ناصعةٍ كأنها تتمدّد فوق الأرض لتنال قسطًا من الراحة متخللةً جذوع أشجار الدردار وعلى طول قمم أشجار الحور الرومي المتاخمة لجدول الماء، منتظرةً الشمس حتى تأذن للصباح ولها بالانقشاع والمُضيّ في أعمالها اليومية عبر السماء الزرقاء الصافية.

وأثناء مسيرهم، راح توم ينظر حوله، فهو لم يسبق له أن ابتعدَ عن البلدة لهذا الحدّ من قبل، وكان تواقًا لاجتياز الشَّعب والمُضَيِّ لقطف زهر الحوذان الأصفر والتحرّي عن أعشاش الطيور بين الأسيجة. غير أن السيد غرايمز كان رجلَ أعمالٍ قُحّ، ولم يكن ليُسمح بمثل تلك الأشياء.

ثم، سرعان ما تقاطع طريقهم مع امرأةٍ إيرلنديةٍ يبدو عليها البؤس، تسير مُجهدَةً على امتداد الطريق وهي تحمل حزمةً على ظهرها، وتضع وشاحًا على رأسها، وترتدي تنورةً فضفاضةً وهذا ما يدعو لليقين بأنها قادمةٌ من غالواي. لم تكن ترتدي حذاءً ولا جوارب، وراحت تُعْرُجُ في مشيِّتها كما لو أنها مرهقةٌ وتعاني من تقرُّح القدمين من كثرة المشي. بيَدَ أنها كانت امرأةً فاتنةً فارعةً الطول. بعينين لهما لونٌ رماديٌّ لامعٌ وشعرٌ أسودٌ غزيرٌ يسترسل حول خديها، حتى استهوت قلب السيد غرايمز لدرجة أنه عندما أصبح قريبًا منها نادى عليها:

«إنها طريقٌ وعرٌّ وصعبةٌ على قدمين رائعتين مثل قدميك. هلاًَّ صعدتِ وركبتِ خلفي يا آنسة؟!»

لكنها - ربما - لم يُعجبها مظهر السيد غرايمز ولا صوته، فأجابته بشكلٍ هادي:

«كلاً شكراً لك، أودُّ أن أسير بصحبة صغيرك هنا.»

«كما يحلوكِ..» زمجرَ السيد غرايمز وتابع التدخين.

ثم مشت بجانب توم، وبدأت تتحدث إليه. وراحت تسأله عن المكان الذي يعيش فيه، وعمّا يعرف، وعن كل شيءٍ عن نفسه، حتى اعتقد توم أنه لم يقابل امرأةً تتحدث بلطفٍ كهذه المرأة!

وفي النهاية، سألتها عمّا إذا كان يعرف كيف يتلوا صلواته، فتغيّرت ملامح وجهها وبدت مغتمةً عندما أخبرها أنه ما من صلواتٍ يعرفها، ليتلوها. ثم سألتها أين تعيش، فأجابته أنها

تعيش في مكانٍ بعيدٍ جدًا، قريبًا من البحر. سألها توم عن البحر، فأخذت تحكي له كيف يَموجُ ويهدرُ ويتلاطم فوق الصخور في ليالي الشتاء. وكيف يرگدُ هادئًا أثناء نهارات الصيف المشرقة، حتى يستجِمَ الأطفال ويلهوا فيه. وأخبرته العديد من القصص الأخرى إلى أن أصبح توم تواقًا للمُضي لرؤية البحر والاستحمام فيه كذلك.

وصلوا أخيرًا، إلى سفح تلةٍ حيث وجدوا ينبوعًا. لكنه، لم يكن كأبي ينبوعِ ترونه هنا، ليس مثل تلك الينابيع التي ترونها تتسرّب خارجًا من مستنقعٍ مفروشٍ بالحصى الأبيض، فيما بين طيور البوبانة القرمزية ونباتات الخلنج الزهرية ونباتات السحلب البيضاء الجميلة. ليس كأبي ينبوعٍ مما نعرفه ونألّفه هنا، ولا مثل ذاك الذي يغلي متفجّرًا أسفل تُلّ رمليٍّ في مسرّبٍ عميقٍ بجوار باقةٍ كبيرةٍ من شجيرات سراخس السيدة مما يجعل الرمل يتطاير كما لوأنه يؤدّي رقصةً اسكتلنديةً عند السفح ليلاً ونهارًا على مدار العام. كان ينبوعًا لا يُشبهه أيًا من هذين الينبوعين، وإنما نافورةٌ كلسيةٌ ذات منشأٍ شماليٍّ، مثل تلك الموجودة في صقلية أو اليونان التي يهيمُ الوثنيون عندها، لمشاهدة الحوريات وهنّ جالساتٍ للترويح عن أنفسهن من قيظٍ نهارٍ صيفيٍّ حارٍّ، بينما ينظر الرعاة إليهنّ خلسةً، من وراء الشجيرات.

خارج كهفٍ منخفضٍ من الصخور، عند سفحٍ جُرفٍ جيّريٍّ، ارتفع صوتُ تدفقِ الماء من النافورة الكبيرة، خرخرةً هادئةً شديدة الوضوح، بحيث لا يمكنك التفريق عندها من أين يبدأ لحنٌ خريبره وأين ينتهي، وهو يجري مبتعدًا أسفل الطريق، كجدولٍ واسعٍ بما يكفي لدوران طاحونة بين زهور إبرة الراعي الزرقاء وزهور الطرليّوس الذهبية، والثوت البري والكرز بسنابله البيضاء كالثلج.

وهناك توقف غرايمز وأخذ يستطلع ما حوله، وتوم كذلك، الذي بدأ يتساءل عمّا إذا كان ثمة شيءٌ ما يعيش في ذلك الكهف المعتم، ويخرج ليلاً ليحلّق فوق المروج. ولكن غرايمز لم يكن ليتساءل على الإطلاق. فترجّل عن حماره دون أن ينطق بكلمةٍ واحدةٍ، ثم قفز فوق سور الطريق السفليّ، جثا على ركبتيه، وأخذ يغمر رأسه القبيح المتسخ في مياه النافورة، حتى استحالت مياهًا بمنتهى القذارة. بينما راح توم يقطف الزهور بأقصى سرعته

وبمساعدة المرأة الإيرلندية التي علّمته كيف يربط الباقة. فجمعا فيما بينهما، باقة وردٍ صغيرةً بارعة الجمال. غير أن توم توقّف مدهوشًا لما رأى غرايمز وهو يغتسل، الذي حالما انتهى مما يفعل، بدأ بإمالة رأسه جانبًا وهزّ أذنه لإخراج الماء منها وتجفيفها. فقال توم:

«عجبًا سيّدي! لم أركّ تفعل ذلك من قبل!»

«ولن يتكرّر الأمر مرةً أخرى في أغلب الظن. لم أغتسل من أجل النظافة، بل من أجل البرودة. سأكون حَجَلًا من رغبتني في الاغتسال كل أسبوعٍ تقريبًا مثل أيّ فتىٍ قديرٍ يعمل في تنظيف المداخن.»

«تحدوني رغبةً شديدةً للذهاب وغمر رأسي في تلك المياه.» أردّف توم الصغير قائلاً، وواصل: «لا بدّ أن يكون الأمر بمثل جودةٍ وضع رأسي أسفل مضخة مياه البلدة، أضف إلى ذلك أنه ما من شمّاسٍ كنيسةٍ هنا ليطرده الصبيان من النافورة.»

فصاح غرايمز: «أنت، تعال إليّ هنا. ماذا عساک أن تجني من الاغتسال؟ إنك لم تكرر نصف جالون من البيرة مثلي ليلة أمس!»

«لا أكرّث!» أجاب توم الشقي، ونزل مسرعًا صوب ينبوعٍ وباشَرَ غسَلَ وجهه.

إلا أنّ السيّد غرايمز كان يتميّز غيظًا منذ أن فضّلت المرأة الإيرلندية رفقةً توم على رفقتيه، لذلك اندفع نحو الصبي وهو يتفوه بأشنع الألفاظ، اقتلعه من مكان جُثّوه وانهاه عليه ضربًا. لكنّ جلد توم كان معتادًا على الضرب، لذلك فهو يعرف كيف يتصرّف بمثل تلك الحال. حيث دسّ رأسه بين ساقَي السيد غرايمز ليبقى في مأمنٍ من الضرب، وأخذ يرفس بساقيه بكل ما أوتي من قوة.

«ألسّت حَجَلًا من نفسك يا توماس غرايمز؟»

صاحت المرأة الإيرلندية من على السور.

رفع غرايمز بصَرَهُ صوبَ المرأة، وقد جفل من معرفتها لاسمه. لكن كل ما أجابها به هو:

«لا، ولم يسبق لي الخجل منها قط.»

وعاد لضربِ توم.

«جديرٌ بذلك. فلو كنتَ خجلاً من نفسك، لعدتَ إلى فينديل منذ زمنٍ طويلٍ!»

صاح غرايمز الذي كَفَّ عن ضربِ توم «ما الذي تعرفينهُ عن فينديل؟»

«أعرفُ فينديل، وأعرفُ بأمرِك أيضاً. أعرف، على سبيل المثال، ما حدث بين أجمة ألدرماير ليلاً قبل عامين في عيد القديس مارتن!»

«أحقاً تعرفين؟» ندَّت صرخةً عن غرايمز الذي ترك توم وصعد إليها، قفز من فوق السور وأصبح وجهها لوجه مع المرأة، حتى خيّل لتوم بأنه على وشك أن يضربها. لكنها كانت تنظر بوجه غرايمز نظرةً ثابتةً وحادةً، وأجابته بكل هدوءٍ:

«نعم، كنتُ موجودةً هناك!»

«لهجتك تؤكد أنك لستِ بإيرلندية!» أجاب غرايمز بعد أن تقوّه بالكثير من الكلمات البذيئة.

«لا شأن لك بمن أكون. لقد رأيتُ ما رأيتهُ، وإذا ضربتَ ذلك الفتى مرةً أخرى، سأعترفُ بما أعرفهُ!»

ارتعبَ غرايمز مما سمعهُ، فهرع وامتطى حماره دون إضافة كلمةٍ أخرى.

«توقّف!» قالت المرأة الإيرلندية، وتابعت «بخاطري ما أقوله لكليكما، لأنكما سترياني مرةً أخرى قبل أن ينتهي كل هذا. مَنْ يتوق لأن يكون طاهر الثياب، سيكون طاهر الثياب. ومَنْ يودُّ أن يظلَّ قذراً قاسي الفؤاد، سيظلُّ كذلك. تذكرُ كلامي جيِّداً.»

ثم استدارت وابتعدت عبر بوابة نحو المرج. لَبَثَ غرايمز بلا حراكٍ بعضَ الوقت، مثل امرئٍ أصابتهُ صاعقةٌ.

ثم هرع في إثرها وهو يصيح «عودي يا امرأة».. لكنه عندما وصل المرج، كانت المرأة قد اختفت.

هل كانت مختبئة؟ لكن، ما من مكانٍ هناك يصلح للاختباء فيه. أجال غرايمز بصره، وتوم أيضاً، لأنه وقع في نفس حيرة غرايمز من اختفائها المباغت هذا. ولم يكن بوسعهما إلا النظر فيما حولهما. غير أن المرأة كانت قد اختفت.

عاد غرايمز مرةً أخرى، هادئاً كهدهوءٍ دَيرٍ، لأنه كان خائفاً إلى حدٍّ ما. امتطى حماره وملاً غليوئاً جديداً، واستغرق في التدخين تاركاً توم في سلام. وبعد أن قطعاً أكثر من ثلاثة أميال، وصلا لبوابات مسكن حارس عذبة السَّير جون.

كان مسكن الحارس كبيراً جداً، له بوابات حديدية ضخمة وعضادتان حجريتان كبيرتان، وعلى قمة كل منهما مقبضٌ على شكل غولٍ مروّعٍ مكشَّرٍ عن أنيابه له قرنان وذيل. وهذا الغول كان يُمَثِّلُ الخوذة التي ارتداها أسلاف السَّير جون أثناء حرب الوردتين (3). حيث كل رجلٍ فطِنٍ منهم كان يعتزمُ الخوذة أثناء الحرب، لأن كل فردٍ من أفراد أعدائهم كان يلوذ بالفرار لينجوا بحياته حالما يلمحُ منظر الخوذة.

(3) حرب الوردتين: حرب أهلية دارت معاركها على مدى ثلاثة عقود (1455 – 1485م) حول الأحقِّ بكرسي العرش في إنكلترا بين أنصار كلٍّ من عائلة لانكاستر وعائلة يورك المنتميتين لعائلة بلانتاكانت بسبب نسبهما إلى الملك إدوارد الثالث. وكان شعارهما الوردتين: الوردة الحمراء التي تُمَثِّلُ أسرة لانكاستر والوردة البيضاء التي تمثل أسرة يورك.

قرعَ غرايمز البوابة، فظهر الحارس في لحظتها وفتح الباب.

«أخبروني بأن أتوقّع مجيئكَ. حسنًا، حريٌّ بك أن تتصرف بذكاءٍ كافٍ وأن تظلّ على المسار الرئيسيّ في هذا الاتجاه نحو القصر، وألاّ تدعني أراك وفي حوزتك أرانب برية. سيكون جُلّ تركيزي على هذا الأمر وقد أعذر من أنذر!»

«ليس كذلك، إن كان بداخل كيس السناج». ردّ غرايمز الذي ضحك على جوابه، وأخذ الحارس يضحك أيضًا فقال:

«إن كنت من هذا النوع، فربما من الأجدر أن أسير معك حتى القصر».

«من الأفضل لك، كما أعتقد. هذا هو عمّلك يارجل، أن تحرس الطرائد. وليس عملي طبعًا».

فرافقهما الحارس. ومما أدهشّ توم، أن الحارس وغرايمز تجاذبا أطراف الحديث معًا على طول الطريق بكل سرور. ولم يكن يدري أن حقيقة هذا الحارس أنه ليس سوى صيادٍ غير شرعيّ توارث حقيقته أبا عن جدّ. وأن ظاهره لم يكن سوى حارسٍ.

مشى الثلاثة في طريقٍ واسعٍ ومزدانٍ بأشجار الليمون، يبلغ طوله ميلاً كاملاً، ومن بين جذوع الأشجار، كان توم يختلس النظر لقرون الغزلان النائمة الرابضة فيما بين السراخس، وهو يرتعدُ خوفاً. فتوم لم يسبق له أن رأى مثل هذه الأشجار العملاقة، وبينما كان ينظر لأعلى بدأ يتوهّم أن السماء الزرقاء تلامس رؤوسهم من شدة قُربها. لكنه وقّع في حيرةٍ من أمره، فقد تناهى لسمعِهِ أصواتٌ همهمةٍ غريبةٍ تبعثهم طوال الطريق. وأخذت حيرته تتفاقم لدرجة أنه استجمّع شجاعته أخيراً ليسأل الحارس عن ماهية هذه الهمهمة.

خاطب الحارس بطريقةٍ مهذبةٍ للغاية وأتبع حديثه معه بـ سيدي – لأن توم أوجس خيفةً من هذا الرجل – مما أسعد الحارس الذي أجابه بأن هذا الصوت ما هو إلا صوت طنين النحل وهو يحوم حول أزهار اليزفون.

«وما هو النحل؟» استعلمَ توم

«صانع العسل» أجاب الحارس

«وما هو العسل؟» سأل توم

«أنت! أطبق فمك، ولا تحشُر أنفك فيما لا يعينك!» صاح غرايمز

«أترك الصبيّ وشأنه، إنه فتىّ مهذبٌ. وهذه أعجوبة بما أنه يعيش معك منذ زمنٍ طويلٍ».. فضحك غرايمز لأنه اعتبر قول الحارس مجاملةً.

«ليتني كنتُ حارسًا، لأعيش في مثل هذا المكان الجميل، وأرتدي ثيابًا مخمليةً خضراء، وأعلق صافرةً حقيقيةً على أزرار قميصي، مثلك».

ضحك الحارس من قول توم، فقد كان رجلًا رقيقَ الفؤاد إلى حدِّ ما.

«دعك من أمنية كهذه يا فتى، إنها بليّة في بعض الأحيان. إنّ حياتك أكثر أمانًا من حياتي مهما كانت الأحوال.. أليس كذلك يا سيد غرايمز؟» قال الحارس فضحك غرايمز.

ثم بدأ الرجلان حديثًا بصوتٍ أشبه بالهمس، إلا أن توم مع ذلك، سمع شيئًا من قبيل مشاجرة حول صيدٍ غير مشروع؛ وفي النهاية قال غرايمز بنبرة فظة:

«هل بحوزتك شيءٌ ضدي؟»

«ليس بعد» ردَّ الحارس.

«إذن، لا تحقّق معي حتى يكون عندك شيءٌ ضدي. فأنا رجلٌ شريف».

وضحك كلاهما مرةً أخرى ظنًا منهما أنها دعابة لطيفة.

وفي غضون ذلك الوقت، كانوا قد أصبحوا أمام البوابات الحديدية الكبيرة للقصر، ومن خلال البوابات، راح توم يرنوبصره إلى أشجار الوردية والأزاليا التي كانت كلها مزهرةً، ثم

إلى القصر نفسه، وراح يتساءل عن عدد المداخن الموجودة فيه، وكم مضى على بنائه، وما هو اسم الرجل الذي بناه، وما إذا تلقى مبلغًا كبيرًا من المال مقابل العمل على بنائه؟

أما الأسئلة الأخيرة فقد كان من الصعوبة بمكان الإجابة عليها. لأن هارثوفر بُنيّ خلال تسعين فترةً زمنيةً مختلفة، وفي تسعة عشر شكلًا مختلفًا، وبدا كما لو أن شخصًا ما بنى شارعًا كاملاً يضم بيوتًا من كل تصميمٍ قابلٍ للتخيّل، ثم مزج التصاميم كلها بملعقة. فالسقف، كان على الطراز الأنجلو - ساكسوني. والطابق الثالث على الطراز النورماندي، والثاني على طراز القرن السادس عشر، بينما طغى على الطابق الأول، طابع العصر الإليزابيثي الأول.

الجناح الأيمن من القصر ذو طابعٍ كلاسيكيٍّ خالص، ويغلب على معالم الجناح الأيسر طراز بويوتيا اليونانية الخالصة، وهذا الجناح كان محل إعجاب سكّان الريف في المقام الأول، لأنه أصبح أشبه بمنازل المدينة الجديدة بل ضعف حجمها ثلاث مرات. وبين الجناحين، يتوسّط بناءً من الطراز الإنكليزي العتيق، مُلحَقٌ برواقٍ يستمدُّ شكله من معبد البارثينون الإغريقي في أثينا.

سلالم القصر الأمامية أشبه بسلالم سراديب الموتى الرومانية، والسلالم الخلفية على طراز درجات ضريح تاج محل الهندي في أكرا.

شيّد هذا القصر العمّ الأكبر للسّير جون، الذي أحرز النصر في حروب اللورد كلايف الهندية، ومعها كسبَ مبلغًا هائلًا من النقود، بعد أن أثخنت الجراح جسده. وبهذا، ما من ذوقٍ يعلو فوق ذوقه في بناء القصر. كانت الأقبية صورةً طبق الأصل عن كهوف إلفانتا الهندية، والمكتبات نسخةً من الأجنحة الملكية في برايتون. وما تبقى من البناء، شيءٌ مما لا يوجد لا في السماء ولا في الأرض، ولا تحت الأرض. وبذلك، فإن قصر هارثوفر كان بمثابة لغزٍ ممتدٍ بالنسبة لعلماء الآثار، مثل كروم عنب نابوت اليزرعيلي في يزرعيل تمامًا بالنسبة للمولعين بالانتقادات والمهندسين المعماريين ولكل البشر المجبولين على حب التدخل في أعمال رجالٍ آخرين، وتبديد أموال غيرهم.

لذلك دأب الجميع على محاصرة السّير جون المسكين، عامًا بعد عام، ويحاولون إقناعه بإنفاق مئات الآلاف من الجنيهات أونحوذلك، في ترميم البناء وتغييره، لإرضاء أذواقهم ولكي يروق لهم بَعْضُ النظر عنه. لكنه دائمًا ما يُبْعِدُهم عن طريقه بدهاءٍ مثل أيِّ مواطنٍ يقطن شمال البلاد مثله. أرادَه أحدَهم أن يبني منزلًا قوطيًا، فأجابه السّير جون أنه ليس قوطيًا وحثّه آخر على بناء قصر على طراز العصر الإليزابيثي لكنه أوضح أنه عاش في ظل الملكة فيكتوريا العظيمة، وليس في ظل الملكة إليزابيث الأولى، بينما شخصٌ آخر كان جريئًا بما فيه الكفاية ليخبره أن طراز منزله قبيح، فأجابه بأنه يعيش في قلب البيت، وليس خارجه؛ وأصرَّ آخر، أنه ما من انسجامٍ في تصميم قصره، فكانت إجابة السّير جون أن هذا هو سبب إعجابه بهذا المكان القديم. لأنه أحب أن يرى كيف ترك كلُّ من السّير جون، والسّير هيو، والسّير رالف، والسّير راندال بصماتهم على المكان، كلٌّ بحسبِ ذوقه الخاص، ومثلما لم يفكر يومًا في نبش قبور أجداده، لم يُنوكذلك، إفسادَ بصماتهم التي خلّفوها في بناء هذا القصر.

ولهذه اللحظة، بقي وكأنه منزلٌ طبيعيٌّ حقيقيٌّ، له تاريخٌ وقصّةٌ وهو في تطورٍ متزايدٍ مثلما يتطور العالم. و فقط محدثو النعمة من يجهلون وينكرون حقيقة أجدادهم، من يغيّرون قصور أجدادهم لأجل بعض اللمسات المعمارية الجديدة الأنيقة من العصر القوطي أو الإليزابيثي، والتي بدت كما لو كانت أشياء مبهرجة انبثقت في ليلةٍ واحدة، كما ينبثق الفطر من بين التراب.

ومن خلال هذا يمكنك الاستنتاج إن كان لديك ما يكفي من العقل لإدراك ذلك: أن السّير جون كان إقطاعيًا سليم القلب، صالح السريرة. وهو الرجل الوحيد الذي احتفظ بالجانب الريف في شخصيته حسب الأصول، ومن يكشف عن روحه الرياضية من خلال ملاطفة كلابه.

لكن توم وسيّده لم يدخلوا من خلال البوابات الحديدية الضخمة كما يدخل الدوقات والأساقفة، وإنما من خلال طريقٍ خلفيةٍ طويلةٍ جدًّا؛ ثم عبر بابٍ خلفيٍ صغيرٍ، حيث

أدخلهم فتى الرماد الذي كان يتشاءب على نحوٍ شيع. وبعد ذلك، قابلتهما مدبرة المنزل في المجاز، وهي ترتدي ثوبًا قطنيًا منقوشًا بالأزهار، لدرجة أن توم اختلط عليه الأمر وظن أنها سيدة القصر نفسها. فأخذت المدبرة في إعطاء السيد غرايمز أوامر بأسلوب رسمي من قبيل:

«ستنتبه لهذا الشيء الفلاني، وستولي عنايةً للشيء الفلاني» كما لو أن السيد غرايمز هو من سيتسلق المداخل بنفسه، وليس توم! أما غرايمز، فكان يضغى لأوامرها وهو يقول من حين لآخر بصوتٍ منخفض:

«ألديك مشكلة في ذلك أيها الشحاذ الحقيير؟!»

وكان كل ما بوسع توم إبدائه على الأقل، أن يغمره الشعور بالضيق.

قادتاهما مدبرة المنزل بعد ذلك إلى غرفةٍ كبيرة، ذات جدران مغلّفة كلّها بورقٍ أسمر اللون، وأمرتهما بصوتها الذي شابته نبرةٌ مخيفةٌ ومترفعةٌ بالشروع في العمل. لذلك، وبعد أن تدمر توم قليلاً وبعد أن تلقى بضعة ركلاتٍ من سيده، مضى من خلال فتحات المدخنة، وراح يتسلقها. بينما ظلت معهما في الغرفة خادمة، لمراقبة الأثاث الذي أبدى السيد غرايمز عنه كثيرًا من الإعجاب بنبرةٍ يشوبها المرح، لكنه قوبل بتحفيزٍ طفيفٍ في المقابل.

لست متأكدًا من عدد المداخل التي عمل توم على تنظيفها، غير أنه نظف عددًا كبيرًا منها الأمر الذي جعله يشعر بإرهاقٍ شديد، وبارتباكٍ كبيرٍ أيضًا. لأن مداخل هذا القصر لا تُشبه مداخل المدينة التي كان معتادًا عليها. إلا أنها كما ستكتشف - إن رغبت يومًا بتسلقها واكتشاف الأمر وحسب وهذا ما لن تفعله على الأرجح - في منزل ريفي عتيق، بأنها ممتدةٌ وملتويةٌ تطرأ عليها تغييرات مرةً تلوا الأخرى حتى أصبح لها امتدادٌ دورانيٌّ، يفتح الواحد على الآخر، على نحو متفاغرٍ (4) إلى حدٍ بعيدٍ كما كان البروفيسور الأحيائي ريتشارد أوين ليصف الأمر. لذا فقد ضلّ توم طريقه فيها إلى حدٍ ما، ليس لأنه يبالي بهذا كثيرًا، مع أن الظلام فيها كان دامسًا، بل لأنه شعر وكأنه في جحرٍ بداخل هذه المداخل، كما لو أنه خُلدُ

يعيش تحت الأرض. لكن في النهاية، قصد مدخنةً ظنَّ بأنها المدخنة المنشودة، ونزل في المدخنة الخطأ. فوجد نفسه واقفًا على سجادةٍ موقدٍ في غرفةٍ لم يرَ مثلها من قبل. لم يسبق لتوم رؤية غرفة مثل هذه الغرفة قط. لم يتواجد أبدًا في غرف النبلاء، باستثناء وقتٍ يكون السجاد مرفوعًا بأكملهٍ والستائر مسدلةً والأثاث متراكمًا ومغطىً بملاءاتٍ بيضاء والصور مغطاة بالمآزر وخرق تنظيف الأتربة، حيث يقف متسائلًا في كثيرٍ من الأحيان: «كيف تبدو هذه الغرف عندما تكون جاهزةً تمامًا للسكن فيها؟» والآن، فقد رأى كيف تبدو بأم عينه، وكان مرأى ذلك جميلًا للغاية.

(4) المفاغرة: مصطلح طبي يرمز إلى الاتصال أو الانفتاح بين شيئين خاصةً التجاويف أو المسالك عادة ما يكونان متباعدين أو متفرعين مثل الأوعية الدموية أو عروق أوراق النباتات. وفي هذا النص يشير الراوي لمدى عمق واتصال مداخن القصر مع بعضها بعضًا على نحو دوراني.

فاللون الأبيض يُزيّن الغرفة بأكملها، الستائر بيضاء، ملاءات السرير بيضاء، والجدران مطلية باللون الأبيض ما عدا بعض الخطوط الوردية هنا وهناك. السجادة تحفل بنقوش من الزهور الصغيرة الزاهية. وعلى الجدران، ثمة صورٌ محاطةٌ بإطاراتٍ مذهبةٍ استحوذت على اهتمام توم بالكامل. كان ثمة لوحاتٍ لسيداتٍ وسادة، صورٌ لخيول وكلاب، وقد أحب توم صور الخيول لكنه لم يهتم كثيرًا لصور الكلاب، إذ لم يكن بينها كلابٌ بوليسية ولا حتى كلاب تيرير. ولكن، ثمة لوحتان لفتتا انتباهه أكثر من غيرهما، إحداها لرجلٍ يرتدي ثياب طويلة بصحبته أطفال صغار وأمهاتهم يُحيطون به. كان الرجل يضع يده على رؤوس الأطفال. وكانت لوحةٌ في منتهى اللطف، ومناسبةً تمامًا لتعليقها في غرفة تعود لسيدة، كما افترض توم. لأنه فهمَ بأنها غرفةٌ تعود لسيدة، من رؤيته الفساتين المنتشرة حوله.

أما اللوحة الأخرى فكانت لرجلٍ مسمرٍ على الصليب، الأمر الذي جعل توم مستغربًا. فقد حُيِّل له أنه رأى شيئًا كهذا على نافذة أحد المتاجر، لكن لم عساه أن يكون في مثل هذا المكان؟

«يا للرجل المسكين! يبدو شخصًا رحيماً وهادئًا جدًا» قال توم لنفسه ثم أردف: «ولكن لِمَ على السيدة أن تُعلّق لوحةً باعثةً على الأسي كهذه اللوحة في غرفتها؟ لعله أحد أقربائها ممَّن قُتِلَ على يد البرابرة خارج الوطن وقرّرت أن تُبقي صورته هنا لإحياء ذكراه». شعر توم بالأسف والرغبة، فأشاح بوجهه لينظر إلى شيء آخر.

وما رآه بعد ذلك، جعله يتخبّط في الحيرة. حيث وقع بصّره على مغسلةٍ موضوع عليها أكوّاز وأحواض وصابون وفرش ومناشف، وبانيوكبير ممتلئ بالماء النظيف.

فأخذ توم يفكر: «بموجب قوانين سيدي غرايمز، لا بد أنها سيدة قذرة جدًا لترغب بهذا القدر من الفك والتنظيف والمسح. غير أنها شديدة الدهاء دون شك، لتزيل أثر القاذورات من الغرفة بعد ذلك بشكلٍ جيّد، لأنني لم ألحظ أدنى قدرٍ من الأوساخ في الغرفة، ولا حتى على المناشف».

وبعد ذلك، نَظَرَ نحو السرير، ورأى تلك السيدة القذرة، وحَبَسَ أنفاسه من الدهشة. فبين الملاءات الناصعة البياض وعلى الوسادة البيضاء، تغفواً جمل فتاة رآها توم على الإطلاق. لها خدان أبيضان كبياض الوسادة تقريبًا، وشعرها كأنه سلاسل من الذهب، مفروش حولها على السرير. لربما كانت بعمر توم، ولعلها تكبّره بسنةٍ أو اثنتين. لكن توم لم يفكر في ذلك. لأنه غرق بالتفكير في بشرتها الرقيقة وشعرها الذهبي، وتساءل عما إذا كانت إنسانةً حقيقيةً حيّةً، أو واحدةً من الدُمى الشمعية التي يراها في المحلات التجارية. لكن عندما لاحظ أنها تتنفس، عرف بأنها إنسانةٌ على قيد الحياة. فلبث يُمعِن النظر فيها، كما لو أنها ملكٌ نازلٌ من السماء. «كلا. من المستحيل أن تكون فتاةً قذرةً، ولم يسبق لها ذلك» قال توم لنفسه، ثم أردف:

«وهل جميع الناس تكون أشكالهم هكذا عندما يغتسلون؟» فنظر إلى معصمه، وحاول أن يدعك السخام الملتصق بجلده، وتساءل عما إذا كان سيزول.

«إذن، يقيئًا سوف أبدوأجمل بكثيرٍ إن فعلتُ مثلها»

وعندما نظر حوله، رأى - فجأةً - جسدًا أسودَ خشنًا وقبيحًا بعض الشيء واقفًا بقُرْبِهِ،
بعينين تغلبُ عليهما نظرةٌ غائمةٌ وابتسامَةٌ تكشف عن أسنان بيضاء. فالتفت إليه غضبان:

«ما الذي يفعله هذا القرد الأسود الصغير في غرفة تلك السيدة الصغيرة الجميلة؟»

ثم اكتشف أن هذا الشخص كان هونفسه، ينعكس في مرآةٍ رائعةٍ شبيهه الذي لم يره توم
من قبل. وهكذا اكتشف لأول مرةٍ في حياته بأنه صغيرٌ قذرٌ. فأجهش بالبكاء بعد أن غمره
شعورٌ ممزوجٌ بالخجل والسخط. واستدار ليتسلل نحو المدخنة والتواري فيها مرةً أخرى.
فخبط سياج الموقد وأطاح بحدائد المدفأة. الأمر الذي أدى لإثارة جلبيةٍ كما لو أن أحدهم
ربط عشرات الآلاف من الغلابيات المصنوعة من الصفيح بذيول العشرات من الكلاب
المسعورة. وهكذا، أفاقت السيدة البيضاء الصغيرة وانتصبت في سريرها، وحالما وقع
بصرها على توم، بدأت تصرخ بصوتٍ ثاقبٍ شديدٍ يُشبه صوت الطاووس. فهرعت إليها
ممرضةٌ مُسنّةٌ لكن قوية البنية من الغرفة المجاورة، ورأت توم. قلبت الموضوع في رأسها،
وتوصّلت إلى قرارٍ مفاده أنه موجودٌ هناك ليسرق وينهب ويُفْسِد، ويشعل الحرائق!

فاندفعت مسرعةً نحوه بينما كان ممددًا فوق سياج المدفأة، لدرجة أنها أوشكت على
إمساك سُترته لكنها لم تتمكن من الإمساك به. فالصبي توم وقع عدة مرات في قبضة رجال
الأمن ونجح في الإفلات منهم والهرب عدّة مرات أيضًا. والأهم من ذلك، كان سيشعر
بخجلٍ أبديٍّ من مواجهة أصدقائه لو أنه تصرّف بقدرٍ كافٍ من الغباوة لتقبض عليه امرأةٌ
عجوز وتنال منه. لذا انحنى وانعطف بشكلٍ مباغتٍ من تحت ذراعها البدينة ومنها أسرع
عبر الغرفة، وخرج من النافذة خلال لحظات.

لم يكن بحاجةٍ لأن يُغادر الغرفة ويفرّ بجلده، مع أنه فرّ بطريقة شجاعة كما ينبغي. ولا
حتى أن يسمح لنفسه بالتسلل والهرب من ميازيب تصريف المياه بعد أن صارت بمثابة لعبةٍ
قديمةٍ بالنسبة له. فذات مرّة، صعد إلى سطح كنيسةٍ من خلال الميازيب ليحصل على
بيض الغربان كما قال. إلا أن رجال الشرطة قرروا أنه صعد إلى هناك ليسرق الصفائح
الرصافية لزجاج النوافذ. إذ يلمحونه جالسًا في مكان مرتفع على السطح حتى تصير

الشمس حارقة ثم ينزل من ميزاب مختلف. مخلفًا وراءه رجال الأمن ليعودوا إلى المركز وتناول عشائهم.

إلا أن كل ما يوجد أسفل النافذة كان شجرة لها أوراق كبيرة وزهور بيضاء جميلة تقريبًا بحجم رأسه، وعلى ما أعتقد كانت شجرة ماغنوليا. لكن توم لا يعرف شيئًا عن تلك الأشجار ولم يُلِقِ بالألها. فراح يتسلق الشجرة نزولًا كما لو أنه قِط، ليعبر المَرَج المُخْضُوضِر ويقفز من فوق الدرايزين الحديدية، ويرتقي رَحَبَة الصيد متوجّهًا صوب الغابة، تاركًا الممرضة العجوز وهي تستشيط غضبًا عند النافذة وتصبح متخبطة: ثمة قاتل هنا، قاتل..

وبينما كان البستانيّ منهمكًا بجزّ العشب، رأى توم فألقى منجله أرضًا بعد أن جرح ساقه دون أن يشعر بالإصابة، وراح يطارد توم المسكين في عجلةٍ من أمره مما جعله فيما بعد، يلازم فراشه مدة أسبوعٍ كاملٍ.

وحالما سمعتُ عاملة الألبان - التي كانت تعمل واطعةً ممخضة اللبن بين رُكْبَتَيْهَا - صوت الجلبة، وثبتت على قدميها، فتعثرت بالممخضة، واندلق الحليب كله وبدأت تطارد توم. وحتى سائس الخيل الذي كان ينظف فرس السّير جون في الإسطبل أفلت الفرس ما إن سمع الجلبة في الخارج، فأخذ يُقرع نفسه بقسوة بالغة لعدة دقائق وبعدها، هرع خارجًا وبدأ بمطاردة توم. أما غرايمز، فقد انضم إليهم أيضًا بمطاردة توم بعد أن قلب كيس السناج في الفناء المبلط حديثًا وأفسد شكله بالكامل. بينما فتح الوكيل العجوز بوابة أرض الصيد بأسرع ما يمكنه لدرجة أن لُغدود مُهره عَلِقَ بأعمدة البوابة. ولم يزل معلقًا هناك على حدّ علمي، غير أنه وثب مترجلًا عن مُهره وأسرع ليطارد توم. ترك الفلاح خيوله تسرح عند مدار الحقل، خيلٌ يقفز من على السياج وآخر يتجه نحو الخندق والأراضي المحروثة وغيرها من الأماكن، لكن الفلاح تركهم وأخذ يلاحق توم. وحتى الحارس الذي كان يحاول تخليص حيوان قاقم من شراكٍ وقع فيه، وبعد أن أطلق سراح القاقم وجرح إصبغه، هرع في إثر توم. وبالنظر إلى ما تفوّه به وما بدا عليه من غضب، لم يكن بوسعي إلا أن يخامرني شعورٌ بالأسى لما سيحصل لتوم لو وقع في قبضة الحارس!

وفي غضون كل ذلك كان السير جون يطلُّ من نافذة مكتبه، كان رجلاً مسنّاً، وكان مضطراً لطلب الطبيب لأن حيوان السمّور ألقى الوحل عليه ودخل في عينيه، بيّد أنه خرج مسرعاً ومهرولاً لمطاردة توم حالماً وقع نظره على الممرضة من النافذة. وكانت المرأة الأيرلندية أيضاً تتجه إلى المنزل سيراً على قدميها لتصلّي.. لا بد أنها كانت تتجول من مكانٍ إلى آخر عبر الطرق الفرعية، لكنها ما إن رأت توم حتى ألقت بحزمها أرضاً وبدأت تطارده كذلك.

باستثناء سيدة القصر، لأنها عندما أطلت برأسها من النافذة، سقط شعرها المستعار الليلي في الحديقة، فاضطرت لاستدعاء خادمتها، وإرسالها إلى الحديقة بشكلٍ سرّيٍّ من أجل الباروكة، مما جعلها خارج دائرة الملاحقة لأنها ظهرت فجأةً وبالتالي لم تنشغل فيها.

باختصار، لم يُسمع قطُّ في أرجاء القصر بمثل هذه الجلبة، ولا حتى عندما قُتل ثعلبٌ في المشتل الزجاجي، بين عشرة آلاف متر مربع من الزجاج المكسور والكثير من أواني الزهور المحطمة. لم يشهد أحدٌ من قبل مثل هذا الصخب والضجيج، كما لم يشهد المكان مثل هذا الانتهاك لهيبته ونظامه وأمنه كما شهدَ في ذلك اليوم لَمّا هرع كلُّ من غرايمز، البستاني، حارس أرض الصيد، عاملة الألبان، الفلاح، حارس البوابة، المرأة الأيرلندية، السير جون ووكيله؛ إلى الحديقة خلف توم، وهم يصرخون:

«أوقفوا اللص، اقبضوا عليه»

معتقدين أن بحوزة توم ما يعادل ألف رطلٍ من المجوهرات على أقل تقدير، يحملها معه في جيوبه الفارغة. فيما كانت طيور العقعق والغندور تتبعُ توم محلقةً فوقه وهي تزقزق وتصرصر، كما لو كان ثعلباً مُطارداً أخذت قواه تخور.

وطوال ذلك الوقت، كان توم المسكين يركض بأقصى سرعته من الرحبة، بقدميه العاريتين كأنه غوريلا أسود صغير هارب إلى الغابة، ولكن، يا للحسرة!! فليس هناك الغوريلا الأب ليكون بجانبه، ليغرز مخلبهُ في أحشاء البستاني بكفٍ واحدةٍ، وليرمي عاملة الألبان على

شجرة بمخلبٍ آخر، ويقطع رأس السَّير جون بالثالث، بينما يطحنُ بأسنانه جمجمة الحارس بمنتهى البساطة كما لو كانت حبةً من الكاكاو أو بلاطة.

على أيِّ حال، لم يخطر ببال توم أبدًا، أن له أبا. لذلك، لم يكن لينتظر وجود والده في تلك الحال. عوضًا عن ذلك، أدرك أنَّ عليه تدبُّر أمره وأنَّ يأخذ حذرَهُ بنفسه. فالبنسبة للركض، كان باستطاعته مجاراة أيِّ عربية خيولٍ لعدَّة أميالٍ إن واثتُهُ الفرصة للحصول على قطعةٍ نقديةٍ نحاسيةٍ أو عقب سيجارة، وأن يدير عجلات العربة بيديه وقدميه عشر مراتٍ متلاحقةٍ وهذا أكثر مما يمكنك فعله، فما بالك بالهرب من ملاحقيه في هذه الحالة؟ لذلك وجدَ ملاحقوه من الصعوبة بمكانٍ إمساكه، ونأمل ألا يُمِسِّكوا به إطلاقًا.

كان توم متوجِّهًا صوب الغابة طبعًا، ومع أنه لم يسبق له أن دخل غابةً من قبل، لكنه كان ذكيًا بما فيه الكفاية ليعرفَ بأن عليه الاختباء خلف شجيرةٍ أو أن يتسلَّق شجرةً! وعمومًا، فإنَّ حظَّهُ في الغابة أوفر مما لو كان في أيِّ مكانٍ مكشوفٍ. ولو لم يكن يعلم ذلك لقلنا إنه لا يقلُّ غباءً عن فأرٍ أو عن أسماك المنوة. لكن عندما دخل الغابة، وجدها مكانًا من نوعٍ مختلفٍ جدًّا عما تخيَّله. وبينما راح يشقُّ طريقَهُ عبر غطاءٍ غزيرٍ من نبات الوردية، وجدَ نفسه واقفًا في فحٍّ من فوره. حيث أحكمت الأغصان سيطرتها على ساقيه وذراعيه، وأخذت تخمش وجهه وتوخَّزه في معدته، مما جعله يغلق عينيه بإحكامٍ - مع أن ذلك لم يشكِّل خسارةً كبيرةً، لأنه لم يستطع على أحسن تقدير أن يرى أي ساحةٍ أمامه - وحينما تجاوز نباتات الوردية، تعثرَ بنباتات السعادي ومجموعة من القصب، وانطرح أرضًا فجرحَ أصابعه الصغيرة الهزيلة على نحوٍ سيئٍ. بينما أخذت أشجار البتولا تحفُّ على وجهه بعنفٍ كما لو أنه كان أحد النبلاء من إبتون - وهذا ليس عدلًا كما سيوافقني في ذلك كل الأولد الشرفاء - كما سيحرص المحامون على الإيقاع به وتمزيق ساقيه بأسنانهم الشبيهة بأسنان سمك القرش، وهذا ما يُعرَّفُ به المحامون غالبًا.

«يجب أن أخرج من هذا المكان، وإلا سأبقى هنا حتى يأتي أحدٌ لمساعدتي، وهذا ما لا أرغب به» قال توم.

لكن صعوبة المسألة تكمن في كيفية خروجه من هناك؟ وفي الحقيقة لم أظنه كان سيخرج على الإطلاق وكان سيبقي في مكانه حتى يُخفيه ذكر طائر أبي الحناء بأوراق الشجر، لولا أن اصطدم رأسه فجأة، بجدار.

إنَّ صدم رأسك بجدارٍ ليس بالأمر الممتع، خاصةً إذا كان جدارًا مخلخلًا وحوافٍ أحجاره بارزة على نحوٍ حادٍّ، والجزء الحادّ منه يُصيب ما بين عينيك فيجعلك ترى كل أنواع النجوم الجميلة، من قوة الاصطدام (5). ومما لاشك فيه، أن النجوم جميلة جدًا، ولكن لسوء الحظ فإنها تختفي في غضون جزءٍ من عشرين ألف جزء من الثانية، ولا يختفي الألم الذي تتركه خلفها. وهكذا أذى توم رأسه، لكنه كان صبيًا شجاعًا، ولم يكن ليبالى بذلك على الإطلاق. فقد رأى أن الغطاء سيتلاشى من فوق الحائط ويتسلّقه مثل سنجاب. وعبرَ توم الجدار ووجد نفسه في أراضٍ سبخةٍ هائلةٍ تعيش فيها طيور الطيهوج، يدعوها سكان الريف «تلة هارثوفر»، وهي مستنقعٌ رمليٌّ مزروعٌ بنبات الخُلنج، تمتد بعيدًا وعاليًا، عاليًا جدًا، وصولًا إلى السماء نفسها.

(5) تصوّر الرسوم المتحركة هذه الظاهرة منذ سنوات: إذا تعرّض أحد لضربة على الرأس، يرى نجومًا أو تظهر وهي تحوم فوق رأسه.

في تلك اللحظة، استحال توم لصبي صغيرٍ في غاية الذكاء، ذكيًا بمثل ذكاء أيل إكسمور بالغ، ولم لا؟ حتى لو أنه لم يبلغ سوى عشر سنوات إلا أنه عاش فترةً أطول مما تعيشه أغلب الأيائل وكان يتمتع بقدرٍ أعظم من الذكاء لفهم ما يدور.

ومثله مثل الأيائل، كان على قدرٍ جيدٍ من المعرفة بأنه لو تراجع، فإنه سيُلفت انتباه كلاب الصيد، لذا فإن أول ما قام به بعد أن عبر الجدار هو أن يجعل الحواف الدقيقة ذوات الحديين إلى يمينه، وأن يسير بمحاذاة الجدار وأسفله لما يقرب من نصف ميل.

حيث انطلق السّير جون والحارس والوكيل والبستاني والفلاح وعاملة الألبان وكل ذلك الهرج والمرج الذي ينمُّ عن مطاردة مجرم، انطلقوا جميعًا ليُصَفِّ ميل في الاتجاه المعاكس

تمامًا من الجهة الجانبية للجدار، مخلّفينَ توم وراءهم على بُعد ميل من الخارج، ويصغي لصدى صراخهم يتبدّد ويتلاشى عبر الغابة وهو يُقَهِّقه بصوتٍ خافتٍ جدلٍ. وصلَ توم بعد ذلك إلى أرضٍ منخفضةٍ، وواصلَ السَّيرَ إلى الجزء السفليِّ منها، ثم استدار بشجاعةٍ مبتعدًا عن الجدار، وصعد قاصدًا الأراضي السبخة، فقد عرف أن التلة تحوّل بينه وبين أعدائه وبإمكانه المُضيِّ قُدّمًا، دون أن يراه أحد.

لكن المرأة الايرلندية كانت الوحيدة من بين الجميع التي عرفت الطريق التي سلكها توم. وكانت تتقدم الجميع طوال الوقت، مع أنها لم تكن تمشي ولم تكن تركض، بل جرت برشاقة وسلاسة بفضل قدميها اللتين كانتا تتحركان بسرعة بحيث لا تتمكن من معرفة أيهما تتقدم على الأخرى. إلى أن بدأ الآخرون بالسؤال عن هوية المرأة الغريبة هذه، حتى اتفق الجميع على عدم رغبتهم بتوقُّع الأسوأ، إنها لا بد أن تكون حليفة توم.

فعندما بلغت المرأة المزرعة، توارت عن أنظارهم، ولم يكن بوسعهم أن يواجهوا قدرًا من الحقيقة أقل ذلك. لأنها تبعَتْ توم بهدوءٍ من فوق الجدار، وسارت خلفه حيثما سار. حتى لم تعد على مرأى من السَّير جون والبقية مرةً أخرى، والغائب عن النظر - شئنا أم أبينا - يصبحُ غائبًا عن الذهن.

في غضون ذلك، ابتعدَ توم صوب أراضي الخَلْج الشبيهة بتلك الأراضي التي ترعرع فيها، إلا أنه كانت هناك صخور وأحجار تمتد في كل مكان، وبدلاً من أن تصبح تلك الأراضي مستويةً كلما يتقدم المرء، بدأت تتخذ شكلَ أرضٍ جبليةٍ متصدعةٍ شديدة الانحدار على نحوٍ كبير، غير أنها لم تكن بمثل تلك الوعورة، بحيث تَمَكَّنَ توم الصغير من المُضيِّ قُدّمًا على امتدادها بتوازنٍ كبيرٍ، وأن يَجِدَ الوقتَ، أيضًا لأن يُجِيلَ البصرَ حوله في هذا المكان العجيب الذي بدا مثل عالم جديد بالنسبة له.

حيث رأى عنكب ضخمة بتيجان وصلبان موشومة على ظهورها، كانوا مجتمعين في وسط بيوتهم. وعندما رأوا توم قادمًا، تحرّكوا وتخلصوا من بيوتهم سريعًا لدرجة أنهم صاروا غير مرئيين. ثم رأى السحالي، سحالي بُنيّة اللون وأخرى رمادية وأخرى خضراء،

وخيّل لتوم أنها ثعابين، وأنها ستلدغه بيد أن السحالي كانت مرعوبةً مثله، لذلك انطلقت مسرعةً واختبأت في الأرض.

ثم رأى بجوار صخرةٍ مشهدًا جميلًا، مخلوقةٌ بُنيّةٌ حادة الأنف ذات رقعٍ بيضاء على شعر ذيلها. يتحلق حولها أربعة أو خمسة أشبالٍ صغارٍ قذرين. كانت من أظرف المخلوقات التي رآها توم على الإطلاق. فالمخلوقة كانت منبطحّة على ظهرها، تتمرغ في التراب حولها، تمدُّ ساقها وتمطُّ رأسها وذيلها تحت أشعة الشمس الساطعة؛ والأشبال تتقاذف من فوقها، ويدورون حولها. تارةً يعضونها من كفوفها، وتارةً يشدونها من ذيلها، وبدت كأنها تستمتع بكل ذلك إلى حدٍّ بعيدٍ.

إلا أن أحد أولئك الصغار تصرّف على نحوٍ أنانيّ لأنه انسحبَ خلسةً من إخوته وتوجّه صوب غرابٍ نافقٍ، فقام بجرحه وإخفائه عن أنظار البقية رغم أن الغراب كان تقريبًا، بحجمه. فانطلق كل إخوته الصغار في إثره وهم يصرخون ويبكون. ولمّا رأوا توم، تراجعوا للخلف، فوثبت السيدة ثعلبة، حملت أحدهم بفمها بينما مشى البقية على مهلٍ خلفها. ثم غاروا في شقٍ صغيرٍ بين الصخور، وانتهى العرض.

وبينما باشّر توم تسلق قمة رابيةٍ رمليةٍ، سمع صوتَ أزيزٍ ثم تبدد الصوت. ثم تلاه ما يُشبه صياح الديك ثم ركلات، فانتابه خوفٌ شديدٌ مما جعله يرتدّ للوراء. حينها، انفجر شيءٌ ما في وجهه، وتلاه صخبٌ مخيفٌ. حتى ظنّ توم أن الأرض قد انشقت وأن نهاية العالم وشيكة.

عندما فتح عينيه بعد أن أغلقهما بإحكامٍ رأى أنه لم يكن سوى ديكٍ طيهوجٍ ضخمٍ، كان يغسل نفسه بالتراب في جدولٍ رمليٍّ كما يفعل العرب للوضوء إبان الصلاة عندما تعوزهم المياه، والذي عندما داس عليه توم، قفزَ مثل قطارٍ سريعٍ مثله مثل أيّ عجوزٍ مخلوعٍ الفؤاد جبانٍ. لأنه ترك زوجته وصغارَه ليعتمدوا على أنفسهم. ومضى يصرخ: «كوووك... ككككوووك... كوك، قاتل، ثمة لصوص، حريق، كوكوك... كوووك... كيبك إنها نهاية العالم، كوووكوكوك... كوك كووك».

لطالما كان يتخيّل أن نهاية العالم وشيكةً عندما يحدثُ أيُّ شيءٍ لا يعدو كونهُ أبعد من أرنبّةٍ أنفه. بيّد أن نهاية العالم لم تحلّ، وأنّ ما يحدث في الثاني عشر من أغسطس (6) هو أسوأ من ذلك، مع أن ديك الطهيوج العجوز لم يشكّ في ذلك البتّة.

(6) الثاني عشر من أغسطس: يوم شهير في التقاليد البريطانية يتمثل بافتتاح موسم صيد الطرائد وعلى رأسها دجاج الطهيوج الأحمر في بريطانيا العظمى وإيرلندا الشمالية.

لذا عاد الطهيوج العجوز لزوجته وعائلته بعد ساعة، وقال بوقار:

«كوك كوك كوك. أعزائي، إن نهاية العالم لم تحنْ بعد. لكني أوّكّد لكم أنه سيحلّ علينا بعد غدٍ. كوك كوك كوك.»

غير أن زوجته سمعت مثل هذا الحديث كثيرًا حتى أنها أصبحت معتادة على سماع ذلك، وعلى المزيد أيضًا. بالإضافة إلى أنها أمّ معلقٌ في رقبتها عائلة مكوّنة من سبعة فراخ صغيرة، وعليها أن تعتني بتنظيفهم وإطعامهم كل يوم، وهذا ما جعلها زوجةً واقعيةً جدًّا وحادةً المزاج بعض الشيء، لذا كل ما أجابته به كان: «كوك كوك، اذهب واصطدّ العناكب، هيا اذهب.. كوك كوك كوك.»

وهكذا، مضى توم في طريقه، وبالكاد كان يعرف السبب، لكنه أحب هذا المكان الغريب الواسع، وهواءه المنعش البارد. لكنه كان كلما يأخذ في الاقتراب من قمة التلّة، كلما يمشي ببطء أكثر تدريجيًّا. فالأرض بدأت تصبح أكثر انحدارًا وخطورة. وعودًا عن أن يشاهد في طريقه مرجًا من الأعشاب الناعمة والخَلنج الخِضِل، رأى مساحاتٍ متميِّزةً عن غيرها من الصخور الكلسية بتشقّقات فيما بينها، وحوافها ممتلئة بالسرخس، شبيهة بالطرقات المبلّطة بطريقة سيئة تمامًا. لذا، تحثّم عليه أن يقفز من صخرة لصخرة. مع أنه بين الفينة والأخرى كان ينزلق فيما بينها ويجرح أصابع قدميه الصغيرتين العاريتين. ورغم الإجهاد الذي تعرّض له توم إلا أنه كان لا يزال يمضي قدمًا صعودًا للأعلى، ولم يستطع معرفة السبب!

ما الذي كان توم سيقوله لو أنه رأى المرأة الأيرلندية بشحمها ولحمها تسيّرُ خلفه عبر الأراضي السبخة لترعاهُ وهو يشقُّ الطريق. غير أن توم لم يَرها أبدًا، بينما هي، كانت تراه سواء كان السبب أن توم لم يلتفت وراءه إلا ما نَدُر، أو أن المرأة هي من التزمت التخفي خلف الصخور والروابي لتبقى بعيدةً عن الأنظار.

حينئذٍ، بدأ توم يشعرُ بقليلٍ من الجوع، وبظلمًا شديدٍ. فقد جرى لمسافةٍ طويلةٍ، وقد أصبحت الشمسُ عاليةً في كبد السماء والأرض ساخنةً بقدر سخونة الفرن والهواء يتحرك على نحوٍ سرايبيٍّ فوقه كما يتحرّك حول قَمين الجير اللافح. إلى أن تراءت له الأشياء من كل جهةٍ وكأنها تهتزُّ ثم تذوب وتتبدد في وهج أشعة الشمس المحتدِّمة. وما من شيءٍ صالحٍ للأكل بوسع توم رؤيته في أيِّ مكان، ناهيك عن شربة ماءٍ واحدةٍ.

كانت الأرض الواسعة مزروعةً بأشجار العنب البري والتوت البري إلا أنها لم تُؤتِ أكلها بعد، لأنهم كانوا في شهر يونيو، وهذا لم يكن موسمًا لإيناع الثمر. أما المياه، فمَن يُمكنه العثور على قطرة ماء على قمةٍ صخورٍ كلسيةٍ.

كان يمرُّ بين الحين والآخر، بجوار جُحرٍ مائيٍّ عميقٍ ومظلمٍ في الصخر، يمتدُّ غورهُ إلى الأرض كما لو كانت مدخنةً في منزلٍ يعيش فيه عددٌ من الأقرام تحت الأرض. وأكثر من مرةٍ أثناء مروره كان قادرًا على سماع انحدار قطرات المياه وتقاطرها وتدفقها لأقدام عديدةٍ أسفل الأرض. وكم كان تواقًا لأن يغور إلى هناك لترطيب شفثيه المتيبِّستين في حالةٍ يرثى لها.

لكن هذا الصغير الشجاع، العامل في تنظيف المداخن، لم يجرؤ على النزول من مداخل كهذه. لذلك، واصلَ على هذا المنوال حتى بدأ رأسه يدور ويدور من شدة القيظ. فخيَّل لتوم أنه سمِعَ أجراس كنيسة تُقرعُ من مسافةٍ بعيدةٍ جدًا.

«آه!» قال توم محادثًا نفسه «حيث توجد كنيسة، توجد منازلٌ وأناشٍ. ولعلِّي أجدُ من يمنحني لقمةً وحساءً». لذا بدأ يغدُّ السَّير من جديدٍ بحثًا عن الكنيسة لأنه كان على يقينٍ

من سماعه صوت الأجراس تدقُّ بكل وضوح.

وبعد مرور دقيقة وفيما كان ينظر حوله، توقّف مرةً أخرى وقال:

«عجبًا، يا له من مكانٍ شاسعٍ هذا العالم!»

وكما قال توم، كان عالمًا شاسعًا للغاية، لأنه ومن أعلى الجبل، استطاع رؤية ما لم يسبق له رؤيته من قبل. فمن ورائه في الأسفل البعيد، رأى هارتوثر وغاباتها القاتمة ونهرًا صافيًا من أسماك السلمون. وعلى يساره، في الأسفل البعيد، ثمة مدينة، بمناجم يصاعد من مداخنها الدخان، وفي مكانٍ قصيٍّ ثمة نهرٌ يتوسّع ويتصلّ ببحرٍ لامعٍ تطفو فوقه نقاطٌ صغيرةٌ بيضاء اللون اتّضح فيما بعد أنها سفنٌ راسيةٌ في أحضان المياه. بينما تقبع أمام توم سهولٌ ممتدةٌ ومزارعٌ وقرى وسط مجموعاتٍ حالكةٍ من الأشجار، مفرودةٌ مثل خريطةٍ. كلُّ ما رآه بدا قريبًا وكأنه عند قدميه، بيدَ أنه كان ذا بصيرةٍ ليفهم، أن كل ذلك يبعدُ أميالًا وأميالًا عنه. أمّا على جانبه الأيمن فهناك أراضٍ مخضوضرة تمتد الواحدة تلو الأخرى، تلاً إثر تلاً، إلى أن تلاشت ولم يبق سوى بحرٌ ضاربٌ في الرُّزقة نحو سماءٍ زرقاء. لكن يقبع فيما بينه وبين تلك الأراضي مكانٌ ما، قريبًا منه بكل معنى الكلمة، حالما رآه توم، قرر أن يتوجّه نحوه لأنه المكان المناسب بالنسبة له. كان واديًا صخريًا بعيدَ العُور يظهر بلونٍ أخضر مائلٍ إلى السواد، وكان بالغ الضيق مكتظًا بالأشجار. ولكن من خلال تلك الأشجار الممتدة على بُعد مئات الأميال أسفل منه، تمكّن من رؤية جدولٍ صافٍ يَوْمِضُ. وآه لو يتمكن فقط من الوصول لذلك الجدول.

ثم رأى بالقرب من الجدول، سقفاً لكوخٍ صغيرٍ، وحديقة صغيرة مرتبّةً في شكل مسابكٍ مُزهرةٍ ومُتقنةٍ. ولاحظَ أن ثمة شيئًا أحمر صغير يتحرّك في الحديقة ليس أكبر من حجم ذبابة! وفيما راح توم يدقّق النظر نحو الأسفل، تبيّن له أنها امرأة ترتدي ثوبًا أحمر. لعلها تُعطيهِ شيئًا ليأكله. ثم انتبّه إلى أن أجراس الكنيسة بدأت تُقرع مرةً أخرى. فأصبح وجود قريةٍ هناك في الأسفل، أمرًا لا بدّ منه.

وهكذا، ما من أحدٍ سيتعرّف إليه أو يعلم بما حصل في ذلك القصر، ولم يكن مرجّحًا وصول الأخبار لذلك المكان بعد. حتى لو دفع السّير جون كل رجال الأمن في المقاطعة لملاحقة توم. وبهذا، بإمكانه الوصول إلى مقصده في غضون خمس دقائق.

كان توم محقًا بشأن عدم وصول أخبار الهرج والمرج إلى هناك. لأنه كان قد قطع أهم عشرة أميالٍ من هارتوثر دون أن يدري بوجود مثل هذا المكان. لكنه بدا مخطئًا بشأن الوصول إلى هناك خلال خمس دقائق، لأن الكوخ كان يبعد أكثر من ميل، وألف قدم للأسفل.

لكنه واصلَ النزول بعزيمة صبي صغيرٍ شجاعٍ كما كان بالفعل. رغم أن قدميه كانتا متقرّحتين من المشي وأنه مرهقٌ، جائعٌ وعطشان. ولأن أجراس الكنيسة ما زالت تُقرع بصوتٍ عالٍ جدًّا، فقد بدأ يشكُّ بأنها تُقرع بداخل رأسه. وحتى النهر كان يهدر ويتدفق هناك في الأسفل البعيد. وإيكم الترنيمة التي كان يتغنّى بها:

«بجانِب مَعِينِ رَائِعِ الْجَمالِ

قَلِيلِ العُورِ

مِياهُهُ رِقراقَةٌ مَنعِشَةٌ

يَشْفُ عَن ذلِكَ الْجَمالِ

حَصِيٌّ كَثِيرٌ مَتالِيٌّ

لَهُ هَدِيرٌ مُزِيدٌ

تَغَرَّدُ أَسْفَلَ جَرَفِهِ

أُنثى شَحَرورِ رائِعَةٌ

يحدّه سورٌ نيرٌ

يحفُّ على جدرانه

اللباب وينبض

بتغاريد الحياة العذبة

ومن ورائه يُسمَع صدى

أجراس الكنائس متلاحقة

.....

إنه معينٌ خلابٌ

قليلٌ غورُهُ

مياهه رقاقةٌ منعشةٌ

يشُدُّ سحرُهُ الأطفال الصغارَ

وكلُّ أمٍّ جذلةٌ

يلعبوا عند ضفافه

ويجعلوا من الاستحمام بمياهه

عادةً.

فالطاهرون للطاهرين.

.....

حتى حامت فوقه سحبٌ

جاءت من سماواتٍ بالدخانِ مفعمةٍ

تلك السماوات التي تخرقها

مداخن المدن الملوثة

وصبّت فيه مياه الصّفاف،

والبالوعات،

والمراسي الملوثة،

فاستحالت مياهه لَلَوْنِ الظلام

وصارت ملتأثةً مدنّسةً

فمن يجرؤ على التباهي

بمَعِينِ مياهه قذرة؟!!

وصار حريّاً بالصغار وأمهاتهم

أن يهجروا ضفافه.. تلك الساحرة

.....

وهكذا مضى مغتماً

عَلَّ مِيَاهَهُ تَعُودُ صَافِيَةً

وَمَضَى بَعِيدًا فِي خَشِيَةِ

مِنَ الْقَدْرِ وَالْعَاقِبَةِ

وَكَلَّمَا ابْتَعَدَ أَكْثَرَ

كَلَّمَا اغْتَنَّتْ مِيَاهُهُ

وَعَادَتْ زَاخِرَةً نَابِضَةً بِالْحَيَاةِ

وَانْفَتَحَ هَدِيرُهُ عَلَى مَصْرَاعِيهِ

يُرْفَلُ غَزِيرًا خَلِيًّا مِنَ الدَّنَسِ

جَاعِلًا الْبَحْرَ مَقْصَدَهُ

وَهَكَذَا طَهَّرَ كَلَّمَا جَرَى سَرِيعًا

بِمَحَاذَاةِ الرَّمَالِ الذَّهَبِيَّةِ لِلضَّفَافِ

نَحْوَ الْبَحْرِ الْمَائِجِ

وَمِيَاهِ الْمَدِّ الرَّائِقَةِ

فَكُلُّهُمْ بَانْتِظَارٍ وَصَوْلِهِ إِلَيْهِمْ

مِنَ مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ نَائِيَةٍ

وَحَالَمَا بَلَغَ الْبَحْرَ الْأَزْلِيَّ

ضَيِّعَ نَفْسَهُ فِي عَالَمِهِ

كَرُوحٍ مَذْنُوبَةٍ هَائِمَةٍ

غَفَرُوا ذُنُوبَهَا مَجْدًا

وَتَطَهَّرَتْ مِنَ الْمَعْصِيَةِ

وَالطَّاهِرُونَ لِلطَّاهِرِينَ

مَقُولَتْنَا الْأَبَدِيَّةُ الْخَالِدَةُ.

فاستجاب توم، وراح ينزل وينزل. وطوال ذلك الوقت لم ينتبه أبدًا أن المرأة الأيرلندية كانت تتبعه للأسفل.

الفصل الثاني

هل من قلقٍ في جنّات النعيم؟

وهل ثمّة رحمةً في تلك النفوس الملوّثيّة،

تعود بها على لؤم الخليقة،

فتحرّك فيهم - ربّما -

مشاعر الرأفة وتمحو شرورهم؟

وإلا سيكون حال البشر أكثر دناءةً من الوحوش

لكن أوه، يا لرحمة الربّ العليّ،

تلك الرحمة التي يُغديقها على مخلوقاته،

مخلوقاته التي يحبّها حبًّا جمًّا.

وجلّ رحمته التي يعمل بها إنّما تتجلّى:

حين يُرسل الملائكة المقدّسين،

غدواً ورواحاً بين السماء والأرض،

لخدمة الإنسان الآثم،

لخدمة عدوّه الآثم.

على بعد ميلٍ وألفٍ قدمٍ للأسفل أصبح توم على مقريةٍ من مقصده. حتى بدا وكأنه بوسعه أن يرمي حصاةً على ظهر المرأة ذات الثوب الأحمر التي كانت تشدّب الحديقة من الأعشاب الضارة، بل وحتى عبر الوادي الممتد إلى التلال البعيدة. لأن قاع الوادي لم يكن إلا بعرض حقلٍ واحدٍ، وعلى الجانب الآخر يجري جدولٌ يتقدمه جرف ترابي يليه منحدر ترابي، ثم سلّم رماديّ اللون يُفضي لأرضٍ ترابيةٍ محاطة بالسما من كل حذب وصوب.

كان واديًا منعزلًا هادئًا، أرضه خصبةٌ تشرح الصدر، رغم أنه لم يكن سوى شقٍ ضيقٍ يمتد في أعماق الأرض عميقًا جدًّا، وبعيدًا جدًّا عن الطريق، حتى أن أقوى العربات صنعًا، بالكاد يمكن أن تكتشف وجوده وتمضي بين طرفاته.

يُدعى هذا الوادي فينديل، وإن حَدَثَكَ الرغبة لاكتشافه بنفسك، عليك التوجّه صعودًا إلى أعالي كرافن شمال إنكلترا، والبحث عن غابات بولاند شمالًا من جهة جبل إنكلبورو وحتى جبال «زه ناين ستاندرز» و«الكروسفيل». وإذا لم تجده، فعليك بالتوجّه جنوبًا، والبحث بين جبال البحيرة نزولًا إلى «سكاوفيل» والبحر. وإن لم تعثر عليه بعد ذلك، فلا بد أن تعود أدراجك صوب الشمال مرةً أخرى عن طريق كارلا يليري، والتفتيش في جميع أنحاء تلال تشيفيت، من نهر عنان ووتر إلى تلال بيرويكي لو. ومن ثم، وسواء عثرت على فينديل أم لا، فإنك ستكون قد اكتشفتَ بلادًا جميلةً، وشعبًا رائعًا، مما سيجعلك فخورًا لكونك صبيًا بريطانيًا.

واصل توم طريقه نحو الأسفل. وفي البداية، قطع ثلاثمئة قدم نحو الأسفل بين نباتات الخُلج العالية يتخللها أحجار مسنّنة خشنة كأنها مبرّد، والتي لم يكن أثرها لطيفًا على كعبي توم الصغيرتين. وهكذا مضى يتعثر ويثب أسفل المنحدر. وما انفكّ يظن أن الحديقة على مرمى حجرٍ منه.

ثم نزل لثلاثمئة قدمٍ من الدكّ الكلسية، الواحدة تلو الأخرى، مستقيمة ومرتبة كما لو أن نجارًا قد خططها بمسطرته ونحتها بأزميله.

لم يكن هناك نباتات الخَلنج في الأسفل، ولكن في بدايته، ثمة منحدرٌ معشوشبٌ صغيرٌ مغطىٌ بأجمل الأزهار بدءًا من ورد اللادن الذي يزيّن الصخور، والبقدونس والزعتر والريحان، وكل أنواع الأعشاب ذكية الرائحة.

وما إن تقدم خطوة واحدة على نحوٍ متعثرٍ حتى لقيَ مجموعةً أخرى من الكلاً والأزهار تمتد لخمسين ياردة شديدة الانحدار مثل انحدار أسقف المنازل. عندها اضطرَّ توم إلى النزول منزلقًا على عجيزته الصغيرة العريضة. فنزل خطوةً أخرى من الأحجار التي كانت تعلوه بعشرة أقدام وهناك، اضطرَّ للتوقُّف، وبدأ يزحف بمحاذاة الحافة لإيجاد شقٍّ. لأنه لو استمر في التدحرج، فسينتهي به الأمر في حديقة السيدة العجوز، وبالتالي سيتجمد الدم في عروقه من شدة الرعب.

وحالما وجد شرخًا ضيقًا مظلمًا مليئًا بالسراخس المخضرة كتلك التي تتدلَّى من السلال في عُرف الرسم، أخذ يزحف للأسفل على ركبتيه ومرفقيه من خلالها، مثلما كان يفعل عند تسلُّقه المداخن نزولًا، فواجهه منحدرٌ معشوشبٌ آخر، وآخر، وهلمَّ جرا. حتى...، أووووه يا إلهي! أودُّ لو ينتهي الأمر وأن تنتهي معاناته. وبالرغم من كل ذلك، ما زال توم يظن أنه على بعد مرمى حجرٍ من حديقة المرأة العجوز.

وأخيرًا، أصبح على مقربةٍ من ضفةٍ تُحدها شجيرات باهرة.

شجيرات الغبيراء بأوراقها ذوات السطح الفضيّ. وشجيرات الدردار الجبلي والبلوط. وأسفل منها، يجري جرف صخري بمهادٍ هائلٍ من سراخس اللوماريا ونباتات البردي. بينما كان بوسعه رؤية الجدول يتلألأ من خلال الشجيرات ويسمع صوت خريره على الحصى الأبيض. إلا أنه لم يكن يعلم أن الجدول يبعد ثلاثمئة قدم للأسفل. ربما، كنت ستشعر بالدوار وأنت تنظر للأسفل، لكن توم لم يشعر بذلك. فقد كان منطّف مداخلن شجاع. وبدلاً من الجلوس والبكاء استنجدًا بوالده عندما وجد نفسه على قمة جرفٍ عالٍ - مع أنه لم يحظَ بأبٍ يبكي عليه ويطلب مساعدته - قال:

«آه، هذا سوف يناسبني!»

وشرّع طريقه للأسفل مع أنه كان في غاية التعب، بين جذوع الشجيرات القديمة ونبات البردي والأحراش والأسليات، كما لو أنه وُلِدَ كقرْدٍ أسود مفعم بالنشاط والمرح يسير على أربع أيدي بدلاً من اثنتين.

وطوال ذلك الوقت، لم يلحظ أن الأيرلندية تتعقبه وتمضي حيث يمضي. إلا أن التعب أخذ منه مأخذًا. فأشعة الشمس المحرقة لفحت جلده. وحرارة الشَّقِّ نالت منه. وأخذ العرق يتسرب من بين أطراف أصابع يديه وقدميه. فأزال السناج عنه، وصيره أنظف بكثير مما كان عليه طوال عامٍ كامل. لكنه كلما واصلَ تقدّمه، كلما تلطخت الأشياء من حوله بطريقة فظيعة، حيث خَلَفَ وراءه بقعًا سوداء كبيرةً على امتداد الشَّقِّ.

وبذلك، انتشر عددٌ من الخنافس السوداء في فينديل أكثر من أي وقتٍ مضى. وهذا بسبب توم الذي سَوَدَ بسناجه والدّهْمُ الفريد، تمامًا في الوقت الذي كان فيه على وشك الانطلاق لرحلة التزاوج مرتديًا معطفًا بلونٍ لازورديٍّ وطماقٍ قرمزيٍّ اللون حتى بدا أنيقًا مثل كلبٍ بستانيّ يحمل في فمه زهرة الربيع.

أخيرًا وصل إلى قاع الوادي، ولكنه لم يجد القاع على الحال التي يجدهُ بها الناس عادةً عندما يهبطون من جبل. لأنه عند الجرف الصخري، ثمة أكوام وأكوام من الصخور الجيرية الساقطة من كلِّ حجمٍ ولون، من تلك التي بحجم رأسك إلى تلك التي بحجم عربات المسارح، وفيما بينها فتحات مليئة بالسراخس الخلنجية ذكية الرائحة، وما إن اجتازها حتى وجد نفسه خارجًا تحت أشعة الشمس الساطعة مرةً أخرى. ثم، باغته شعورٌ عارمٌ كما يحدث مع الناس بصفةٍ عامة، شعورٌ بأن الإرهاق قد نال منه. ولهذا ينبغي عليك أيها الفتى الصغير أن تتوقّع مثل هذا الشعور مراتٍ عديدةً في حياتك، إن كنت منهمكًا بخوض حياة كالتّي ينخرط في مشقّتها رجالٌ بالغون، حيث يدفعك الظن، بأنك تتمتع بقدرٍ من القوة والعافية كما ينبغي. ولكن، عندما تجد نفسك في غمرتها، سَتُدْرِكُ بأنها فكرةٌ بغيضةٌ للغاية. وحتى يجِلَّ ذلك اليوم، أملُ أن يكون برفقتك صديقٌ باسِلٌ، مُخْلِصٌ لا يُقَهَّرُ. غير ذلك، من

الخير لك أن تبقي حيث أنت، وأن تنتظر حلول أيام أفضل، كما فعل توم المسكين، الذي تعذّر عليه التقدّم. فالشمس مضطربة في كبد السماء، ومع ذلك يملأه شعورٌ بالبرد. كان مستنفدًا، خليًا من إحساسه الحياة، مع ذلك خامرهُ شعورٌ بمرضٍ شديد. لم يكن ثمة شيءٌ بينه وبين الكوخ سوى مئتي ياردة من مرجٍ هادئٍ، ومع ذلك تعذّر عليه مواصلة الطريق إليه. كان بوسعه سماع هدير الجدول على بُعد حقلٍ واحدٍ من ورائه، ومع ذلك بدا له كما لو كان على بعد مئة ميل. فاستلقى على العشب حتى هاجمته الخنافس واستقرّ الذباب على أنفه.

ولم أعرف متى كان لينهض مجددًا لولا أن البعوض والبراغيث لم تُشفيق عليه. حيث أطلق البعوض العنان لنفسه وأخذ يطنّ ويزنّ بصوتٍ عالٍ جدًّا في أذنيه، وراحت البراغيث تلسع يديه ووجهه أينما يعثروا فيه على مكانٍ خالٍ من سناج المداخن، حتى تنبّه في نهاية الأمر ونهض بتناقلٍ مترنحًا، ونزل بجوار جدارٍ منخفضٍ ومن خلال طريق ضيقة وصولًا إلى باب الكوخ. ويا له من كوخٍ أنيقٍ يحفّ به سياجٌ من أشجار الطقسوس المشدّبة في كل مكانٍ من الحديقة. أما أشجار الطقسوس الداخلية، فكانت كلّ مجموعةٍ منها مشدّبةً بشكلٍ مختلفٍ، على هيئة طاوويس ومزامير وأباريق وغيرها من الأشكال الغريبة. ومن خلف الباب الموارد، تصدر جلبّةٌ أشبه بجلبّة الضفادع التي ناشدت الإله زيوس ليرسل عليهم ملكًا (Z)، عندما عرفوا أن الجوسيكون قانطٌ في الغد. أما كيفية معرفتهم بذلك فلست أدري ولن تعرفوا أنتم أيضًا، وما من أحد يدري بذلك. اقترب توم من الباب الموارد الذي اعتزّشت عليه أزهار الياسمين البري والورود. فاختلس النظر للداخل، شبّه خائفٍ.

(Z) إشارة لواحدة من خرافات إيسوب الـ39، والتي تروي قصة مجموعة من الضفادع تدعو الإله زيوس لإرسال ملكٍ عليهم. وهي قصة تنطوي على مغزى سياسي يتعلق بالديمقراطية والحرية في سياق إعداد المشهد، يصور الضفادع على أنها متعبة من دولتها الديمقراطية.

وهناك، قُزِبَ الموقد المطفأ الموضوع بداخله طنجرة مليئة بأعشابٍ تفوحُ منها رائحة ذكيّة، جلستُ اللف امرأةٍ مسنّةٍ رآها توم على الإطلاق، مرتديّةً ثوبها الأحمر، ورداءَ سريرٍ قصيراً ذا نقوشٍ بارزةٍ وتعتمر قلنسوةً بيضاء نظيفةً ووشاحٍ عُني حريراً أسود تربطه تحت ذقنها. ويربض عند قدميها، جدُّ القطط أجمع. وعلى أريكتين قبالتها، يجلس اثنا عشر أو أربعة عشر طفلاً صغيراً، بدينين، محمريّ الوجوه بهندام أنيق، وهم يتعلمون الحروف الأبجدية ويثرثرون كما ينبغي حول ذلك. كان كوخاً بهيجاً في حد ذاته، بأرضيةٍ حجريةٍ نظيفةٍ لامعة، وآثارٍ عتيقةٍ غريبة الشكل معلقة على الجدران وخُوانٍ مصنوع من خشب السنديان الأسود موضوعٌ عليها أوانٍ بيوترية لامعة وأطباق نحاسية وساعة الوقواق معلقة على الجدار في زاوية، والتي بمجرد ظهور توم، ارتفعت دقاتها، وهذا ليس لكونها ارتعبت من مرأى توم، وإنما لتعلن تمام الحادية عشرة فحسب.

جفل الأطفال كلهم، بمجرد أن أبصروا هيئة توم المتسخة القذرة، وبدأ الفتيان بالضحك والفتيات بالصراخ. وأشار الجميع نحوه على قدرٍ كافٍ من الوقاحة، إلا أن توم كان مرهقاً للغاية، فلم يحفل بذلك.

«من أنت؟ وماذا تريد؟» صاحت السيدة العجوز ثم أضافت:

«منظّف مداخن؟! اخرج من هنا، لا أريد أيّ منظّفي مداخن في بيتي»

قال الصغير توم بصوتٍ خافتٍ تماماً: «ماء».

ردّت السيدة بنبرةٍ حادة: «ماء؟ يوجد الكثير منه في الجدول».

«لستُ قادراً على الوصول إلى الجدول. إنني أتضوّر جوعاً وأحتاج لشربة ماء».

قالها توم، وسقط عند عتبة الباب مسنداً رأسه على دعامته. نظرت إليه السيدة العجوز من خلال نظّارتها لدقائق معدودة، ثم قالت:

«إنه مريض، وهذا الصغير مجرد طفل، سواء كان منظف مداخل أو لم يكن».

«ماء!.. صاح توم.

«يا إلهي سامحني..» قالت السيدة، وخلعت نظارتها ووضعتها جانبًا، ثم نهضت وقصدت توم:

«لن يُجدي الماء نفعًا في حالتك. سأجلب لك حليبًا».

وتهدأت مبتعدةً كالأطفال الصغار، دخلت الغرفة المجاورة. وأحضرت كوبًا من الحليب وقليلًا من الخبز. فأنهاه توم بشربةٍ واحدةٍ، ثم رفع رأسه مستعيدًا شيئًا من قوته.

«من أين أتيت؟»

سأته السيدة.

«من فوق التلةِ هناك».

قال توم مشيرًا صوب السماء.

«من هارتوور؟ وعبر صخور لوثويت؟ أمتأكدُ بأنك لا تكذب؟»

أجاب توم وأسند رأسه إلى عمود الباب: «ولماذا أكذب؟»

«وكيف وصلتَ هنا؟»

«قدمتُ من جهة القصر»

كان توم في غاية التعب واليأس. ولم يطاوعه قلبه لأن يخلق قصةً ولا يملك الوقت لذلك. فأخبر السيدة، من خلال كلمات قليلة، بالحقيقة كما هي دون نقصان.

«بُورِكَ قَلْبُكَ الصَّغِيرِ. إِنَّكَ لَمْ تَسْرِقْ إِذَا؟»

«أبَدًا».

«بورك قلبك يا صغيري، وليس ثمة مبرر لتفعل ذلك. عجبًا! أرشد الربُّ الولدَ الصغيرَ لأنه بريءٌ. فأبعدهُ من القصر وغانر هارثوغر نزولاً عند صخور لوثويت. من يصدّق مثل هذه القصة لو لم يقيمُ الربُّ بإرشاده؟! لِمَ لا تأكل الخبز؟»

«ليس بإمكانني»

«إنه خبزٌ شهِيٌّ.. لقد خبزتهُ بيدي».

«لا أستطيع...»، أجاب توم مسندًا رأسه إلى ركبتيه ومن ثمَّ وجّه سؤالاً للسيدة:

«هل اليوم يوم الأحد؟»

«كلا، ولم عساه أن يكون اليوم هو الأحد؟»

«لأنني أسمع أجراس كنيسةٍ تُقرَع باستمرار».

«ليبارك الربُّ قلبك المرهف. إنك مريض. تعال معي سأصطحبك إلى مكانٍ ما. وإذا ما صرّحت أنظف قليلاً، سأدعك تنام في سريري. هيا حُبًّا بالله تعال معي..».

ولكن توم كان مجهدًا للغاية، ومصابًا بدوارٍ شديدٍ لدرجة أنَّه عندما حاول النهوض على قدميه، هرعث إليه السيدة واضطّرت لمساعدته والأخذ بيده. فاصطَحَبَتْهُ لمبنى ريفيٍّ صغيرٍ خارج الكوخ، وأجلستهُ على قشٍّ ناعمٍ على بساطٍ عتيقٍ. وطلبت منه النوم لتزايله آثار المشي المُجهد. وأخبرته بأنها ستعود إليه في غضون ساعة، حالما تنتهي من حصة الأطفال المدرسية.

وهكذا خرجت ثم عادت مرةً أخرى تختلس النظر، متوقعةً أن ترى توم وهو مستغرقٌ في نومٍ عميقٍ على الفور. إلا أن توم، لم يخلد للنوم. وعودًا عن ذلك، أخذ يتقلّب ويركل ما حوله بطريقتٍ غريبةٍ جدًا. ثم شعر بحرارةٍ خانقةٍ في كل مكان، الأمر الذي جعله تواقًا للوصول إلى النهر وإنعاش جسده بمياهه اللطيفة. ثم سقط نصف نائم، وحلّم بأنه سمع السيدة الصغيرة البيضاء تصرخ في وجهه، وتقول له:

«أوه.. إنك قذرٌ للغاية. اذهب واغتسل.»

ثم تنهى لمسامعه صوت المرأة الأيرلندية، وهي تقول:

«من يتوق لأن يكون طاهر الثياب، سيكون طاهر الثياب...».

وإذا به يسمع أجراس الكنيسة تدق بصوتٍ عالٍ وقريبًا منه أيضًا، حتى أنه كان متأكدًا بأن ذلك اليوم، لا بُدَّ أن يكون يوم أحد، على الرغم مما قالته السيدة العجوز. وَحَدَّثَهُ رغبةً في التوجُّه إلى الكنيسة ورؤية شكلها من الداخل، لأنه لم يسبق لهذا الصغير البائس دخول كنيسةٍ من قبل طوال حياته.

لكن الناس لن يسمحوا له بالدخول ما دام سناجُ المداخن والأوساخ ملتصقًا بجلبده. لذلك، عليه أن يقصدَ النهر ويغتسل أولًا. فصاح بصوتٍ عالٍ، مرارًا وتكرارًا، بما لم يعي قوله، لكونه نصف نائم:

«لا بُدَّ أن أغتسل... لا بُدَّ أن أغتسل.»

وفجأةً وجدَ نفسه، ليس في مبنى ريفيٍ مستلقياً على القش. بل في وسط مَرَجٍ، على دربٍ، والجدول أمامه وهو يردّد باستمرار:

«لا بُدَّ أن أغتسل، لا بُدَّ أن أغتسل.»

لقد وصل إلى هناك سيرًا على قدميه، بين النوم واليقظة، إذ إن الأطفال غالبًا ما ينهضون من السرير ويتجولون في الغرفة عندما لا يكونون بصحة جيدة. لكنه قليلًا ما فوجئ بذلك. وهكذا هرع نحو ضفة الجدول، جلس على العشب، وراح ينظر إلى المياه الكليسيّة الرائقة التي يشف عنها حصيات نظيفة متألئة تستقر في قاع الجدول، في حين أن أسماك السلمون المرقطة الفضيّة الصغيرة أخذت تتدافع متخبطّة مذعورةً عند رؤية وجهه الأسود. فغمر يده في مياه الجدول ووجده في غاية البرودة، وقال:

«سأتحوّل لسمكة، سوف أسبح في المياه، يجب أن أكون نظيفًا، يجب أن أكون نظيفًا».

فخلع كل ثيابه على عجلٍ حتى أنه مزق بعضًا منها، الأمر الذي كان سهلًا بما فيه الكفاية بوجود مثل هذه الأسماك الرثة. ووضع قدميه الحاميتين المتقرحتين في المياه ومن ثم غاص بساقيه، وكلما غاص أكثر، كلما قرعَت أجراس الكنيسة في رأسه بصوتٍ أعلى.

«أوه...» قال توم، «يجب أن أُسرِعَ وأغتسل. فالأجراس تُقرع بصوتٍ عالٍ الآن وسيتوقفون قريبًا ومن ثم، سيفلقون الأبواب، ولن أتمكن حينها من دخول الكنيسة مطلقًا».

إلا أنّ توم كان واهمًا في ذلك، لأن أبواب الكنيسة في إنكلترا تُترك مُسرعةً طوال وقت الخدمة لكل من يرغب بالدخول، سواء كان رجل كنيسة أو منشقًا عنها، حتى لو كان تركيًا أو وثنيًا، وإن تجرأ أحدًا ما على طرده من الكنيسة - طالما أنه يُحسِن التصرف - فإن القانون الإنكليزي العتيق سيعاقب ذلك المرء كما يجب، لجرأته على طرد أي إنسانٍ مُسالِمٍ من بيت الرب، البيت الذي يجب أن تكون أبوابه مفتوحةً للجميع على حدٍ سواء. لكن توم لم يكن ليعرف ذلك، أكثر مما ينبغي للكثير من الناس معرفته. وهو، طوال ذلك الوقت، لم ير السيدة الأيرلندية، وهي، في هذه المرة، لم تكن خلفه، بل أمامه! لأنه وقبل أن يصل توم إلى جانب الجدول، كانت قد غاصت في المياه الصافية الباردة، وانجرف شالها وثوبها طافيًا على المياه، وتحلقت الأعشاب المائية الخضراء حول خصرها، وانتشرت زنابق المياه البيضاء متوجّهة رأسها، وجاءت جنّيات الجدول صعودًا من القاع وحملتها نحو القاع البعيد على أذرعهن، لأنها: كانت ملكة كل الجنّيات ولربما، ملكة الكثيرين أيضًا.

«أين كنتِ؟» سألتها الجنّيات.

«كنت أسويّ وسائد المرضى وأهمس في آذانهم متمنيّة لهم أحلامًا سعيدة. وأفتح شبابيك الأكواخ للتخلّص من الهواء الخانق. أتحايلُ على الأطفال الصغار لإبعادهم عن البالوعات والبرك الكريهة حيث تتفشى الحمّى، وأصدّ النساء عن أبواب الحانات، أمسك بأيدي الرجال وهم يستعدون لضرب زوجاتهم. أفعل كل ما في وسعي لمساعدة أولئك الذين تهون عليهم أنفسهم، وهذا عملٌ كافٍ إلى حدٍ ما لأنه عملٌ مرهقٌ بالنسبة لي. لكنني أحضرتُ لكُنَّ أخًا صغيرًا جديدًا، راقبته حتى صار بأمان طوال الطريق إلى هنا».

فانفجرت جماعة من الجنّيات ضاحكاتٍ لفرطِ السعادةِ من فكرة وجود أخٍ صغيرٍ مقبلٍ عليهنّ.

«لكنّ تذكّرُنَّ أيتها الفتيات، لا ينبغي أن يراكنَّ أو يعلم بوجودكنَّ هنا. فهو الآن، ليس سوى مخلوقٍ بشريٍّ شريرٍ وفظٍّ من عامة الناس، مثله مثل أيّ وحشٍ فإن. ومن حقيقة المخلوقات التي تفنى عليه أن يتعلّم. فلا تلعبنّ معه أو تتحدثنّ إليه. ولا تُفسخنّ له المجال لرؤيتكنّ. فيما عدا إبقائه بعيدًا عن التعرّض للأذى».

وهكذا، خيم الحزن على الجنّيات لأنهنّ لن يكنّ قادراتٍ على اللعب مع أخيهن الجديد، ولكنهن دائمًا، ينقذنّ ما يؤمرنّ به.

ثم عامت ملكتهنّ بعيدًا أسفل النهر قاصدةً المكان الذي قدّمث منه، وعلى الرغم من كل هذا، فإنّ توم بطبيعة الحال، لم يرَ أو يسمع شيئًا منهن. وربما لو رأى أو سمع شيئًا منهن لأحدثَ فارقًا ضئيلاً في القصة. فقد كان يشعرُ بظمًا شديدٍ وفي غاية الحر، وكان يتوق لأن يكون نظيفًا ولو لمرة واحدة في حياته، حتى أنه ألقى بنفسه بأقصى سرعةٍ ممكنة، في مياه الجدول المنعشة الرقراقة.

وبعد ذلك، لم يأخذ الأمر منه سوى دقيقتين ليستغرق في أعرق وأجمل نومة هادئة، وعلى أحسن ما يكون من أي وقت مضى في حياته. وسقط حالماً بالمروج الخضراء التي قطعها ذلك الصباح، وبأشجار الدردار الممتدة والأبقار الغافية، وبعد ذلك، لم يحلم بشيء على الإطلاق. وأما سبب إيجاده السبيل لنومة هائلة مثل تلك، فقد كان سبباً في غاية البساطة. ومع ذلك، لن يعرفه أحدكم إلا بالكاد! لم يكن السبب سوى أن الجنيات أوليته عنايةً واهتماماً فائقين.

يظن معظم الناس، أنه ما من جنيات في العالم. ومنهم ابن العم كرامشايلد الذي يؤكد ذلك للصغار في أحاديثه. حسناً، لربما ما من جنيات في بوسطن، الولايات المتحدة، حيث نشأ ابن العم كرامشايلد. فليس هناك سوى عددٍ هائلٍ من الحمقى، أولئك الذين يستحيل عليهم جعل الناس يصغون إليهم إلا بالعنف وبالخبط على الطاولة. ولكنهم بهذه الطريقة، يحصلون على لقمة عيشهم، وكما أعتقد فإن هذا هو هدفهم.

أما العمة أغيتيت، فتذكر في نقاشاتها حول الاقتصاد السياسي، بأنه ما من جنيات أيضاً. طيب، لربما لا وجود للجنيات في اقتصادها السياسي، لكنه عالمٌ واسعٌ يا صديقي الصغير، وحمداً لله على ذلك.

وإلا فسيتم سحق معظمنا بين الفساتين المدعمة بالأسلاك والنظريات. ثمة متسعٌ كبيرٌ في هذا العالم للجنيات، لكن، دون أن يراها الناس، ما لم يبحثوا في المكان المناسب بالطبع. إن أكثر الأشياء أهميةً ودهشةً في العالم هي تلك التي لا يمكن لأحد رؤيتها. ثمة حياةٌ بداخلك، والحياة التي بداخلك هي ما يجعلك تنضج وتتحرّك، وهي ما يدفعك للتفكير. ومع ذلك، لا تستطيع رؤيتها.

وفي القطارات البخارية ثمة بخار، وهذا ما يحملها على الحركة أيضاً، رغم ذلك، ليس بوسعك رؤية البخار. وهكذا، قد توجد جنيات في هذا العالم، ولربما، هُنَّ من يدفعن العالم للمضي قدماً، على غرار قصيدة من الزمن القديم:

«إنه الحب، والخُب وحده: هو ما يجعل هذا العالم يستمر» (8).

(8) قصيدة غنائية شعبية كتبها الأمريكي كلايد فيتش عام 1896

ومع ذلك، ما من أحدٍ يقدر على رؤيتهن، إلا أولئك الذين تتألف قلوبهم مع نفس القصيدة. وعلى أيِّ حال، سنتظاهر بأنَّ ثَمَّة جنِّيَّات في هذا العالم. ولن تكون هذه المرة الأخيرة لاعترافنا بوجودهنَّ. بيِّد أنه، لا داعي لذلك حاليًّا، فهذه قصةٌ خياليةٌ، ولا بُدَّ من وجود جنِّيَّاتٍ فيها، وإلا كيف يمكن للمرء أن يحكي قصةً خياليةً إن لم يكن فيها جنِّيَّات؟

إنك لا تجد تفسيرًا منطقيًّا فيما أقولُه صحيح؟ ربما لا. وأرجو ألا ترى المنطق في العديد من الحجج العظيمة المماثلة تمامًا، وهذا ما سنُدركُه قبل أن تصطبغ لحيثُكَ السوداء بلون المشيب!

عادت السيدة العجوز اللطيفة في تمام الثانية عشرة، حالما انتهت من الحصة المدرسية، لإلقاء نظرة على توم. غير أنها، لم تجد توم في مكانه. فأجالت النظر حولها بحثًا عن آثار أقدامه، لكن أرضية المبنى كانت صُلبة لدرجة أنه ما من إشارةٍ أو أثرٍ لأي مخلوقٍ، كما يقولون بلهجة ديفونشاير الشمالية العزيزة.

وإن كبرتٍ وصرتَ رجلًا شجاعًا مُعافى، قد تُدرك يومًا ما، ما الذي يعنيه عدم وجود أثرٍ، وتفهم أيضًا كما أُمِّل، ما يعنيه كلمة أثرٍ لشيءٍ ما، حيوانٍ ما، أثرٌ واضحٌ لمخالب غير حادةٍ، تدفع المرء لأن يُطفئ سيجاره وأن يجزَّ على أسنانه ويشدَّ قبضتيه عندما يراها من فرط القلق. وما الذي يعنيه أن في أملاكه، إن كان بحوزته أملاكٌ مثل قَمَّة رابيةٍ أو مرجٍ ممتدٍ نحو الغابات ونواحٍ أخرى، يلمح شيئًا يستحق الرؤية بين غابات هادونوود ومنحدر كاونتيسبوري، فتخرج لتحرِّي الأمر برفقة السيد بالك كولينز الطيب كي يدلِّك الطريق، ويقوم بتجبير عظامك بنفس السرعة التي كسرتها بها. فأرجوك، إياك أن تكسر عنقك وتغرق في مستنقع عندما يحلُّ ذلك اليوم البهيج مبددًا فرصة ما يمكن أن تكونه. لأنني على ثقةٍ بأنك وُلدت وترعرعتَ كمواطنٍ يعيش في أراضٍ ينمو فيها الخننج.

لذا دلفت السيدة العجوز مرةً أخرى بوجهٍ متجهٍم إلى حدٍ ما، معتقدةً أن توم الصغير قد تصنّع المرض، لفق قصةً ما وخدعها بها، ومن ثم لاذَ بالفرار مجدداً. إلا أنها في اليوم التالي، عدلت عن رأيها. لأنه عندما استنفد السير جون ومن معه قواهم، وانقطعت أنفاسهم من الركض بعد أن فقدوا أثر توم، عادوا أدراجهم وهم يبدون بغاية الحماسة. وقد بدوا أغبى عندما سمع السير جون المزيد من تفاصيل القصة من الممرضة، وأكثر حمقاً كذلك، عندما سمعوا القصة الكاملة من الأنسة إيلي، السيدة الصغيرة ذات الرداء الأبيض. التي أخبرتهم بأن كل ما رآته هو منظرٌ مداخل، أسود البشرة، صغير، وفقير، راح ينتحب باكياً وكان على وشك تسلق المدخنة مرةً أخرى، ولا عجب من أنها فزعَت وارتعبت بالطبع ولكن، هذا كل ما حدث، لم يسرق الصبي شيئاً من الغرفة. ثم أدركوا، من آثار قدميه الصغيرتين المُلطختين بسناج المداخل، بأنه لم يتخطَّ سجادة الموقد حتى حاولت الممرضة الإمساك به. وأن الأمر بِرُمتِه، مجرد سوء تفاهم!

وهكذا، أخبر السير جون، السيد غرايمز أن يعود إلى المنزل، ووعدَهُ بخمسة شلّات إن أحضر الصبي إليه بسرّيّة ودون أن يضربه حتى يتأكد من الحقيقة. لأنه بالنسبة للسير جون، وللسيد غرايمز أيضاً، فإنه من البديهي أن يكون توم قد شقَّ طريقَهُ عائداً إلى المنزل. إلا أن توم لم يعدْ لمنزل السيد غرايمز في ذلك المساء. ولهذا السبب قصد غرايمز مركز الشرطة وقدم طلباً بالبحث عن الصبي. لكنهم لم يعرفوا شيئاً عن توم. أما بالنسبة لعبوره تلك المرتفعات الجرداء الهائلة، المُفضية إلى «فينديل»، فإن قدرته على اجتيازها لم تكن واردةً في أذهانهم، مثل يقينهم باستحالة هروبه إلى القمر.

لذا قصد السيد غرايمز عزبة هارثوفر في اليوم التالي، وتعابير العبوس تُخيّم على وجهه الممتعض. وعند وصوله، أخبروه بأن السير جون كان قد ذهب بعيداً عبر التلال. وكان على غرايمز الجلوس في قاعة الخدم الخارجية طوال اليوم، وأن يشرب بيرة المزر القوية اللاذعة لينسى غمّه ومحنته. حتى انمَحَتْ جميعها قبل عودة السير جون بوقتٍ طويل.

من حسن الحظ أن النوم لم يجد سبيلاً لعيني السير جون تلك الليلة، فقال لزوجته:

«عزيزتي، لا بُدَّ أن الصبي قد توجَّه صوب أراضي الطيهوج وضلَّ طريقه هناك. وهذا ما يُثقلُ ضميري ويرهقُه. يا للفتى المسكين، لكنني أعرف ما عليَّ فعله».

لذا، وفي الساعة الخامسة من فجر اليوم التالي استيقظ، أخذ حمامًا ساخنًا، ارتدى معطف الصيد وجرموقيه. ثم توجَّه إلى الإسطل مثل أيَّ عجوز إنكليزيٍّ صالحٍ بوجهه يتوهج حُمْرةً كحُمْرة الزهور ويدين صُلبتين كخِوان وظهر عريض كأنه ثورٌ خَصِيٌّ. فأمرهم أن يجهِّزوا فرسه المخصص لرحلات الصيد، وأن يرافقه الحارس على فريس آخر ومعه الصياد ومساعدَي الصياد، الأول والثاني. وأن يُحضِّروا معهم كلبًا بوليسيًّا مقيدًا بطوقٍ حول عنقه للسيطرة عليه، لأنه كلب ضخم بطول عجل له لونٌ يشبه الطرق المعبدة بالحصى وخطم وأذنان بلونٍ خشبٍ الماهغوني، وله حنجرة رنانة كأنها أجراس كنيسة، ليصطحبه إلى المكان حيث ذهب توم إلى الغابة. وهناك أخذ الكلب ينبح بصوته القوي مشيرًا لهم بكل ما يعرفه. بعد ذلك، أخذهم إلى المكان الذي منه تسلَّق توم الحائط. فشقَّ الجميع طريقهم وعبروا من فوقه.

ومن ثم اقتادهم الكلب الذكي عبر تلك الأراضي السبخة، ومن بين التلال خطوةً بخطوةٍ وبرويةٍ بالغةٍ، لأن رائحة الصبي كان قد مضى عليها يومٌ واحدٌ كما تعلمون، وصارت خفيفةً جدًّا بسبب حرارة الشمس وجفاف المكان. وهذا هو السبب الذي استدعى جون العجوز الماكر، ليشرَّع البحث منذ الخامسة فجرًا. وفي النهاية، وصلوا إلى قمة صخور لوثويت، حيث زمجر الكلب ونبح بأعلى صوته، ثم رفع بصره نحو الرجال كما لو أنه يريد أن يقول لهم:

«أؤكد لكم بأنه نزل أسفل هذه الصخور!»

من الصعب أن يصدِّقوا أن توم قد ذهب إلى هذا الحد. فعندما أمعنوا النظر إلى ذلك المنحدر الصخريِّ الرهيب، لم يخطر على بالهم أن ذلك الصغير، سيتجرأ على مواجهته. لكن إن أشار الكلب لذلك، فلا بُدَّ أنها الحقيقة.

«فليغفر لنا الرب! إن حدثت وعثرنا عليه، فلا بُدَّ أن نجدَهُ ملقىً في القاع».

قال السَّير جون الذي لطم على فخذهِ الكبيرة بيدهِ الضخمة، ثم أضاف:

«من سيهبط عبر صخور لوثويت ليرى إن كان ذلك الفتى على قيد الحياة؟ ليتني كنتُ أصغر بعشرين سنةً من عمري لنزلتُ بنفسي إلى هناك!»

وهذا ما كان سيقوم به بالفعل مثله مثل أي منطَف في البلدة. وبعد ذلك أردف قائلاً:

«عشرون جنيهاً لمن يُحضِرُ لي ذلك الصبي حيّاً».

وكعادته في ذلك، فإنه يعني ما يقوله.

كان من ضمن المجموعة تلك، صبيٌّ شابٌّ يعمل في ترويض الخيول. وقد كان صبيّاً يافعاً بالفعل. وهو نفس الصبي الأنيق الذي امتطى حصانه متوجّهاً إلى توم، ليطلب منه ومن غرايمز الحضور إلى القصر في ذلك الصباح. فأجاب:

«سأمضي نازلاً صخور لوثويت سواء منحتني المال أو لا، وسأقوم بهذا من أجل الصبيِّ الصغير البائس فحسب، فقد كان من أكثر الصغار الذين عرفتهم في حياتي تهديباً ممن يعملون في تنظيف المداخن».

فمضى المرؤّض الشاب لنزول صخور لوثويت، وبقدرٍ ما كان صبيّاً أنيقاً وقتَ كان على قمة الصخور، بقدر ما تحوّل لصبيٍّ في غاية الرثاثة عند نزولها. لأنه وأثناء تسلُّقها هبوطاً، تمزَّق جرموقه ثم بنطاله وبعدها معطفه. ثم انفكَّت حمالتَي بنطالِهِ، وانفلتَ حذاؤه، وفقدَ قَبَعَتَهُ. والأسوأ من ذلك كله، خسرَ بروش قميصه الذي كان يعتزُّ به كثيراً لأنه مصوغٌ من الذهب، وكان قد رَبِحَهُ من سحبة يانصيب في مالتون، منقوش في أعلاه فرسٌ عجوزٌ ونقوشٌ بارزةٌ عتيقةٌ كشريطٍ موضوعٍ حول زجاجةٍ خمرٍ معتقَّةٍ وخلايةٍ كالحياة. لذلك كانت خسارةٌ فادحةٌ بالنسبة له. بيّد أنه لم يظفر بأيِّ أثرٍ لتوم.

وطوال ذلك الوقت، كان السَّير جون ومن معه يجولون حول المكان حتى ابتعدوا ثلاثة أميالٍ كاملةٍ ناحيةَ اليمين، ثم عادوا مرةً أخرى، ودخلوا إلى فينديل، ومنها إلى سفح الصخرة.

وما إن أصبح الرجال على باب مدرسة السيدة العجوز، خرج جميع الأطفال لرؤيتهم. وخرجت السيدة العجوز أيضًا. ولما رأت السير جون، انحنت له باحترامٍ بالغٍ، لأنها كانت مستأجرةً عنده.

«حسنًا يا سيدتي، كيف حالك؟».. قال السير جون.

«فليباركك الربُّ مباركةً عميمةً يا هارثوقر.»

أجابته السيدة العجوز، إلا أنها لم تنادِهِ بالسَّير جون وإنما هارثوقر وحسب. لأن هذه هي العادة التي دَرَجَ عليها سُكَّان شمال البلاد. ثم أضافت:

«مرحبًا بك في فينديل. ولكنك لا تصطاد الثعالب في هذا الوقت من السنة؟»

«إنني أصطاد، إلا أنَّ طريدي هذه المرة في غاية الغرابة.»

أجاب السَّير جون.

«فليباركك الربُّ قلبك. ولكن لماذا يبدو على مُحيِّك العبوسُ في صباحٍ كهذا؟»

سألته السيدة.

«إنني أبحث عن طفلٍ ضائعٍ. هو مننَّظُ مداخن.»

«أوووه يا هارثوقر! لطالما فاضت طباعك بالعدل والرحمة. لن تؤذي الفتى المسكين إن أعطيتك أخبارًا عنه.. أليس كذلك؟»

«لن أُوذِيَهُ يا سيدتي، لن أفعل ذلك. أخشى أننا اتهمناه وقُمْنَا بملاحقَتِهِ على امتداد هارتوِقر نتيجةً لسوء فهمٍ تافهٍ، والكلب البوليسيّ هذا قادنا إلى قمة صخرة لوثويت، و...».

وقبل أن تُتاح له الفرصة لإكمال القصة، أجهشَت السيدة العجوز ببكاءٍ مريرٍ.

«إدًا، فقد أخبرني بالحقيقة رغم كل شيء. أوه يا صغيري العزيز البائس. إنَّ تصوّراتنا الأولى هي الأصدق. وسوف نهتدي إلى حقيقتها بدليل القلب النابض في الأجساد، لو أنصتنا إليه».

ثم أخبرت السّير جون بكل شيء.

«أحضروا الكلب إلى هنا، وجهّزوه للانطلاق».

قال السّير جون، وهو يجزّ على أسنانه بقوةٍ دون أن يُضيف كلمةً أخرى.

وهكذا حرّروا الكلبَ في الحال. وأنطلق مبتعدًا نحو الجزء الخلفيِّ من الكوخ، واجتاز الطُّرُق، ثم المَرَج. ومن خلال عددٍ من شجيرات الحور الرومي. هناك، عثروا على أسمالِ توم ملقاةً على جذعِ شجيرة حورٍ روميةٍ. عندئذٍ أدركوا كل شيءٍ بقدرٍ ما كانوا بحاجةٍ لمعرفته.

وأما بالنسبةٍ لتوم؟

فالآن وصلنا للجزء المثير للتعجب من هذه القصة الرائعة. فعندما استيقظ توم، - لأنه قد استيقظ بالتأكيد، فالأطفال يستيقظون دائمًا بعد نومهم تمامًا عندما يحلو لهم - وجد نفسه يسبح في الجدول، وقد أصبح طوله حوالي أربع بوصات، أو 3.87902 بوصة على وجه الدقة..!

وقد برزت مجموعةً من الخياشيم الخارجية حول الناحية النكفِيَّة للمزرد (9) تُشبه بالضبط خياشيم صغير سمندل الماء - وكلّي أملٌ بأن تفهموا كل هذه الكلمات المعقدة - فظنّها توم مشتبّهًا، بأنها ثنّيات دانتيل مثقوب. حتى قام بجذبها فاكْتَشَفَ بأنه يؤذي نفسه كلما شدّها.

لهذا، أزمع أمره على أنها كانت جزءًا من جسده، ومن الأفضل أن يثرکها وشأنها. ولكن في حقيقة الأمر، أن الجنیّات حوّلتُهُ إلى طفلٍ مائيٍّ!

(9) مسلك البلع بين الفم والمعدة، وهو البلعوم والمريء.

طفلاً مائيٍّ؟! أجزم بأنك لم تسمع أبداً عن «طفلٍ يعيش في المياه» وربما لم يمرّ عليك شيءٌ من هذا القبيل مسبقاً. ولهذا السبب بالذات، كُتبت هذه القصة. ثمة العديد من الأمور المدهشة في العالم التي لم تسمعوا بها من قبل، وعدد هائل من الأمور التي لم يسبق لأحدٍ السماع بها، وأمر كثيرةٌ جداً أيضاً، ما من أحدٍ سيسمعوها مطلقاً، على الأقل حتى مجيء كوكسيفرو(10)، عندما ينبغي أن يكون الإنسان ميزاناً لكل شيء.

(10) مخلوق وهمي يعتبر تجسيداً للسخافة المطلقة والهراء.

«لكن، ليس ثمة وجود لشيء يُدعى أطفال المياه»

«وكيف لك أن تعرف ذلك؟ هل سبق وأن عشت أسفل المياه والبحار لترى بعينيك؟ وحتى لو كنت هناك ولم تر شيئاً من هذا القبيل بأعينيك، فهذا لا يُثبت عدم وجودهم.

إن لم يرَ السيد غارث ثعلباً في غابات إيفرسلي – كما يظن الناس في بعض الأحيان أنه لم يجد أيّاً منها على الإطلاق – فهذا لا يثبت أن لا وجود لمخلوقاتٍ مثل الثعالب. وكما هي حال غابات إيفرسلي بالنسبة لكل الغابات في إنكلترا، كذلك حال المياه التي نعرفها، بالنسبة للمياه كلها في العالم. لا يحقُّ لأحدٍ القول بالألا وجود لأطفال المياه حتى يُثبت أنه لم يرَ أيّاً منها، وهو أمرٌ منافٍ تماماً للمنطق عن عدم رؤية صغار الماء، ولم يسبق لأحدٍ أن فعّله، أو سيفعله مطلقاً.»

«ولكن بطبيعة الحال، لو كان هناك أطفال مائيون، فعلى الأقل، لا بدّ من قيام شخصٍ ما باصطياد أحدهم؟»

«حسنًا.. كيف يمكنك أن تعرف أن شخصًا ما، لم يفعل ذلك؟»

«لو قام أحدهم بذلك، لأشتعل حماسه وأعلن عن الأمر في نشرة أخبار مباشرة. أو لعلّه يشقُّ المخلوق الصغير المسكين لنصفين ويُرْسِلُ نصفًا للبروفيسور أوين والنصف الآخر للبروفيسور هكسلي لمعرفة ما سيقولون عنه.»

«آه يا صديقي الصغير العزيز.. إنهم لن يعترفوا بذلك على الإطلاق كما ستكتشف قبل نهاية القصة!»

«مع ذلك، تبقى مسألة أطفال المياه، منافية للطبيعة.»

«ولكن، يا صغيري العزيز، عليك، عندما تكبر، أن تتعلّم التحدّث عن مثل هذه الأشياء بطريقةٍ مختلفةٍ تمامًا عن المعتاد، وإياك وذكّر كلمة «مستحيل» و«غير ممكن» عندما تتحدّث عن هذا العالم الشاسع العجيب الذي يحيط بك، والذي لا يعرف أكثر البشر حكمةً سوى جانبٍ بسيطٍ منه، وهو كما قال السّير إسحق نيوتن العظيم، إنه يبدو أمامه مجرد صبي صغير يلتقط الحصى على شاطئٍ محيط لا حدودَ له. عليك ألا تقول إن هذا الشيء الفلاني لا يمكن أن يحدث، أو أن ذلك الأمر يتعارض مع الطبيعة. إنك تجهل ماهية الطبيعة وما تستطيع القيام به، وما من أحدٍ يعرف شيئًا عن قدراتها، ولا حتى الجيولوجي رودريك مورثيسون أو السّير ريتشارد أوين، أو السّير آدم سيدجويك، ولا البروفيسور توماس هكسلي. ولا حتى السيد داروين، أو الأستاذ فاراداي، أو السيد غروف، أو أيّ من العظام ممن يفترض على الأولد الصالحين احترامهم. صحيحٌ أنهم علماء في غاية البراعة والذكاء، وعليك الإصغاء باحترامٍ لكل ما يقولونه، بيّد أنهم حتى لو صرّحوا أنّه: «ما من وجودٍ ممكنٍ لأطفال المياه وأن هذا أمرٌ منافٍ للطبيعة» مع أنني واثقٌ من أنهم لن يقولوا شيئًا كهذا بتاتًا. فانتظر قليلًا، ولا تستعجل. فلربما حتى ما يقولونه، يكون مغلوّطًا.

ثم إن الأطفال وحدهم من يقرأون جدالات العمّة أغيتيت، أو أحاديث ابن العم كرامشايلد، أو عن الفتيان الذين يذهبون إلى محاضرات معتادة لمدة ساعة أو ساعتين، ليسمعوا رجلاً

- بمثابة أستاذ - يُشير صوب بضعة صورٍ كبيرةٍ بشِعةٍ، معلقة على جدار، أو يُطلق روائح كريمة باستعمال الدوارق وما ينبجس منها ثم يدعو ما يفعلُه بعلم التشريح أو الكيمياء، ويتحدّث عمّا (يستحيل وجوده) و(ما هو مُنافٍ للطبيعة). يخشى الحكماء التصريح بأن ثمة أمرًا ينافي الطبيعة، باستثناء ما يخالف الحقيقة الرياضية. فمن غير الصحيح أن يكون حاصل جمع اثنين واثنين، خمسة. كما يتعدّر على مستقيمين متوازيين أن يلتقيا مرتين إلا إن انكسرا، ولا يمكن للجزء أن يكون بعظمة الكل، وهلمّ جرا، على الأقل كما يبدو في الوقت الراهن. ولكن، كلما أصبح الإنسان أكثر حكمةً، كلما قلّ حديثُه عن (المستحيل). لأن (المستحيل) مُفردةٌ في غاية الحرج ومنذرةٌ بالخطر، إن اعتاد الناس على توظيفها في حياتهم كثيرًا. فملكة الجنّيات التي تُصير الغيوم رعدًا، وتدفع البراغيث لِلسُحُوبِ الآخريين وتتكدّب الكثير من العناء بشأن المعدّمين بقدر ما تتجشّم عناء غيرهم، حريٌّ بها أن تحملهم على العجب بإظهار كل ما تفعله أمامهم على حين غِرةٍ مع أنهم يواصلون القول بأنها لا يمكنها فعل شيء. بيّد أنها تستطيع، وما هو أكثر أهمية من ذلك، أنها تفعل كل ذلك، سواء أعجبهم الأمر أم لا.

وبالتالي، ثمة العشرات والمئات من الظواهر في العالم التي وبلا ريب، كُنّا سنقول بأنها تُنافي الطبيعة، لو لم نرها تنمو وتحيا تحت أنظارنا طوال اليوم. فإن لم يسبق للناس رؤية بذورٍ صغيرة تنمو لتصبح نباتاتٍ وأشجارًا هائلة ذات شكلٍ مختلفٍ تمامًا عن أصلها، ثم تُثمر هذه الأشجار مرةً أخرى بذورًا جيدةً، لتنمو إلى أشجار طازجة، لقالوا: هذه عمليةٌ مستحيلةٌ ومنافيةٌ للطبيعة!

ولكانوا مُحقّقين في قولهم هذا، كما في قولهم بأنّ معظم الأمور الأخرى يستحيل حدوثها.

أو لنفترض افتراضًا آخر، لتخيّل بأنك شخصٌ رحالٌ مثل السيد پول دوشايو، وقد عدت من أصقاعٍ بعيدةٍ مجهولةٍ، من حيث لم يسبق لأيّ إنسانٍ أن رأى أو سمعَ عن حيوان الفيل!!

ولنفترض أنك بدأت بوصف الفيل للناس، وقلت لهم، هذا هو شكل الحيوان ووضعه، وهذه خريطة تكوينه الجسماني، وهكذا هي أقدامه وهذه أضراسه وتلك أنيابه، مع أنها ليست

أنيابًا على الإطلاق وإنما اثنان من الأسنان الأمامية المستمرة بالنمو على نحو غير منطقي. وأن ذلك الجزء هو جمجمته التي تُشبه الفطر أكثر مما يُشبهه جمجمةً معقولةً لكائنٍ عاقلٍ أو حتى غير عاقلٍ، وهكذا دواليك!

ومع أن هذا الحيوان بحسب الكتاب المقدس(11) الذي رأيته بأَمِّ عيني والتقطتُ صورةً له – وأضمن لك ما أقول – هو ابن عمِّ شقيقٍ لُغريير الصخور الوبري الصغير، وابن عمِّ ثانٍ للخنازير، وأخالُه ذا قرابةٍ بعيدةٍ مع الأرانب، ومع ذلك فهو أَعقل الحيوانات، وبوسعِه أن يفعل كل شيءٍ باستثناء القراءة والكتابة وتنظيم الحسابات. وبلا ريب، وبعد كل ذلك، سيكون ردُّ الناس:

(11) «غريير الصخور» هو حيوان بحجم الأرنب ووبري يعيش في الجبال بين الكهوف وشقوق الصخور. بحسب ما ورد ذكره من تعابير في الكتاب المقدس لاويين 11:5؛ تثنية 7:14

«كل ذلك ليس إلا محض هراء، وإنَّ ما تقولُه عن فيلكَ يُنافي الطبيعة».

ويحسبونك تروي قصصًا مثلما ظنَّ الفرنسيون بفرانسوا ليقايان – المستكشف الفرنسي وعالم الطيور – عندما عاد إلى باريس وأخبر الناس إنه طارد زرافة. وكما ظن ملكُ جُزر أكلة لحوم البشر بالبحار الإنكليزي عندما أخبره أن المياه في بلاده تحوَّلت إلى رخام، وأن أمطارًا غزيرةً انهمرت كما يتساقط الريش.

ولقال لك الناس أيضًا، بقدر ما يعرفونه عن العلوم:

«إنَّ الفيل الذي تتكلم عنه حيوانٌ يستحيل وجوده، وهو يتعارض مع قوانين التشريح المقارن على حدِّ المعلومات المتوفرة حتى الآن».

الأمر الذي كلَّمنا أجبت عنه بكلماتٍ أقل، كلما استغرقت بالتفكير أكثر.

ألم يعتقد البشر، الضليعين بالعلم، حتى خلال الخمسة وعشرين عامًا الماضية، أن التنين الطائر كائنٌ من مستحيلات الوجود أيضًا؟ ألسنا على علمٍ الآن بأن هناك المئات منها متواجدة في أقصى العالم وأدناه؟ يُطلق عليها الناس اسم «ptrodacityles».

فقط لأنهم يخجلون من تسميتها بالتنانين الطائرة بعد أن أنكروا لفترة طويلة، إمكانية وجود التنانين الطائرة؟

فحقيقة الأمرِ إذن، أن ظنَّ البشر حول استحالة أمورٍ من هذا القبيل لمجرد أنهم لم يشهدوها، لا تساوي أكثر من ظنِّ شخصٍ همجيٍّ لا يمكنه التصديق بأن هناك اختراعًا يدعى قاطرة، لأنه لم يَرَ قط، قاطرةً تنطلق عبر الغابة بأقصى سرعتها. يدري الحكماء أن عملهم هو سبْرُ أغوار المنطق، وليس البتَّ بما يُنافيه. إنهم يعرفون أن ثمة فيلة وأنه كان هناك تنانين طائرة. وكلما كانوا أكثر تعقُّلاً، كلما أصبحوا أقل ميلاً للجزم بالألا وجود لأطفال المياه بشكلٍ قاطعٍ.

ما من وجودٍ لأطفال المياه أليس كذلك؟ عجبًا!

يقول الحكماء الماضون إن كل كائنٍ يعيش على وجه البسيطة، يُوجد ضِعْفُهُ في عوالم المياه. ولربما تلاحظون بأن هذا – وإن لم يكن حقيقياً تماماً – إلا أنه لا يزال صحيحاً إلى حدٍّ ما مثل معظم النظريات الأخرى التي من المحتمل أن تسمعوها لعدة أيام. إذًا ما دام هناك أطفال بريّون، فلماذا لا يوجد أطفال يعيشون في المياه؟ ألا يوجد جرذان الماء، وذباب الماء وجداجد مائية، وسرطانات الماء، وسلاحف مائية، وعقارب مائية، وخنافس مائية وخنازير مائية، وقطط مائية وكلاب مائية، وعجول البحر ودببة مائيون، وفرس البحر والفقمات، وفئران الماء وقنافذ البحر، والبطلينوس البحري وأقلام البحر وقناديل البحر ومرجان البحار؟ وحتى النباتات، أليس هناك أعشابٌ بحريّة، وحوذان مائيّ وعديدات الورق المائي، وهلمَّ جرا، بلا نهاية؟!!

غير أن كل تلك الأسماء ليست سوى مسميات. فالمخلوقات المائية ليست مماثلة للمخلوقات البرية. ذلك ليس صحيحًا دائمًا. لأن ملايين الحالات من المخلوقات المائية ليست من نفس العائلة وحسب، وإنما في حقيقة الأمر، من نفس الكائنات المستقلة بحد ذاتها. أتعلم أن ذبابة مايو الخضراء، وذبابة جار الماء واليعاسيب لا ينضمون للعيش تحت المياه حتى يغيروا جلودهم تمامًا كما غير توم جلده؟

فإن كان بإمكان الحيوان المائي أن يتحول باستمرار إلى حيوان بري، فلم لا يتحول الحيوان البري إلى حيوان مائي في بعض الأحيان؟ لا تقلل من شأن أي من حجج ابن العم كرامشايلد، بل واجهه كرجلٍ وردّ عليه بكل احترامٍ طبعًا.. إذا ما احتج ابن العم كرامشايلد وقال: إن كان هناك أطفالٌ مائيون معنى ذلك أنهم سيكبرون ليصبحوا رجالًا مائيين! فأجبه كيف له أن يتأكد من أنهم لا يمرون بهذه المرحلة؟ ومن ثم، كيف يعرف أنهم سيمرون بذلك أكثر مما يعرف عن السمندل الأنكليسي المتوطن في كهوف أدلسبيرج في ألمانيا والذي يواصل نموّه ليصير سمندل ماءً مثاليًا كاملًا.

وإن قال إنَّ تحوُّلَ طفلٍ بريٍّ إلى طفلٍ مائيٍّ هو أمرٌ في غاية الغرابة فاسأله إن كان قد سمع من قبل عن تحوُّل ديدان سيليس، أو ديدان ديستوما أو قناديل البحر المعروفة والتي أحسن العالم الأحيائي كواترفيكس الحديث عنها قائلاً:

«من ممّا لن يفغر فاه مندهشًا من أنّ معجزةً قد حدثت إن رأى حيوانًا زاحفًا يخرج من بيضةٍ وضعتها دجاجة ترقد في فناء لتربية الدواجن، ليولد في الحال، عددًا غير معروفٍ من الأسماك والطيور؟ ومع ذلك، فإن تاريخ قنديل البحر لا يقل روعةً عن حقيقته.»

اسأله إن كان يعرف كلّ شيءٍ عن هذا الأمر وإن لم يعرف، فأخبره أن ينصرف ويبحث عن الأمر بنفسه. ثم، وبكل احترامٍ طبعًا، أسد إليه مشورةً بعدم البت بما لا يمكن أن تجترحه العجائب إلى أن يرى حدوثها كل يومٍ بالفعل. فإن حاجك بأن تلك الأحياء لا يُعقل لها أن «تنحدر رتبةً»! أي أن تتحول لأصنافٍ أقل شأنًا فاسأله:

«من قال له إن الأطفال الذين يعيشون في المياه أقل شأنًا من الأطفال الذين يعيشون على اليابسة؟»

وحتى إن كانوا أقل شأنًا، فهل يعلم بالتراجع النوعي الغريب الذي يحلُّ بأصداف البرنقيات الإوزية الشائعة التي يجدها المرء ملتصقةً في قيعان السفن؟ وكذلك التراجع النوعي العجيب لبعض أنسالها المتتابعة ممن يشقُّ على المرء التحدُّث عنهم لشدة فظاعتهم وقُبْحهم؟

وأخيرًا، إن أجابك - كما سيفعل بالتأكيد - بأنَّ هذه التحوُّلات تطرأ على الحيوانات الدنيا فقط، وليس لها وجودٌ بين الحيوانات العليا، فنقل إن هذا يبدو تصوّرًا في غاية الغرابة بالنسبة للصبيّة الصغار ولبعض البالغين. فلو كانت التغيُّرات في الحيوانات الدنيا عجيبةً خارقةً للطبيعة، ويصعبُ اكتشافها إلى هذا الحد، فلمَ لا تكون هناك تغيُّرات في الحيوانات العليا أعجبٌ وأشدَّ صعوبةً في الاكتشاف؟ قد لا يخضع الإنسان، التاج، والزهرة وغيرهم من المخلوقات لبعض تغيُّراتٍ أعجب من بقية الأحياء كلّهم، حيث أن معرض قصر الكريستال (12) أكثر عجبًا من جحر الأرانب؟ فليجِبْ على ذلك.

(12) معروفٌ أيضًا باسم المعرض الكبير، معرض أقيم في هايد بارك، لندن، إنكلترا برعاية الأميرألبرت زوج الملكة فيكتوريا لعرض عجائب الصناعة والفنون وغيرها.

ولو قال - كما سيقول حتمًا - بأنَّه لم يخبِرْ مثل هذا التحوُّل في واقعه وأنَّه ليس مُلزمًا بتصديقه، فاسأله باحترامٍ فائق: أين هو من مجهره؟ ألا يمرُّ كل فردٍ منا بعد مجيئه إلى هذا العالم، عبر تحوُّلاتٍ مدهشةٍ مثل تحوُّل قنفذ البحر أو الفراشات؟ ألم يُخبرنا المنطق والتشابه الجزئي في الأشكال والوظائف، وكذلك الكتاب المقدس، أن هذا التحول ليس بالتحوُّل الأخير؟ وأنا، على الرغم مما سنكون عليه وهذا ما نجهله، فإننا وصلنا لهذا العالم مثل يرقانةٍ تدبُّ وحسب، وأنا سنصبحُ فيما بعد، أشبه بذبابةٍ مكتملة.

لقد شهد الاغريق القدامى، مثلهم مثل الوثنيين، ما كان عليه الامر قبل ألفي عام مضى، وانا لا أولي أهمية كبيرة لأحاديث ابن العم كرامشايلد بما أنه لم يشهد ما شهدهُ الإغريق وظلّ ينظر للمسألة من زاوية ضيقة. وهكذا دواليك إلى أن يتحوّل إلى شخص سيئ المزاج تمامًا.

ومن ثم أخبره أنه في حالة عدم وجود أطفال المياه البتّة، فلا بد من وجود أطفال وهذا على الأقل، ما لا يستطيع إنكاره.

ويا عزيزي الصغير، حتى تعرف قدرًا كبيرًا عن عجائب الطبيعة أكثر مما يعرفه البروفيسور أوين والبروفيسور هكسلي مجتمعين في الوقت نفسه، لا تخبرني عما يستحيل حدوثه أو أن تتخيل أمورًا خارقة للطبيعة على نحو يصعب تصديقه.

يخبرنا النبي داوود في سفر المزامير أننا «خُلِقْنَا على نحو يُثير الرهبة والعجب» (13).

(13) سفر المزامير إصحاح 139 آية 14 وينص على: أحمدك يا رب من أجل أنني امتزتُ عجبًا. عجيبة هي أعمالك ونفسي تعرف ذلك يقينًا.

وهذه حقيقتنا بالفعل، وكذلك كل شيء من حولنا وصولاً لمائدة الفقراء المصنوعة من أشجار التنوب.

بلى، ونتميّز عجبًا، كما هي المائدة بشكلها الحالي، مجردة، فيما عدا أنها قطعة ساكنة من خشب أشجار التنوب مما - كما تقول الثعالب وتخالها الإوزات - قد تدفعها الأشباح للرقص أو الحديث معكم من خلال القرع عليها.

هل أتحدّث بطريقةٍ جديّة؟ يا للعجب! ألم تُصدّق بعد أنّ هذه حكاية خرافية بكل ما فيها من تسلية؟ وأنه يصعب عليك تصديق ولو كلمة واحدة منها وإن كانت حكاية من أرض الواقع؟

ولكن هذا ما حصل لتوم مهما يكن الأمر. وعليه، فقد ارتكب كلُّ من السيّر جون والحارس وسائس الخيل خطأً فادحاً عندما ميّزوا بقعةً سوداء في الماء وظنوها جثة توم، وشبّه لهم بأنه مات غرقاً!

كانوا مغتمين إلى حدٍّ بعيدٍ دونما مبررٍ وخصوصاً السيّر جون، غير أن ظنهم لم يكن في محلّه إطلاقاً. لأن توم كان على قيد الحياة!

وأصبح أنظف وأكثر بهجةً من أيّ وقتٍ مضى عليه. فكما ترون، قامت الجنيّات بتنظيفه وغسله غسلًا جيّدًا دقيقًا، في نهرٍ سريع الجريان، لدرجة أنه لم يُزايله السناج العالق به فقط، بل وحتى العالق بقشوره وصدفته. وانطلق ليسبح بعيدًا مثل ذبابة القمص وقت يُثقل جرابها الذي يفرز الحصى والحريز، فتنتلق اليرقة مسرعةً تخوض المياه على ظهرها سباحةً صوب الضفة لينفصل جلدّها عنها وتحلّق عاليًا كما لو أنها تتراقص فرحًا، بأجنحةٍ أربعة ذات ألوانٍ زاهيةٍ وأرجلٍ طويلةٍ ولوامس اثنين.

ويا لهم من معشر ذبابٍ حمقى، لأنهم يثبون من فرطٍ سعادتهم على غير هُدًى ويحلّقون باتجاه لهب الشمعة ليلاً إن نسيّت الباب مواربًا! لذلك، نأمل أن يتصرّف توم بحكمةٍ بعد أن خرج من قوقعته القديمة القذرة، في مأمّن وسلامة.

غير أن جون الطيب لم يستوعب الأمر برمّته، فهو لم يكن ذا خبرةٍ في التصنيف اللينيوسي(14). وكل ما أدركه هو أن توم قد غرق. وعندما بحثوا في جيوب توم الفارغة لم يجدوا شيئًا سوى ثلاث كرات من لعبة الدحل(15) وزرّ نحاسيّ مربوطٍ بسلسلةٍ. لا مجوهرات ولا نقود مسروقة. فنَدَّ عن السيّر جون صوتٌ أشبه بالنحيب لم يصدر منه طوال حياته. كان ينتحب، وكان يلوم نفسه بطريقةٍ مريرةٍ. مريرةٍ أكثر مما ينبغي.

(14) وهي منظمة تأسست في عام 1788 في بيرلينغتون هاوس، لندن، للدراسة العلمية للنباتات والحيوانات. سُمّيت على اسم العالم السويدي كارولوس لينيوس (1707 -

(1778)، الذي اخترع نظامًا لتسمية الكائنات الحية، والتي تحتفظ الجمعية بمكتبتها ومجموعاتها العلمية.

(15) الكُجَّةُ أو البلي أو الكلة هي لعبة كروية صغيرة عادة ما تصنع من الزجاج أو الصلصال أو الصُّلب أو البلاستيك أو العقيق. نشأت كرات البلي في حضارة هارابان في باكستان بجوار نهر السند. معروفة باللهجة العراقية بالدعل وباللهجة السورية دحل وبالمغربية البيناغ وبالتونسية بيسة.

وأخذ يبكي، وانضمَّ إليه في بكائه، سائس الخيل والصياد ومساعدَيه. وكذلك سيدة الكوخ والسيدة الصغيرة والخادمت والمرضة العجوز؛ لأن ما حصل، كان خطؤها إلى حدِّ ما. وبكت سيدة القصر أيضًا؛ لأنه ما من سببٍ يمنع أناسًا يضعون شعرًا مستعارًا، من امتلاك قلوبٍ رقيقة، غير أن الحارس لم يبك مع أنه كان بغاية اللطف مع توم في الصباح السابق، وسبب ذلك أن الدموع في عينيه قد جفَّت من الجري خلف الصيادين، لدرجة أنه تعدَّر على الدموع الهروب من عينيه مثلما يتعدَّر الحصول على الحليب من جلود الحيوانات. أما غرايمز فلم يبك، لأن السير جون منحَهُ عشرة جنيهات أنفقها كلها على الشراب خلال أسبوع.

ثم أرسل السير جون للعثور على والدَي توم في كلِّ حَدْبٍ وَصُوب. ولكنه قد يستمر بالبحث عنهم حتى يوم الحساب ولا يعثرُ على أيِّ منهما، حيث كان أحدهما ميتًا، بينما يقطن الآخر في خليج بوتاني.

وطوال أسبوعٍ كاملٍ، لم تلعب الفتاة الصغيرة بالدمى ولم تنس أبدًا شكل توم المسكين. وسرعان ما وضعت سيدة القصر، شاهد قبرٍ صغيرٍ على أسمال توم في مقبرة كنيسة صغيرة في فينديل حيث يرقد سُكَّان الوديان الماضون جنبًا إلى جنب، فيما بين الصخور الجيرية. وراحت سيدة الكوخ تزيِّنه بأكاليل كل يومٍ أحد إلى أن صارت عجوزًا غير قادرة على الحراك. وقتئذٍ، أخذ الاطفال الصغار على عاتقهم هذه المهمة، إكرامًا لعينيها، واستمروا بتزيين قبر توم بالأكاليل.

ولطالما كانت تُغَيِّ أنشودة ضاربة في القَدَم وهي جالسةٌ تغزِل ما تُسمِّيهِ بـفستان زفافها.
ومع أن الصغار لم يتمكنوا من استيعاب كلمات الأنشودة، إلا أنها نالت استحسانهم كثيراً،
فقد كانت أنشودةٌ مُبكِيةٌ وفي غاية العذوبة، وكان ذلك كافياً بالنسبة لهم.

وإليكم كلماتها:

«متى ما تدبُّ الحياة في العالم يا فتى

وتَحَصَّرُ الأشجار برُمَّتِها،

ومتى ما تستحيلُ الأوزات بجعاً يا فتى

ومثل ملكةٍ تغدو كلُّ فتاةٍ

إذا قُلَّ مرحباً للجواد والأحذية يا فتى

وهيا ندور حول العالم

على الصغار المُضيِّ في حياتهم يا فتى

وسينال الجميع ما يستحقُّون عاجلاً أم آجلاً.

متى ما يشيخُ العالم برُمَّتِهِ يا فتى

وتتبددُ حُضرةُ الأشجار

ومتى ما تذوي الحياة وتنطفئ يا فتى

وتتداعى دفّة قيادتها

تَسَلُّ صوبَ المنزل ولا تبرح مكانك

ففي أحضانهِ يستريح المرهقون

وليهب لك الربُّ اكتشافَ مُحيًا

شعرتَ بحُبِّهِ وقتَ كانت جُلُ الأشياءِ فتيةً».

هذه هي كلمات الأنشودة، غير أنها ليست سوى منها، أما روح القصيدة فقد تجسّدت على الوجه الجميل للمرأة العجوز، وفي صوتها الرخيم واللحن العذب العتيق الذي غنّث به، وذلك للأسف ما لا يمكن للمرء أن يصفه على الورقة. وفي النهاية أصبحت جثةً متيبسةً واهنةً لدرجة أن الملائكة اضطرت لإسنادها ومساعدتها في ارتداء ثوب زفافها وحملها بعيدًا عن تلال هارتوثر، إلى رحلة بعيدة، أبعد مما تعتقده أيضًا.

وجاءت من بعدها إلى فينديل، معلمة جديدة. وسأمل بأن شهادتها المدرسية لم يتم التصديق عليها.

وطول ذلك الوقت كان توم يسبح في النهر، وقد أحاط عنقه طوق صغير جميل من الخياشيم. كان نابضًا بالحياة كثعبان الماء، ونظيفًا مثل سمك السلمون الطازج.

الآن، إن لم تعجبك قصتي، فانصرف إلى غرفة الدراسة خاصتك وعُد لتعلم جدول الضرب الخاص بك، وانظر إن كان جدول الضرب، سيروق لك أكثر من هذه القصة، مع أن البعض سيروق لهم بلا شك، وهذا من حُسنِ حطّنا، إن لم يكن من حُسنِ حطّهم. فمقولة البعض هي: يتطلّب الأمر صنوفًا شتى لبناء العالم. فالتنوع نكهة الحياة ومتعتها.

الفصل الثالث

«ثَرَفَعُ صَلَاتُهُ مِنْ يُحِبُّ - بِإِخْلَاصٍ -

البَشَرَ وَالطَّيْرَ وَالْوَحْشَ عَلَى حَدِّ سِوَاءِ

يُصَلِّي عَلَى أَحْسَنِ وَجْهِهِ مِنْ يُحِبُّ بِعَمَقٍ

كُلِّ الْأَشْيَاءِ عَظِيمَةً وَصَغِيرَةً عَلَى حَدِّ سِوَاءِ

كُرْمَى لِلرَّبِّ الْعَزِيزِ الَّذِي يُحِبُّنَا

مَنْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَأَحَبَّ خَلْقَهُ عَلَى حَدِّ سِوَاءِ».

كولريديج.

والآن، فإن توم صار كائنًا برمائيًا. لا تعلمُ ما الذي يعنيه ذلك؟ إذن، من الحكمة أن تسأل أقرب معلّمٍ ما يزال تحت التدريب، ممن قد يُجيبك إجابةً بارعةً بما فيه الكفاية على هذا النحو:

Amphibious: نعتٌ يُطلق على الكائنات البرمائية، مشتقة من كلمتين يونانيتين:

amphi وتعني سمكة.

bios وتعني مخلوق.

كائنٌ مرگّبٌ من سمكةٍ ومخلوقٍ ما - وهذا افتراضٌ ناشئٌ عن جهل أجدادنا - والذي بالتالي، لا يُمكنه العيش على الأرض، ويموت في المياه. مثل فرس النهر..

ومهما يكن من أمرٍ، فقد أصبح نوم برمائياً. والأجمل من ذلك أنه كان، ولأول مرة في حياته، نظيفاً.

وقد شعر بمدى ارتياحه من فكرة أنه ما من شيء يلتصق بجسده سوى جلده. ولم يملك من أمره إلا أن يستمتع بذلك. لأنه لم يكن يدري بشيء ولم يخطر شيء على باله، تماماً كما تستمتع أنت بالحياة وترفّل بالصحة، ومع ذلك لا تفكر أبداً فيهما، وربما سيمر وقتٌ طويلٌ عليك قبل أن تنتبه لأمرهما!

فتوم، لم يعد يذكر أنه كان قذراً في يوم من الأيام. وفي الحقيقة، لم يتذكر أيّاً من محبه السابقة، حيث التعب والتضوّر جوعاً والضرب الذي كان يتعرّض له. حتى أنه لم يذكر عندما كان يتسلّق مرغماً، تلك المداخل المعتمة.

ومنذ تلك النومة الهائلة، نسي كل شيء عن سيده وعن قصر هارثوفر والفتاة البيضاء الصغيرة، وباختصار، نسي كلّ ما حلّ به في حياته السابقة. وأفضل ما في الأمر أنه قد نسي كل كلمة بذيئة تعلّمها من غرايمز والصبية الوقحين الذين اعتاد اللعب معهم.

وهذا ليس بالأمر الغريب. فكما تعلم، عندما جئت إلى هذا العالم وبّت طفلاً بريّاً، فإنك لا تتذكر شيئاً عن المكان الذي قدمت منه. فكيف لتوم أن يتذكر شيئاً بعد أن أصبح طفلاً مائياً؟

ثم هل كنت تعيش حياةً سابقةً؟

من يُمكنه الجزم بذلك يا طفلي العزيز؟ يمكن للمرء أن يؤكد ذلك من خلال تذكر أمرٍ حدث حيث عشنا من قبل، وبما أننا لا نتذكر أيّاً من ذلك، فإننا لا نعرف شيئاً عنه. وما من بشرٍ أو كتابٍ يُمكنه أن يجيب إجابةً واضحةً.

ذات مرة، كان ثمة رجل حكيم. وكان بمنتهى الحكمة والطيبة. وقد كتب قصيدةً تُفصّح عن المشاعر التي تخامر معظم الأطفال بشأن وجود حياةٍ سابقة، وهذه قصيدته (16):

(16) من قصيدة إرهاصات الخلود، وييليام ووردزوث.

«ما مولدنا سوى لمحٍ بالبصر

بين إغفاءة عينٍ ونسيان

فهذي الروح شهابٌ حياتنا

نُفِخَتْ فينا وتسامت،

هذي الروح التي انبثقت من مكانٍ قصيِّ

لا يُشبههُ على الأرض مكان

من غير تجرُّدٍ

من غير نسيانٍ

أتينا مثل سُحبٍ متهاديةٍ

من الله، باعث الأرواح

مستقرنا ومرجعنا».

هناك، حيث لن تجرؤ على معرفة المزيد عن تلك الحياة. بَيِّدَ أَنِّي لو كنتُ مكانك، لآمنتُ بوجودها. لأنَّ معرفة الجنيّة الشهيرة التي على الأرجح، ستظلُّ ملكة كل الجنّيات لسنواتٍ عديدةٍ قادمةٍ، لن يكون بوسعها إلا أن تعود بالنفع عليك ولن تؤذيك البتّة. بدلاً من الجلوس برفقة أناسٍ يتخيّلون، أنّ جسدك هو ما يُشكّل روحك، كما لو أنّه محركٌ بخاريٌّ بمقدوره صنع الفحم الخاص به، أو التخيّل أن ما من علاقة تربط روحك بجسدك فيما عدا أنّ الروح عالقةٌ في الجسد مثل دبوس في مَدْبَسَةٍ يتناثر من أبسط حركة!

عندئذٍ، ستفطن للمبدأ الجوهري لهذه الحكاية المدهشة، وهو أن روحك هي من تشكّل جسدك وتبلورُهُ كما يصنع الحلزون صدفتَه. وبالنسبة للبقية، يكفي أن نتأكد من أننا سنعيش من جديد سواء عشنا من قبل حياةً سابقة أو لم نعيش. وآمل أن نعيش كما عاش توم الصغير المسكين الكافر، رغم أنه غاص صوب الأسفل في الماء، لكنني أرجو أن نمضي بعيداً عنه صوب مكانٍ مختلفٍ تماماً. بيد أن توم كان في ذروة السعادة وهو يخوض في المياه. لأنه ولسوء حظّه، كدَح فوق طاقتِه في عالم الأرض، وقد حان الوقت لتعويضه عن ذلك. فما من عملٍ ينتظره سوى عطلةٍ في عالم المياه، ولفترة طويلة جداً قادمة. لم يكن لديه شيء ليفعله الآن سوى أن يستمتع بوقته وأن يستكشف كل الأمور الجميلة التي يمكنه رؤيتها في عالم المياه الصافي المنعش، حيث تغيب حرارة الشمس والجو شديد البرودة. ولكن، على ماذا كان يعيش؟ لربما كان يأكل جرجير الماء، أو ربما عصيدة مصنوعة من الماء أو حليباً مائياً.. فثمة عددٌ هائل من أطفال البرّ يتناولون ذلك. لكننا لا نعرفُ إلا عُشر ما يأكله سُكّان المياه. لذلك نحن لسنا ملزمين هنا بالإجابة عما يأكله أطفال المياه.

كان يسبحُ أحيانا مُجارياً القنوات المائية الحجرية الممهّدة، يشاهد الصراصير التي تنطّ جيئةً وذهاباً بين الصخور مثلما تنطّ الأرناب على اليابسة. أو يتسلق النتوءات الصخرية ليشاهد طيور ديوك الغاب بالآلاف وهي تتسكّع قرب الحواف المائية وتسقسق، لكل واحدٍ منهم رأسٌ صغيرٌ جميلٌ وأرجل. أو يمضي صوب ركنٍ ثابتٍ ليشاهد ذباب القمص وهو يلتهم الحشرات العصوية المائية الميتة بشراهةٍ كما تأكلون حلوى بودنغ الخوخ، ويبنون منازلهم من الحرير والغراء. إنها مخلوقات تبعث على العجب، فما من واحدةٍ منهن تستهلك نفس مواد البناء، خلال اليوم الواحد.

حيث تستهلّ إحداهن البناء برصفِ بعض الحصى ثم تقوم بلصقِ قطعةٍ من أعوادِ خضراء، ثم تلتقط صدفةً وتقوم بتثبيتها فوق الأعواد أيضاً.. ويا للصدفة المسكينة، فقد كانت على قيد الحياة، ولم ترغب على الإطلاق في أن تؤخذ لتكون جزءاً من مواد بناء منزل، لكن آل ذباب القمص لن يسمحوا له بأن يُعرب عن رأيه في هذه المسألة، ويتصرفون معه بوقاحةٍ وأناييةٍ، كما يتصرف المغتربون بأنفسهم مع الآخرين! ثم بعد ذلك، تضع قطعة من الخشب

التالف، ثم حجر بلون القرنفل، جميل جدًا. وهكذا دواليك حتى يتم ترقيع البناء من كل مكان كما لو أنه معطف أيرلندي.

ثم عثرتُ على قشةٍ طويلة، خمسة أضعاف طولها، فقالت:

«مرحى! تملكُ أختي ذيلًا، وسيكون لي ذيلٌ أيضًا».

فالتقطتهُ وثبتتهُ على ظهرها، وراحت تسير متباهيةً به مع أنه لم يكن مريحًا جدًا في حقيقة الأمر. حينئذٍ، أصبح وجود الذيل، هو الموضة الرائجة بين ذباب القمص في تلك البركة كما كان الأمر عليه في البركة الممتدة في مايو الماضي، حيث يمشي الجميع الهوينى، ومن خلفهم يجرجرون القش العالق بظهورهم متدليًا بين سيقانهم، الأمر الذي يؤدي إلى تعثر بعضهم ببعض حتى يبدون في مشهدٍ مضحكٍ للغاية، مما جعل توم يضحك عليهم حدَّ البكاء مثلما ضحكنا نحن.

ولكنهم كانوا محققين في هذا الأمر تمامًا. فلا بد للناس – كما تعلم – أن يتبعوا الموضة دائمًا، حتى لو كانت قلنسوة على شكل مجرفةٍ طعام.

في بعض الأحيان، يبالغ توم في توغُّله حتى يصل إلى حدٍّ يكون معه ساكنًا في التيار، وهناك يرى الغابات المائية، والتي بالنسبة لك قد تبدو مجرد أعشاب مائية صغيرة الحجم، لكن ليس بالنسبة لتوم! فلا تنسى أنَّ حجمه كان من الصَّغر بمكان، بحيث يبدو كل شيء أمامه أكبر بمئات المرات من حجمه مقارنةً بحجمك. تمامًا كما هي الأشياء بالنسبة لسماك المنوة الذي يُميّز ويصطاد المخلوقات المائية الصغيرة التي لا يمكنك رؤيتها إلا من خلال المجهر! وفي تلك الغابة المائية رأى تنانين الماء وسناجب مائية بأرجلٍ ستة، حيث كل ما حوله في المياه تقريبًا يملك ستَّ أرجل، ما عدا سمندل الماء وصغار المياه ممن يمضون سباحةً بخفةٍ لداخل الشُعاب. كانت هناك أزهار مائية أيضًا، ثمة الآلاف منها، فحاول توم اقتطاف واحدة، ولكن بمجرد لمسها، تنكمش على نفسها وتستحيل إلى عُقدٍ هلامية! حينها

أدرك توم أن كل ما حوله حيٌّ؛ من أشجار البحر الزائفة ونجم البحر والزهور من شتى الأشكال والألوان البديعة. كل ما حوله مأهولٌ ومفعمٌ بالنشاط، تمامًا كحال توم.

وبالتالي، اكتشف أنّ ثمة أمورًا في العالم، أعظم بكثير مما كان يتخيّلها للوهلة الأولى.

كان ثمة مخلوق صغير غريب الأطوار، يظهر من أعلى منزلٍ مبنيٍّ من الطوب المُدوّر، وكان يُثبّت بين أسنانه عجلتين كبيرتين، وأخرى صغيرة تدور وتدور في دوائر كما لو أنها آلة مدرّاس الحبوب، فلبث توم في مكانه يُحدّق به ليعرف ما سيفعله بآلته. وما الذي كان يفعله باعتقادك؟ كان يصنع الطوب!

فباستخدام عجلتيه الكبيرتين، كان يجرف الوحل الطافي في الماء كله، بعد أن التهم كل ما يتخلّله من أشياء لذيذة صالحة للأكل، وحوّل الوحل إلى العجلة الصغيرة المسندة إلى صدره والتي كانت في الحقيقة حُفيرةً مستديرةً مدمجةً بالأسنان. وهناك دوّم الوحل محوّلًا إياه لقرميدٍ مستدير الشكل، صُلب وأنيق المظهر. أخذ القرميد بعد ذلك، وثبّتها أعلى جدار منزله، وشرع في العمل لصنع قرميدٍ آخر. والآن ألم يكن هذا الكائن الصغير، ذكيًّا؟ وهذا ما ظنّه توم أيضًا. ولكن عندما همّ توم بالتحدّث إليه، رأى أن صانع الطوب مشغولٌ وفخورٌ بعمله بحيث لم يتمكن من لفت انتباهه.

خلال ذلك، لا بدّ أن تعرف أن جُلّ ما يعيش تحت الماء، يتحدّث. غير أن لغتهم لا تُشبه لغتنا فحسب. بل مثلها مثل لغة الخيول والكلاب والأبقار والطيور التي تتحدّث بها مع بعضها البعض. وسرعان ما تعلّم توم كيفية التفاهم معهم والتحدّث إليهم ليحظى بصحبة لطيفةٍ فقط، لو أنه يصير ولدًا مطيعًا.

ولكن يؤسفني القول، إنّ توم مثله مثل بعض الأولاد الصغار، كان مولعًا بمطاردةٍ وتعذيبِ المخلوقات لمجرد اللهو والتسلية. يقول البعض، إنه ليس بمقدور الأولاد التحكّم بمثل تلك التصرفات. وبأنّها دليلٌ محضٌ على أننا جميعًا ننحدر أصلًا من مخلوقاتٍ مفترسةٍ لذلك فليس بيدهم حيلة. وهذا هو جوهر طبيعتهم.

ولكن سواء كانت تلك التصرفات نابعةً من الطبيعة أم لا، فبوسع الصبيّة الصغار أن يتحكّموا فيها، ولا بُدَّ من كبح جماحها. فإن كانت طبيعتهم مجبولةً على التصابي والتصرفات المؤذية للعبوب كما تفعل القردة، فهذا ليس سببًا يدعوهم إلى إطلاق العنان لمثل تلك التصرفات مثل القردة التي لا تعرف غير تلك الأحابيل.

ولذلك على توم وأمثاله ألا يُضايق تلك المخلوقات المغفلة. وإذا ما ظلّوا على سجايابهم هذه، فستجيء سيّدة عجوز، وسوف تلقنهم درسًا لن ينسوه أبدًا.

غير أن توم لم يكن يعرف بهذا. وراح يهاجم ويصطاد المخلوقات المائية المسكينة حتى باتت كل المخلوقات تخشاه وتبتعد عن طريقه، أو تتسلل إلى أصدافها وتختبئ. لذا لم يُبقِ توم صديقًا له ليتحدث أو يلعب معه.

ومما لا جرّم فيه أن جنّيات الماء شَعَرْنَ بالأسى لأجل توم وعزَّ عليهنَّ رؤيتهُ مغتمًا وحيدًا وثقنَ لاصطحابه وإخباره بمدى شقاوته لكي يُصْلِحَنَّ من حاله ويلعبنَّ ويمرحن بصحبته أيضًا. بيّد أنهن مُعِنَّ من القيام بذلك. كان على توم أن يتعلم درسه بنفسه بالانخراط في تجربة عميقة وموجعة، كما يفعل العديد من الحمقى الآخرين. مع إنه قد يكون ثمّة العديد من القلوب الرحيمة التي ترنو إليهم طوال الوقت، تواقّة لتأديبهم، بما هم قادرون على تأديب أنفسهم به، لا غير.

ذات يوم، عثر توم على منزل ذبابة قمص، وأراد أن يلقي نظرةً على منزلها غير أن باب منزلها كان مغلقًا. لم يسبق له أن رأى منزل ذبابة قمص ببابٍ من قبل، فماذا يتعيّن على هذا المتطفل الصغير فعّله سوى أن يفتّحه عنوةً ليرى ما تفعله السيدة ذبابة المسكينة في الداخل! ويا للخزي!

هل عساك تتقبّل فكرة أن يقوم أحدهم بتحطيم باب غرفتك ليرى كيف تبدو وأنت في السرير؟ هكذا فعل توم! قام بتحطيم الباب إلى أجزاء، وكان الباب من أجمل الأبواب

الصغيرة المشبّكة بالحريير ومُزَيّنة بقطعٍ من البلورات البرّاقة بأكملها. عندما نظر توم للداخل، أطلّت الذبابة برأسها، واستحالت لشكلٍ من أشكال الطيور فحسب.

لكن، وعندما تحدث إليها توم لم تستطع الذبابة أن تردّ الجواب. لأنّ فهمها ووجهها تمّ تقييدُهما بإحكامٍ تحت طاقيّة نوم جديدة ذات غلافٍ ورديّ أنيق.

على أيّ حال، إن لم تُردّ الذبابة الجواب، فإنّ كلّ ذباب القمص الأخريات أُجبرَ عوضًا عنها. لأنهن رفعن أيديهنّ وأخذن بالصراخ كما فعلت القطط في قصة هارييت وأعواد الثقاب (17). قائلة: «يا لك من فتىّ شقيّ مشاغب! ها أنت ذا تفعلها مرةً أخرى! الذبابة المسكينة، كانت قد تمدّدت في سريرها لتدخل في سباتٍ مدّته خمسة عشر يومًا، لتستيقظ بعد ذلك وتظهر بأجنية جميلة وتطير وتضع الكثير من البيض. والآن فإنك قد حطمت بابها، وهي لن تتمكن من إصلاحه لأنّ فهمها مغلقٌ لخمسَ عشر يومًا، ولهذا ستموت. مَنْ أرسلك لإزعاجنا وبثّ الدُعر في حياتنا؟»

(17) قصة هارييت وأعواد الثقاب: قصة من مجموعة قصص بعنوان (بيتر ذو الشعر المنكوش) للألماني هاينرش هوقمان.

وهكذا، سبح توم مبتعدًا خجلًا من نفسه أيّما خجل! يُخامرُهُ شعور عميق بمدى سوء سلوكه، كما يفعل الأطفال الصغار عندما يرتكبون خطأً ولا يعترفون به.

ثم جاء إلى بركة ملىء بسمك السلمون وبدأ بمضايقته ومحاولة الإمساك به. غير أنهم راحوا ينزلقون ويتفلّتون من بين أصابعه، ويقفزون خارج المياه لشدة دُعرهم. وبينما استمرّ توم بملاحقتهم، أصبح قريبًا من حومٍ مظلم كبير تحت جذور نبات جار الماء من حيث خرجت سمكة سلمون عجوز ضخمة بنيّة اللون، تبلغ عشرة أضعاف حجم توم، انطلقت صوبه مباشرةً وارتطمت به في معدته بقوة، حتى لم يعد بمقدور توم التنفس. حينئذٍ، لم أدّر أيّهما كان الأكثر رعبًا من الآخر.

مضى توم مبتعدًا عن ذلك المكان، بوجهٍ متجهٍم وبلا مؤنيس كما يستحق.

ثم وصل لإحدى الضفاف حيث رأى مخلوقًا يجلس في الأسفل منها، مخلوقًا قذرًا قبيحًا بنصف حجم توم تقريبًا، له ست أرجلٍ ومعدةٌ كبيرةٌ، ويملك رأسًا مثيرًا للسخرية وعينين كبيرتين ووجهٍ كوجه الحمار تمامًا.

«أوه! يا لك من مخلوقٍ قبيحٍ!» قال توم، الذي بدأ يسخر منه برسمٍ تعابيرٍ مضحكةٍ على وجهه. ثم قرَّب أنفه من وجهه وبدأ بالصراخ عليه كما يفعل أيُّ صبيٍّ سيئ السلوك.

عندها، وكما لو حدث الأمر بعصا ساحر، انسلخ الوجه الشبيه بالحمار في لحظات، وانبتقت منه ذراعٌ طويلةٌ بزوجٍ من الكفوف المخلبية في نهايتها، وأمسك توم من أنفه. لم يؤذِه ذلك كثيرًا، لكنه أمسك بأنفه على نحوٍ شديدٍ إلى حدٍّ ما.

«أوه. آه. دعني وشأني».. صاح توم.

«إذن دعني وشأني أنت!».. صاح المخلوق. ثم أضاف: «أحتاج إلى الهدوء.. أريد الانقسام».

فوعده توم بأن يتركه وشأنه، فأطلق سراحه.

«لماذا تريد أن تنقسم؟».. سأله توم.

«لأن إخوتي وأخواتي قد انقسموا جميعًا، وتحولوا إلى مخلوقات جميلة بأجنحة، وأريد أن أنقسم أيضًا. لا تكلمني! أنا واثقٌ بأنني سأنقسم! سوف أنقسم».

فلزم توم مكانه دونما حركة، وأخذ يراقبه. تضخَّم حجم المخلوق وانتفخ ثم مدَّ جسده على نحوٍ عنيفٍ. وأخيرًا، تشقق، انتفخ، وانفلق فاتحًا كل ظهره رجوعًا، ومن ثمَّ صعودًا لقمة رأسه. فخرج من أحشائه أكثر المخلوقات رخاوةً ولطفًا ونعومةً، مثل توم. لكنه شاحبٌ وفي غاية الوهن، مثل طفلٍ ظلَّ مريضًا لفترةٍ طويلةٍ قضاها في غرفةٍ لا تصلها أشعة الشمس.

فحرّك ساقيه على نحوٍ ضعيفٍ جدًّا ونظر إليها بخجلٍ نوعًا ما، كما لو أنه فتاةٌ تدخل قاعة الرقص لأول مرة. ومن ثم بدأ يسير ببطءٍ نحو ساق العشب إلى قمة الماء.

أصابته الدهشة توم لدرجة أنه لم ينبس ببنتِ شفة، ووقف يحملق وسع عينيه. ثم صعد إلى سطح الماء أيضًا وراح يختلس النظر ليري ما سيحدث.

وبينما كان المخلوق جالسًا تحت أشعة الشمس الدافئة المشرقة، خيم عليه تعبيرٌ هائلٌ، حيث أصبح قويّ البنية و متماسكًا، وبدأ جسده يتكشف عن أجمل الألوان المحببة للنظر من الأزرق والأصفر إلى الأسود، على شكل بقع وأشربة وحلقات. ومن ظهره، برزت أربعة أجنحة شفيفة وكبيرة ذات لونٍ بُنيّ زاهٍ. وبرزت له عينان كبيرتان لدرجةٍ أنهما ملأتا كل رأسه، تشع وتألّق كما لو أنها عشرة آلاف ماسةٍ ملتصقةٍ حول كل شبرٍ من رأسه.

«أوه، إنك مخلوقٌ جميلٌ..» قال توم الذي مدَّ يده ليمسك به.

إلا أنّ المخلوق فرد جناحيه وانطلق عاليًا محدثًا صوتَ طنين، بعدها عاد وظلّ معلقًا في مكانه لبعض الوقت، ثم حطَّ بالقرب من توم دونما خوفٍ البتّة.

«لن تتمكن من الإمساك بي مطلقًا. إنني الآن حشرة اليعسوب الذي يُعدُّ ملك كل الحشرات. سأطير عاليًا تحت أشعة الشمس، وأحلّق كالصقور في وضح النهار وأصطاد البعوض. وستكون لي زوجةٌ جميلةٌ مثلي. أعرف ما يجدر بي فعله، مرحى!».. وطار عاليًا في الهواء، وشرع في اصطياد البعوض.

«أوه.. عدّ، عدّ إلى هنا».. ارتفع صوت توم. «ليس لديّ أحدٌ لألعب معه. وأشعر بوحشةٍ بالغةٍ هنا. إن رجعت لن أحاول الإمساك بك مجددًا أبدًا».

«لا يُهمّني إن كنتَ ستمسك بي أم لا».. أجابه اليعسوب. «لأنك لن تتمكن. ولكن عندما يحين موعد عشائي، سأعود باحثًا عن هذا المكان الساحر. ونحظى بالقليل من الحديث عن كل ما رأيته في أسفاري. عجبًا! يا لهذه الشجرة العملاقة! ويا لأوراقها الضخمة!».

غير أنّ ما رآه اليعسوب، لم يكن سوى نبتة بريّة ذات أوراق واسعة كبيرة. فكما تعرفون، لم ير اليعاسيب سوى القليل من الشجيرات المائية مثل النبتة النجمية وعدادات الورق والحوذان المائي وما شابه. لذا فقد بدت النبتة البريّة شيئًا عملاقًا بالنسبة له. إلى جانب ذلك، فإن اليعاسيب تنسم بقلة التمييز، بسبب نظرها المحدود مثل كل أبناء جنسها. وليس بمقدورها رؤية مسافة أبعد من أرنبّة أنفها، وهو أفضل من الكثير من أجناسهم الأخرى الذين لن يصلوا لنصف وسامته.

عاد اليعسوب، وراح يتجاذب أطراف الحديث مع توم. إلا أنه بدا معتدًا بنفسه إلى حدّ ما، لحسن هيئته وألوانه وأجنحته الكبيرة. لكن كما تعلمون، فإنه كان مخلوقًا بائسًا قبيحًا وقدّرًا طوال حياته السابقة، الأمر الذي جعل لتبجّجه، مسوّغاتٍ عديدة.

كان مولعًا للغاية بالتحدث عن كل الأمور العجيبة التي رآها خلال الأشجار والمروج، وقد راق لتوم الاستماع إليه لأنه نسي كل ما هو متعلّق بهم. وهكذا، أضحيا بعد فترة من الزمن صديقين عزيزين. لذلك يسرّني القول بأن توم، تلقّى درسًا كبيرًا في ذلك اليوم. فهو لم يضايق أيّ مخلوقٍ لزمّنٍ طويلٍ بعدها. وأصبح ذباب القمص أكثر ألفةً تجاهه، واعتادوا أن يحكوا له قصصًا عجيبةً حول كيفية بناء منازلهم، وعن تغيير جلودهم وتحولهم إلى بعوضٍ مجنّحٍ في نهاية المطاف. حتى بات توم تواقًا لتبديل جلده ولأن يمتلك أجنحةً مثلهم في يوم من الأيام. وهكذا، عوّضوا معًا - توم وسمك السلمون - كل ما فات، لأن سمك السلمون نسي كل ما سبّب له لهم توم من ترويعٍ وأذى.

لذا اعتاد توم أن يلعب معهم لعبة الفريسة والصيد وكانوا يقضون وقتًا ممتعًا للغاية فيها، واعتاد أيضًا لعبة محاولة الخروج من الماء، رأسًا على عقب، مثلما اعتادوا لعبها قبل أن يهطل المطر بغزارة. غير أنه بطريقةٍ ما، لم يُفْلِح في تدبّر أمره.

لكنّه أحبّ أكثر، أن يرى براعة البعوضة في هذه اللعبة، حيث كانت تُبحر وتدور تحت ظل شجرة البلوط الكبير، حيث تسقط الخنافس وترتطم بسطح الماء، وحيث تُفْلِث اليرقات الخضراء جسدها عن طريق حبال الحرير من على الأغصان دون سببٍ على الإطلاق، ومن

ثم يغيرون رأيهم دون سبب، ويسحبون أجسادهم مرةً أخرى لأعلى الشجرة، وهم يلفون حبل الحرير على شكل كرة بين أقدامهم. وهذه خدعة ذكية جدًا لمهرج بهلواني بحيث لم يجرؤ لا تشارلز بلوندين ولا جول ليوتارد على أدائها. رغم أنه ما من أحدٍ يعرف، لمَ عساهم أن يتكبدوا مثل هذا العناء في ذلك! فهم، لا يستطيعون كسبَ لقمة عيشهم بهذه الطريقة كما يفعل بلوندين وليوتارد في محاولتهم لحزّ أعناقهم بخيط!

وفي كثيرٍ من الأحيان ينجحُ توم باصطيادهم بمجرد ملامستهم لسطح الماء، فاصطاد ذبابة جار الماء، والصرصار وذبابة مايو - في مرحلة طور ما قبل البلوغ وفي مرحلة البلوغ النهائي بلونيتها البني والأصفر، الأرجواني والرمادي، وأعطاهم لأصدقائه من سمك السلمون المرقط. ربما لم يكن توم لطيفًا مع صنف الذباب، لكن على المرء أن يقدم معروفًا لأصدقائه عندما يستطيع. وفي النهاية، أمسك عن اصطياد الذباب لأنه تعرّف على إحداهن بالصدفة، واكتشف أن الذباب كائنٌ صغيرٌ بغاية الظرافة. وهذه هي الطريقة التي تحدث بها الأمور، وهي صحيحةٌ تمامًا.

فذاتَ نهارٍ قائظٍ من شهر يوليو، وبينما كان توم عائماً فوق سطح المياه ليصطاد ذبابة مايو - غير ناضجة - ويُطعم أصدقاءه من سمك السلمون المرقط، رأى صنفاً جديداً من الذباب، كائناً صغيراً ذا لونٍ رماديٍّ داكنٍ ورأسٍ بُنيّ. لقد كان صغيراً للغاية في الواقع، لكنه استغلَّ هذه المزيّة فيه إلى أقصى حدٍّ ممكنٍ، كما تقوم معظم المخلوقات بذلك. كان مغترّاً بمظهر رأسه وأجنحته وذيله وحتى بالشعرتين المتبقيتين على ذُبره. باختصار، كان من أكثر المخلوقات إعجاباً بنفسه من بين كل الكائنات الصغيرة. وهكذا أثبت جدارته، لأنه وبدلاً من الهروب، قفز على إصبع توم، وحطَّ هناك بجرأةٍ ووضوحٍ كوضوح أجراس كنيسةٍ تُقرع تسع مراتٍ إيذاناً بموتٍ أحدهم. وأخذ يصرخ بصوته الخافت بنبرةٍ ثاقبةٍ دقيقةٍ لم تَمُرَّ على أسماعكم من قبل على الإطلاق، قائلاً:

«في الحقيقة، إنني ممتنٌ لك، لكنني لستُ بحاجة لها بعد الآن.»

«بحاجةٍ لماذا؟» أجاب توم مندهشاً من صفاقته.

«ساقك، التي تكزمت بمدّها لي لأجلس عليها. ينبغي أن أذهب لرؤية زوجتي لبضع دقائق!
يا إلهي! يا له من عملٍ عائليّ مزعجٍ!.. على الرغم من أن هذا الوغد الحقير لم يفعل شيئًا
على الإطلاق سوى أنه ترك زوجته المسكينة لتضع البيض بمفردها، ثم أكمل قائلاً: «عندما
أعود، سأكونُ مسرورًا لو كنتَ طيبًا بما فيه الكفاية إن أبقيتها ظاهرةً بهذا الشكل».. ثم طار
مبتعدًا.

تبادرَ إلى ذهن توم بأنه شخصيةٌ رائعةٌ وأكثر من ذلك، عندما عاد بعد خمس دقائق، وقال:
«آه، سئمت من الانتظار، أليس كذلك؟ حسنًا، ساقك الأخرى ستّفي بالعرض».

وجثم على ركبة توم، وطفق يثرثر بصوته الحادّ.

«إذن، أنت تعيش تحت المياها؟ إنه مكان وضيع، فقد عشتَ هناك لفترةٍ من الزمن، وكان
مكانًا بائسًا شديد القذارة. لكنني فطنتُ إلى أن دوام ذلك الحال ليس مناسبًا، لذا تحوّلتُ
لكائنٍ يستحق التقدير، وخرجتُ من القاع. ارتديتُ هذه الحُلّة الرمادية وهي حُلّة أنيقة
مرتبة، أليس كذلك؟».

«أنيقةٌ جدًّا ولطيفة».. أجابه توم.

«نعم، عندما يصبح المرء **ربّ أسرة**، فلا بد أن يصير حسنَ المظهر، لطيفًا، ومحترمًا، وكل ما
يُمثُّ بصلّةٍ لذلك. لكنني ضقتُ ذرعًا في الحقيقة. لقد أنجزتُ الكثير من العمل خلال الأسبوع
الماضي، يكفيني حياتي كلها. لذا قررتُ ارتداء هذه الحُلّة المناسبة للحفلات الرسمية
والانطلاق لاكتشاف هذا العالم المُبهج وأحظى ببعض الرقص. لِمَ لا يحظى المرء بالبهجة
إن كان بوسعه ذلك؟»

«وماذا ستفعل زوجتك؟»

«أوه! إنها مخلوقة ساذجة وغبية، وهذه هي الحقيقة وما من شيءٍ لديها لتفكر به سوى وضع البيض. إن اختارت المجيء معي، لِمَ عساها لا تأتي؟ وإن لم يكن كذلك، لِمَ عساها ألا أذهب بدونها؟ وها أنا ذا!».

وبينما كان يتحدث، شَحَبَ لونه حتى تحوّل للأبيض تمامًا.

«إنك مريض!».. قال توم، فلم يلقَ جوابًا.

«إنك تحتضر!».. أضاف توم محدقًا فيه وهو يجثو على ركبتيه شاحبًا مثل شبح.

«كلا، لا أحتضر».. أجابه صوتٌ حادٌ صغيرٌ من فوق رأسه! وتابع قائلاً: إنني هنا في الأعلى في حُلَّتِي، وجلدي هناك على ركبتك.. هاهاها! لن تستطيع القيام بمثل هذه الخدعة!».

ولن يجرؤ توم ولا روبرت هوديني ولا روبن ولا فريدرك فريكل ولا كل السحرة في العالم على القيام بذلك! لأن ذلك المخارِع الصغير تخلص بسهولةٍ من جلده وتركه منتصبًا على ركة توم، عينيه، أجنحته، ساقيه، ذيله، تمامًا كما لو كان على قيد الحياة.

«هاهاهاها!».. قهقهه، وراح ينطُّ ويحطُّ للأعلى والأسفل دون لحظةٍ توقفٍ واحدةٍ، تمامًا كما لو أنه يُعاني من رُقاص سيدنهام(18).

(18) رُقاص سيدنهام: يُشار إليه تاريخيًا باسم رُقاص القديس فيتوس، مرض يتميز بحركات سريعة غير متناسقة فجائية تؤثر على الوجه والقدمين واليدين بشكلٍ أساسي. ينتج رُقاص سيدنهام من عدوى بالبكتريا الكروية السبحية مجموعة A

«ألسْتُ جميلًا الآن؟».. قال الكائن.

وكان جميلًا بالفعل، فجسدهُ استحالَ أبيضً، وذيلهُ تحولَ للون البرتقالي، بينما اجتمعتُ في عينيه كل الألوان الموجودة على ذيل الطاووس. وما زاد الأمر غرابةً وعجبًا، أن الشعرات على دُبُرهِ صارت أطول خمس مرات عمّا كانت عليه من قبل!

«والآن سأرى هذا العالم العجيب. لم يَعُدْ لديّ فَمٌ ولا معدة لهذا، فإن معيشتي، لن تكلفني الكثير. لن أشعر بالجوع ولن أُصابَ بألمٍ في المعدة».

وبالفعل، استحال لكائنٍ شفيفٍ مجوفٍ قبيحٍ مثل شوكةٍ من أشواك القنفذ، كما تستحق المخلوقات منعدمة الضمير أن تصير. ولكن، بدلاً من أن يخجل من خوائه ولا جدواه، أخذ يفتخر به إلى أبعد حدٍّ مثل العديد من النبلاء اليافعين، وبدأ يتغنّج ويتقلّب جيئةً وذهاباً، وَيُعَنِّي:

الغناء عليّ، وعلى زوجتي الرقص،

حتى أمضي اليوم بمرح

وأدخِرَه لأيام تتطلّب العيش

بمنطقيةٍ أكثر

وأناى بهذه الهموم عنّا.

وظفق يرقص غدواً ورواحاً لثلاثة أيامٍ وثلاث ليالٍ، حتى أخذ التعب منه مأخذاً وسقط في البحر وعام على امتداد سطحه. لكن توم لم يستوعب أبداً ما حلّ بالكائن الذي – هو شخصياً – لم يبال بما حدث. لأن توم سمعه يغني حتى النهاية وهو يعوم:

«وأناى بهذه الهموم، بعيداً جداً جداً».

وإذا لم يكثرث هو بنفسه، فلمَ قد يكثرث به أحدٌ آخر؟

ذات يومٍ انخرط توم في مغامرةٍ جديدةٍ. حيث كان يجلس على ورقةٍ من أوراق زنبق الماء برفقة اليعسوب يشاهدان البعوض وهو يتراقص، البعوض الذي التهم اليعسوب منه كما

أراد، ثم لبث مكانه بلا حراك بعد أن داهمه التُّعاس بسبب الحرِّ القائظ وأشعة الشمس الساطعة في كبد السماء.

بينما انشغل البعوض بالغدوِّ والرَّواح بسعادةٍ عارمةٍ دون أن يولوا اهتمامًا بميتةٍ أخوتهم المساكين. واستقرَّت ذبابة سوداء كبيرة على بُعْدِ بوصةٍ واحدةٍ من أنفِ اليعسوب، وشرعتْ تنظف وجهها وتمشّط شعرها بكفّيتها، لكن اليعسوب لم يبرح مكانه أبدًا، وظلَّ يتحدث مع توم عن الفترة التي كان يعيش فيها تحت الماء.

وعلى نحوٍ مبالغٍ، تنهى إلى أسمع توم صوتٌ في غاية الغرابة صادرٌ من جهةٍ أعلى الجدول. مزيجٌ من الهديل والطين والنخر والزمجرة كما لو أنك قد جمعت في كيس حمّامين، وتسعة فئران، وثلاثة خنازير غينية، وجروٌ أعمى، وتركتهم هناك ليهدئوا من روعهم ويتفرغوا لعزف الموسيقى. فرفع عينيه صوب الماء ورأى مشهدًا بنفس غرابة الأصوات التي سمعها. رأى كرةً كبيرةً تتدحرج مرارًا وتكرارًا أسفل الجدول، تبدو للوهلة الأولى كأنها كرةٌ من الفراء البنيِّ الناعم، وأحيانًا كأنها كرة من الزجاج المتلألئ. ومع ذلك، لم تكن كرة! لأنها راحت تنفصل وتتدفق بعيدًا على هيئة أجزاء، ثم تلتحم مرةً أخرى. وطوال ذلك الوقت، فإن الصوت الناتج عنها كان يعلو أكثر فأكثر.

سأل توم اليعسوب عن ماهية هذا الشيء الذي يراه. ولكن، وبطبيعة الحال، فإن قِصرَ بصرِ اليعسوب حال بينه وبين ملاحظة ذلك الشيء. حتى على الرغم من أنه لم يكن إلا على بُعْدِ عشر ياردات منهم. لذلك، غاص توم برأسه الصغير النظيف في المياه ومضى ليعرف بنفسه، وعندما اقتربَ تبيّنَ له أن الكرة كانت عبارة عن أربعة أو خمسة مخلوقات جميلة، بأحجامٍ تفوق حجم توم مرّاتٍ عديدة، حيث كانوا يعومون ويغطسون هنالك ويتدحرجون ويتلوون، يتصارعون ويتعانقون، يتبادلون القبل والقرص والخمش، بأكثر الطرق التي لم يسبق لك رؤيتها، سحرًا. ولكن، حالما وقع نظرك كبيرهم على توم، انطلق أكبرهم بسرعةٍ من وسطهم وراح يصيح صيحةً حادةً بما يكفي بلغة المياه: «هلمّوا يا صغار، ثمّة مخلوقٌ هنا صالح للأكل!».«

وانطلقوا صوب توم المسكين، كاشفين عن زوجٍ من الأعين التي تقدح شرراً، وفمٍ ضاحكٍ يكشّر عن مجموعةٍ من الأسنان الحادّة. الأمر الذي دفع توم – بعد أن خيّل إليه أنها كائنات جميلة – لأن ينسلّ فيما بين جذور زنبق الماء بأسرع ما يمكنه قائلاً: «منظر تلك المخلوقات خيرٌ من مَخْبَرِهِمْ!».

ثم استدار نحوهم راسماً على وجهه، تعابيراً ساخرةً منهم.

«أخْرُجْ».. صاحت أنثى القندس البالغة الحقيرة. «هيا أخرج، وإلا سيكون الأمر عليك أشدّ وأسوأ!»

فحدّجها توم بنظرةٍ من بين الجذور الغليظة وقام بهزّهم بكل ما أُوتِيَ من قوّةٍ مع استمراره برسم تعابيرٍ ساخرةٍ فظيعةٍ مثلما كان يفعل عبر الأسوار بوجه النساء العجائز حيث عاش من قبل. وبلا ريب، لم تكن عاداته هذه حسنةً، لكن وكما تعلم، لم ينته توم من تعلّم درسيه بعد.

«فلنبتعد يا صغار» صاحت أنثى القندس بنبرةٍ يشوبها القرف. «هذا الشيء لا يستحق أن يؤكل على الإطلاق. فهو مجرد سمندل ماء مقرّف، لن يقترب منه شيء ولا حتى أسماك الكراكي الوضيعة التي تعيش في هذه البركة».

«لستُ بسمندل ماء! السمادل تمتلك ذيلًا».. أجابها توم.

«بلى إنك سمندل».. أجابت أنثى القندس مؤكّدةً على قولها. «أرى يديك بوضوح وأعلم أن لديك ذيلًا».

«أخبرتكُ أنني بلا ذيل! انظري!».. قال توم، ثم استدار بجسده الصغير الظريف وكما هو متوقّع، لم يكن يملك ذيلًا كما لا تملك أنت أيضًا. ولعل أنثى القندس حاولت التنصّل من الأمر بقولها إن توم كان ضفدعًا. لكن حيوان القندس، مثله مثل العديد من المخلوقات الأخرى، عندما يتفوّه بأمرٍ ما فإنه يُصرّ عليه بغض النظر عن صوابه أو خطيئه. لذلك أجابت:

«أؤكد لك بأنك سمندل، سمندل ماء حقيقيّ، وإنك لَطَعَامٌ غير مناسبٍ للمحترمين مثل صغاري ومثلي. يمكنك البقاء حيث أنت حتى تلتهمك أسماك السلمون».

مع إنها كانت على درايةٍ بأن السلمون لن يأكل توم، إلا أنها أرادت ترويع توم المسكين.. «ها! ها! سيلتهمك السلمون ونحن من سنأكلهم!».

وأخذت أنثى القندس تضحك بنبرةٍ قاسيةٍ مِيَالَةٍ للشَّرِّ كما قد تتخيلون ضحكاتهم أحيانًا، والتي في المرة الأولى التي تسمعونها فيها، سوف تعتقدون بأنها أصوات أشباح.

«ما هو السلمون؟».. تساءل توم.

«سمك. سمكةٌ كبيرةٌ لذيذةٌ أيُّها السمندل. إنهم أسياد الأسماك. ونحن أسياد السلمون!»
وضحكت أنثى القندس مرةً أخرى، ثم أضافت: «إننا نصطادهم من البركة ذهابًا وإيابًا ونضيق عليهم الخناق! تلك المخلوقات السخيفة. إنهم مخلوقات شامخة الأنوف تستأسد على أسماك السلمون الصغيرة المرقطة وعلى سمك المِنُوَّة، حتى يروننا مقبلين فيتحوّلون بعد ذلك لمخلوقاتٍ بغاية الوداعةٍ تمامًا. غير أننا نذري التهامهم دفعةً واحدةً لذلك، عندما نصطادهم، فإننا نقضم حناجرهم الغضة ونمتصّ عصارتهم الزيتية الشهية، أووه.. يا لها من شهيةٍ». قالت أنثى القندس التي أخذت تلعق شفيتها اللعنتين. «ومن ثمّ، نرميهم ونصطاد غيرهم. سيأتون قريبًا يا صغار، سيأتون قريبًا، بإمكانني أن أشمّ رائحة المطر وهو قادمٌ من البحر، ومن ثم، مرحي للمياه العذبة والسلمون والكثير من الطعام طوال اليوم».

وشمخت أنثى القندس بأنفها لدرجة أنها انقلبت رأسًا على عقب مرتين، بعدها وقفت منتصبَةً نصفها خارج الماء وهي تكشّر عن ابتسامَةٍ عريضةٍ تنمّ على الشرّ مثل تكشيرة القط شيشاير(19).

(19) القط شيشاير: شخصية خيالية معروفة في رائعة لويس كارول «أليس في بلاد العجائب»، شهيرة بتكشيرتها الرمزية.

«ومن أين يجيئون؟».. سأل توم الذي بقيَ على مسافةٍ لأنه كان مرعوبًا.

«من قلب البحر أيها السمندل، من البحر الكبير الشاسع حيث يعيشون بأمانٍ إن راق لهم ذلك. ومن قلب البحر تجيء تلك المخلوقات المعتوهة صوب النهر الكبير في الأسفل فنذهب نحن ونترصدّهم، وحالما تغوص من جديد، فإننا نغوص ونثبّعهم. وهناك نصطاد أسماك القاروس والبُلوق، ونقضي أيامًا مرحةً على امتداد الشاطئ حيث تتقاذفنا الأمواج المتكسرة على الشاطئ ونستغرق في نومٍ رغيدٍ بين الصخور الجافة الدافئة. أووه يا لها من حياةٍ تفيضُ بهجةً لولا هؤلاء البشر المزعجون!».

«وماذا يكون البشر؟».. استعلم توم مع إنه بطريقةٍ ما، بدا وكأنه يعرف الإجابة قبل أن يسأل.

«مخلوقات تسير على قدمين أيها السمندل. وإني جئتُك الآن لألقي نظرة عليك، لأنهم في الواقع شيء ما يشبهك إن لم يكن لديك ذيل!» أجابت أنثى القندس التي كان مُصرّةً على أن يكون لتوم ذيل ثم تابعت: «غير أنهم ولسوء حظنا، أضخم منك إلى حدٍ كبير. إنهم يصطادون الأسماك بالصنارات والخيوط التي تعلقُ بأقدامنا أحيانًا كثيرة. وينصبون فخاخًا على طول الصخور لصيد الكركند. لقد طعنوا زوجي المسكين عندما خرج ليحلب لنا طعامًا. كنتُ أرقد فيما بين الصخور آنذاك، وكنا نحيا حياةً قاسيةً أشبه بحياة الملعونين حيث كان البحر هائجًا للغاية بحيث لم تقترب أيّ سمكةٍ صوب الساحل. لكنهم طعنوه بالرمح، ورأيتهم يحملونه بعيدًا على عمود. على العموم، لقد خسرَ حياته من أجلكم يا صغار. يا لوالدكم العزيز المسكين الصالح».

وهنا، فاضت أنثى القندس بمشاعر جيّاشة، لأنه يمكن للمشاعر أن تغمر القنادس في حال رغبتهم بذلك، مثلهم مثل العديد من المخلوقات الطيبة التي يغلب على طباعها القسوة والجشع على حدٍ سواء، ولا إحسان لأحد في ذلك بالمرّة. حتى أنها نزلت في الماء وغادرت مبتعدةً. ولم يرها توم بعد ذلك الوقت. ومن حسن حظها أنها غادرت لأنها لم تكذب تذهب، حتى ظهر من آخر الضفة سبعة كلابٍ تزيّر صغيرة هائجة، تتشمم وتنبح وتبحث حولها

وتطرطش في المياه وتنبح بأعلى صوتها وراء القندس. فاخْتَبَأَ توم بين زنابق الماء حتى اختفت لأنه ما كان بوسعِه أن يَخْمَنَ إذا ما كانت تلك المخلوقات هُنَّ جنيات الماء على هيئة كلاب جاءت لمساعدته.

إلا أنه لم يَغِبْ عن بَالِهٍ ما قالته أنثى القندس عن النهر الكبير والبحر الواسع. وبَقَدْرٍ تفكيرِه بهما، كان تَوَاقًا للمُضِيِّ ورؤيتهما.

ولم يستطع معرفة السبب. ولكن كلما فَكَّرَ بالأمر أكثر، كلما زاد سَخَطُهُ من الجدول الضيق الذي عاش فيه، ومن كل رفاقه هناك، وكلما ازدادت رغبته بالخروج إلى العالم الواسع والاستمتاع بجميع المناظر الرائعة التي كان متأكدًا من أنها سابعة. وبمجرد أن بدأ رحلته ليعود إلى الجدول نزولًا، رأى أن الجدول كان منحدرًا للغاية. وعندما وصل إلى الضحل، لم يستطع أن يبقى تحت الماء لأنه لم يكن ثمة مياه ليبقى تحتها. فلفحت الشمس ظهره حتى أصابته بالإعياء. فعاد مرةً أخرى، ومكث حبيس الصمت في البركة لأسبوع كامل.

وفجأةً، ذات مساء يومٍ شديد القيظ، رأى مشهدًا.

كان يتصرف بطريقةٍ تَمُّ على غياب بالغ طوال اليوم، وكذلك سمك السلمون المرقط. لأنهم لم يتحركوا بوصلةٍ واحدةٍ لاصطياد الذباب على الرغم من وجود الآلاف منهم على سطح الماء. عوضًا عن ذلك، استغرقوا في غفوةٍ في القاع تحت ظلال الصخور، وتوم كذلك، كان مسرورًا بأنه يحتضن جوانبها الباردة الملساء. فمياه البركة كانت فاترةً إلى حدٍّ ما، ومزعجة.

لكن، فُبِيلَ حلول المساء، خَيَّمَ الظلام بشكلٍ مباغت. فرفع توم بصره للأعلى، ورأى طبقةً رقيقةً من السُحُب السوداء تستقر فوقه مباشرةً. تغطي الوادي وتظلل الجرف يمينه ويسره. لم يشعر توم بالفزع بل لاذ بالصمت، فكل شيء كان هادئًا حيث لم يكن ثمة هبة للرياح، ولا أدنى سقسقةٍ للطيور. بعد لحظات، تساقطت بضع قطراتٍ كبيرةٍ من المطر وارتطمت بسطح البركة. فوقعت إحداها على أنف توم؛ الأمر الذي جعله يَخْفِضُ رأسه على نحوٍ

مباغتٍ سريع. عندها، دوى الرعد وأومض البرق الذي خطف سريعًا عبر فينديل زهابًا وإيابًا. ومن سحابةٍ لسحابة، ومن جرفٍ لجرف، حتى بدت كل الصخور في الجدول وكأنها تهتز. فأخذ توم ينظر للمشهد عبر سطح المياه فخيّل إليه أن ذلك أبهى ما رأته عينيه في حياته برمتها. إلا أنه لم يجرؤ على إخراج رأسه خارج المياه لأن المطر أخذ ينهمر كأنما يندلق من دلوٍ ممتلئٍ بالماء لدرجة أن الواابل هطل فوق الجدول مثل طلقات نارية، فتمخض عنه الزبد. وسرعان ما فاض الجدول واندفع السيل أعلى فأعلى واستحال المشهد من سيئٍ لأسوأ. حيث طفح السيل بالخنافس والحشرات العسوية والديدان وبيوض فاسدة ودابة الأرض والعلاقات وأشياء متفرقة من هنا وهناك؛ ما يكفي لملء تسعة متاحف منها. إلا أن توم، بالكاد صمد في وجه السيل حيث اختبأ وراء صخرة. لكن أسماك السلمون المرقط لم تحذ حذوّه، بل انطلقت من بين الحصيات وراحت تلتهم الخنافس والعلاقات بأشد الأساليب شراهةً وجشعًا. ثم مضت بين المياه والديدان الكبيرة تندلى من أفواهاها وهي تكدح وتقاوم لإبعادهم من بعضهم بعضًا.

بعد ذلك، ومن خلال سنا البرق، لاحظ توم مشهدًا جديدًا. حيث رأى قاع الجدول ممتلئًا عن آخره بثعابين بحرٍ كبيرةٍ تستدير وتتلوى في اتجاه مجرى النهر بعيدًا، بعد أن اختبؤوا لأسابيع بين شقوق الصخور وجحور الطين؛ حيث نادرًا ما تمكن توم من رؤيتهم ما خلا بين الفينة والأخرى أثناء الليل. أما الآن فقد هبوا جميعًا وهرعوا من أمامه بضراوةٍ بثت الرعب في نفس توم. وبينما كانوا يمضون مسرعين سمعهم توم يقولون لبعضهم بعضًا: «يجب أن نهرب. لا بد أن نهرب. يا لها من عاصفةٍ رعديّة رهيبة! توجّهوا نحو البحر. نحو البحر!»

حينها ظهرت أنثى القندس مع صغارها، وهم يهرعون مجتمعين بنفس سرعة ثعابين البحر ذاتها. وعندما أصبحت على مقربة من توم، نظرت لتوم خلسةً ثم قالت: «إن أردت رؤية العالم، فقد آن الأوان أيها السمندل. هيا يا صغار. دعكم من ثعابين البحر المقرفة هذه. سوف يكون إفطارنا على سمك السلمون صباح الغد. نحو البحر، توجّهوا صوب البحر.»

ثم برق وميض أكثر سطوعًا من سابقه، وعلا نوره الذي اختفى مجددًا خلال جزءٍ من الألف من الثانية، بيد أن توم رآه، وكان أكيدًا ما رآه! ثلاث فتيات صغيراتٍ جميلاتٍ وشقراوات أذرعهنَّ ملتفةً حول أعناق بعضهن بعضًا وهنَّ يعمنَّ مع السيل الجارف ويُنشدنَّ: صوب البحر، فلنتجه صوب البحر.

«أوه.. لحظة، انتظرني...».. صاح توم، ولكنهنَّ اختفين مع أنه كان ما يزال بوسعه سماع أصواتهن عذبةً جليّةً، عبر زمجرة الرعد وهدير المياه وهبوب الرياح، يغنّين بينما تتلاشى وتتبدّد أصواتهن: صوب البحر، هيا إلى البحر.

«صوب البحر؟».. قال توم محدثًا نفسه، «بما أن الجميع في طريقهم إلى البحر. سأذهب أنا أيضًا. وداعًا أيها السلمون المرقط».

غير أن السلمون المرقط كان منهمكًا بأكل الديدان لدرجة أنه لم يلتفت للرد عليه. وبهذا أُغفي توم من لوعة وداعهم.

ومن ثم، مضى توم مع السيل المتدفق، مُسترشدًا بومضات العاصفة المنيرة حيث تمتد صخور مطوّقةً بأشجار البتولا، راحت تبرز تحت جُح الظلام واضحةً كوضوح الشمس، وفي اللحظة التالية يعود الظلام حالكا كالليل يجوب حول دوامة الضفة، حيث هرع العديد من أسماك السلمون المرقط نحو توم معتقدين أنه شيءٌ صالحٌ للأكل. فعادوا أدراجهم بوجوهٍ عابسةٍ. لأن الجنّيات أمرنَّ أسماك السلمون بالعودة لمساكنهم بعد أن قُمنَ بتوبيخهم بلهجة قاسية لأنهم تجرؤوا على التعرّض لطفل مائي، من خلال الممرات الضيقة للضفة والشلالات الهادرة، حيث أُصيب توم بالصمم والعمى للحظات من شدة المياه المتدفقة على امتداد مسافاتٍ موعلة، حيث تتراشق زنابق الماء البيضاء وتحفُّ مع الرياح والمطر الغزير مرورًا بالقرى الساكنة أسفل الجسر المقنطر المعتم بعيدًا بعيدًا صوب البحر. حتى أن توم لم يستطع التوقف ولم يكثرث بذلك، لأنه سيرى العالم الكبير هناك في الأسفل حيث السلمون والأمواج والبحر الواسع.

حالما ارتفع ضياء النهار، وجد توم نفسه في نهرٍ من السلمون، وأي نوع من الأنهار ذاك؟
أكان شبيهاً بنهر آيرلندي يتعرّج عبر المستنقعات ذات المياه المصفرة حيث يقطن البط
البري بين زنابق الماء البيضاء، وتتنقل طيور الكروان ذهاباً وإياباً، وهي تغرد:

«تولي ويب، اهتّم بخِرافِك»؟

فيروي لك دينيز قصصاً غريبة عن البيشتامور(20)، ثعبان المستنقع العملاق الذي يقطن
بِرَك الخثّ المتفحّم فيما بين جذوع أشجار الصنوبر العتيقة. حيث يخرج رأسه ليلاً ليسرق
الماشية أثناء نزولها لشرب الماء من البركة. لكن كن حذراً، ليس عليك تصديق كل ما يقوله
لك دينيز، لأنك إن طرحت عليه سؤالاً:

(20) البيشتامور: كائن خيالي يطلق عليه اسم وحش البحيرات العملاق، وأعتقد أن
كينجسلي هنا يقصد على وجه التقريب، وحش لوخ نس، سليل مجموعة باقية من
البلصورات نوع من الزواحف البحرية الضارية التي تقطن بحيرة لوخنس في إنكلترا.

«برأيك يا دينيز، أهناك أسماك سلمون في هذه المنطقة؟»

«أتقصد أسماك السلمون اللطيفة يا سيدي؟ ثمّة عدد كبير منها، لا بد أن تقفز خارج المياه،
سيكون من حسن حظك رؤيتها!»

فجال ببصره في كافة أرجاء البركة بحثاً عنهم دون أن يُسفر بحثه عن شيء.

«لكن يا دينيز، يستحيل وجود أسماك السلمون هنا! وإن كنت تعتقد بوجودهم، فلو أن
سمكة منهم قد ظهرت مع ارتفاع المدّ الأخير لكانت قد وصلت للمستنقعات العلوية في
هذه الأثناء.»

«أمرٌ مؤكّد يا سيدي، إنك صيادٌ حقيقي وتحيط علماً بعملك مثل كتابٍ مفتوح. إنك تتكلم
كما لو أنك تعرف الطقس منذ ألف عام خلت! ومثلما أخبرتك كيف يمكن أن يُعقل وجود

سمك السلمون هنا؟»

«لكنك ذكرت تَوًّا، أنهم يتقافزون خارج المياه؟»

حينها، سينظر دينيز إليك بعينه الأيرلنديتين بُنِّيَتِي اللون الجميلتين الماكرتين الرقيقتين الناعستين، ويجيبك بابتسامة جميلة: «بالطبع، ألا تريد سيادتك جوابًا مُرضيًا؟»

لهذا، لا يمكنك الوثوق بدينيز، لأنه من عادته أن يقدم إجابات مُرضية. وبدلاً من الغضب من حديثه، عليك أن تتذكر بأنه أيرلندي مسكين ويجهل الكثير، لذا فإن كل ما عليك فعله هو أن تنفجر ضاحكًا، وسينفجر هو أيضًا من الضحك! وسوف يُسخر نفسه لك ويلازمك كظلك، ويُبدي لك حسن نيته قدر الإمكان. فهو شخصٌ مُحبٌ يتحلّى بالود مثلك وإن لم يتمكن، سيحكي لك عوضًا عن ذلك، الأكاذيب! مئة أكذوبة في الساعة، وسوف يتساءل طوال الوقت عن سبب عدم اغتناء الفقراء في أيرلندا كما يحصل في إنكلترا واسكتلندا وبعض الأماكن الأخرى، حيث يعتقد الناس فكرةً مثيرةً للسخرية مفادها: أن الصدق منجاة والأمانة هي الطريقة الأمثل في التعامل.

أم أنّ الأمر كان مثل نهر سلمون ويلزي حيث كان نهرًا لافتًا للنظر بشكل عجيب حتى العام المنصرم على الأقل، لعدم احتوائه على سمك السلمون، لأن الفلاحين المتعلمين قاموا باصطياده كله، ليقطعوا الطريق على الغرباء الأبالسة – يقصدك أنت يا عزيزي وأهلك وأقرباءك، ويرمز إلى حدٍ كبيرٍ إلى الغرباء من الصين – ويحولوا دون مجيئهم المزعج إلى ويلز، بمعدات خاصة ومالٍ جاهز، وبتهذيب وأمانة وأشياء أخرى مثل التي لا يحتاج إليها شعب ويلز البتة.

أم أنه نُهيّر من سمك السلمون الذي ستلاحظه بين مروج هامبشاير المائية قبل أن يَشيب شعرك في ظل قوانين الصيد الجديدة الحكيمة؟ بأن يتعهد العمال المبتدئون من وينشستر، كما تعهدوا قبل ثلاثمئة سنة مضت، بعدم أكل السلمون أكثر من ثلاثة أيام في الأسبوع.

وتصير الأسماك المهاجرة وفيرة أسفل كنيسة سالزبوري كما هي وفيرة أسفل كاتدرائية هولبي هول في كرايستچرچ عندما يحين الوقت المناسب، وقت يرى الناس أنه، من بين كل هبات السماء من الطعام، فإن الكائن الذي ينبغي أن يُحاط بعناية فائقة هو ذلك السلمون المهذب، الذي يُسبغ علينا بكرمه عندما يبحر بوزن خمسة أونصات، ويعود إلينا في العام المقبل بوزن خمسة أرطال دون أن يكلف التربة أو الدولة ربع دولار!

أم كان مثل نُهير اسكتلندي كالذي وصّفه آرثر كلاف في قصيدته «كوخ من قش»:

«ما يربو على سلسلة مترامية

من صخور الجرانيت أسفل المياه

وحتى حياضه

ينحدر سيل كهرباني جارف

أجمل من كل قطرة فيه

تستمد لونها من خضرة الصخور

حيث تثور رمال من زَبَدِه

وتمتزج أمواجه البيضاء المتلاطمة

مع لون الهدوء الشهيّ

ومن منحدر فوق منحدر صخري

ترتطم

على حدود أشجار الروان

وأغصان البتولا المتدلية».

أه، يا صغيري، عندما تغدوا رجالاً يافعاً يبحث في نُهير مثل ذاك، بالكاد ستكترث للأمر على ما أعتقد، سواء تلاطمت أمواجه بكل قوتها مثل قهوةٍ محاطةٍ بقشدةٍ شديدة السخونة، أم لا. في حين أن السمك يدور ويحوم حول بنطالك كما تدور صفحة المجداف حول زورق سباق، أو أن يظهر سريعاً في الطوفان كما لو أنه سهامٌ فضيَّة تومض من أعتى الرغوات التي تكوِّنها الفيضانات المفاجئة. فتنحسر الشلالات لمجرىٍ واحدٍ، وتستحيل الحصيات بلونٍ أبيضٍ مُغَبَّرٍ تُشبهُ الحصى المفروش في الطرق الرئيسية، فيما يحتشد السلمون معاً في تجمُّعٍ عميقٍ واحدٍ في بركةٍ صافيةٍ بلون الكهرمان، ليستغرقوا في النوم لبعض الوقت حتى يعود المطر من جديد، قبالة البحر.

سوف لن تكترث بشيء إن كنت تملك البصر والبصيرة، لأنك ستضع عصاك جانباً قريراً العين بعد أن تتشرب عيناك بسحر تلك البقعة البهيَّة. تُصغي لطائرٍ دُنُقَلَة الماء وهو يحطُّ على صخرةٍ ويزقزق. ثم ترى، أنثى ظبيٍ بلونٍ أصفر وهي تنزل إلى الأسفل لتنهل من المياه وتتنظر إليك بعينيها الواسعتين الرقيقتين المفعمتين بالثقة، لدرجة أن تجرؤ على سؤالك: «هل يطاوعك قلبك على قتلنا؟»

ومن بعدها – وإن كنت تملك حسَّ الإدراك – سوف تلتفت لتخوض حديثاً مع رفيقٍ ضخمٍ كبير السنِّ، يجلس بجانبك على صخرةٍ منعمًا بدفء الشمس والمكان. حيث لن يخبرك بأيِّ أكاذيبٍ يا صديقي الصغير، لأنه رجلٌ اسكتلنديٌّ يتَّقِي الله، وليس بكاهن. وبينما تتجاذب معه أطراف الحديث، ستُفاجأ بعلمه وعقله، بخفةٍ دمه وكياسته. وسوف تُدرك ما لم تُدركه من قبل، بأن الإنسان يمكنه أن يتعلَّم من كتابه المقدَّس، أن يصير أكثر ودًا ونبالةً مما لو كان قد ترعرع بين حفلات الاستقبال الرسمية في لندن كُلِّها.

لا.. لم يكن لثهير السلمون في هارثوثر أيّ من هذه التخيلات. إنه أشبه بهذا الجدول كما تراه في قرية بيويك العتيقة العزيزة(21). تلك القرية التي وُجِدَتْ وازدهرت فوق ذاك الثهير بعرض مئة ياردة كاملة، تنسابُ من بركةٍ واسعةٍ إلى مسطّحٍ رحيب، ومنه إلى بركةٍ شاسعة. وتنداح فوق حقولٍ رحبيةٍ مكسوةٍ بالحصى، تُخفيها أشجار البلوط والدردار عبر المنحدرات المنخفضة من الحجر الرمليّ، مرورًا بالمروج الخضراء والرحاب الجميلة، ومبنى حجريّ كبير وأراضٍ سبخةٍ سمراء تعلو هنا وهناك، والمداخن التي تنفث دخان المناجم في وجه السماء. لا بد أن تُبصر قرية بيويك لتفهم ماهيّتها. فالساكن هناك يصفها باهتمام وحبّ قرويّ حقيقيّ من أهالي الشمال. ولئن كُنْتَ غير مبالٍ بنهر السلمون، فيجدر بك - مثلك مثل كل الأولد الصالحين - أن تتعرّف على قرية بيويك. وبشكلٍ خاص. كما اعتاد السّير جون العجوز أن يقول - وقد عبّر عن الأمر بمنتهى الحكمة - كعادته أيضًا:

(21) قرية في أبرشية بيويك المدنية في مقاطعة نورثمبرلاند، إنكلترا.

«إن رغِبَ أحدهم بوصفٍ شابٍ نبيلٍ أصيلٍ في فرنسا فإنني أسمع الناس تقول عنه:

إنّ هذا الشاب على دراية ومعرفة بأعمال فرانسوا رابيليه(22) ولكن إن أردتُ أن أصفّ أحدهم في إنكلترا سأقول: إنّه يعرف قرية بيويك. وذلك كما أظن، أسمى مديحٍ يمكن أن يظفر به المرء».

(22) كاتب فرنسي وطبيب وراهب وعالم باليونانية وأحد إنسانيي النهضة. يعتبر رابليه أحد أعظم الكتاب على مستوى العالم، وكذلك أحد مؤسسي أسلوب الكتابة الأوربي الحديث. تعد رواية غارغانتوا وبانتاغرويل أنجح أعماله على الإطلاق.

لكنّ توم، لم يخطر بباله شيءٌ عمّا كان عليه النهر. لأنّ جُلَّ ما أرادَه هو الذهاب إلى البحر الشاسع. وبعد مرور الوقت، وصل توم لمكان حيث بدأ النهر يتفرّع لمياه ضحلة واسعة. واسعة جدًا بحيث أن توم الصغير الذي أخذ يطل برأسه من سطح المياه، تعدّرت عليه الرؤية.

وهناك توقف. فقد خامرته شعورٌ بالخوف بعض الشيء وراح يقول لنفسه: «لا بد أن هذا هو البحر. يا له من مكان فوّاح! إن مضيت فيه، سأضلّ طريقي وقد تقوم بعض الكائنات الغريبة بلدغي. سأتوقف هنا وأبحث عن أنتى القندس أو ثعابين البحر أو أيًا كان، ليخبرني إلى أين عليّ الذهاب».

لذلك، عاد أدراجه إلى الورااء مسافةً طويلةً، ثم تسلّل إلى داخل شقّ في صخرة حيث يبدأ النهر يصبّ في مياه ضحلة واسعة. وظل هناك يراقب ظهور أحدٍ ما ليخبره عن وجهته. ولكن أنتى القندس وثعابين البحر أصبحوا على بُعد أميالٍ وأميالٍ عبر النهر. فانتظر هناك حتى استغرق في النوم أيضًا، لأنه كان في غاية الإرهاق من رحلة الليل. وحين استفاق، رأى أن النهر يصفو إلى لونٍ كهربائيٍّ جميل، مع أن منسوبه كان لا يزال عاليًا جدًا. وبعد لحظات، رأى مشهدًا جعله يثبّ من مكانه؛ لأنه أدرك خلال لحظات أن ما يراه هو من بين الأمور التي جاء للبحث عنها.

يا لها من سمكةٍ! يبلغ حجمها عشرة أضعاف حجم أكبر سمكةٍ سلمونٍ مرقط، وضعف حجم توم بمئات المرات. وهي تتحرك بانسيابية أعلى النهر بمحاذاته. بنفس السهولة التي يغوص بها توم للقاع.

يا لها من سمكةٍ متألئة بلونٍ فضيّ من الرأس وحتى الذيل ببقعٍ قرمزية اللون تنتشر هناك وهناك على جسدها. أنفها كبير معقوف، وشفثاها ضخمتان مبرومتان. أما العينان، فواسعتان لامعتان، يتطلّع حوله بكل فخر مثل ملك وهو يتبيّن المياه يمينًا ويسارًا كما لو أنه يملك مياه البحر ذرّة ذرّة. ومما لا ريب فيه، أن هذا هو سمك السلمون. ملك الأسماك كلّها. شعر توم برعبٍ شديدٍ لدرجة أنه تلهّف للتسلل والعودة إلى الحفرة، مع أنه لم يكن ملزمًا بالتصرف على هذا النحو. فكل أسماك السلمون مخلوقات مهذبةٌ مستقيمة السلوك، ومثلهم مثل أي مخلوقٍ مهذبٍ سويٍّ، فإنهم يبدون بسِمات النبلاء الشامخين بأنوفهم، مع إنهم لا يؤذون أو يتشاجرون مع كل ما هبّ ودبّ. وإنما يمضون بأمور حياتهم، ويدعون أقرانهم الوقحين وشأنهم.

حينها، نظر السلمون لوجه توم مباشرةً، ثم مضى إلى سبيله دون أن يكثر، وبيضع حركاتٍ خفيفةٍ صدرت من ذيله، جعل النهر يهتاج مرةً أخرى. ثم ظهرت في غضون دقائق سمكةٌ أخرى، ثم أربعٌ أو خمسٌ أخرى وهلمّ جرا، ومرّ الجميع بمحاذاة توم وقد انطلقوا على عجلةٍ من أمرهم ليغوصوا عميقًا في السيل بضربات قوية من ذيولهم الفضية. وراحوا بين الفينة والأخرى، يقفزون خارج المياه عاليًا ويعبرون من فوق الصخور حتى يشعّ لمعان أجسادهم البهية للحظات تحت أشعة الشمس الساطعة. في حين غمّر توم الشعور بالسعادة لأنه أتيحت له فرصة رؤيتهم طوال اليوم.

وفي النهاية ظهر سلمون أكبر من بقية أقرانه. غير أنه ظهر بشكل تدريجي. ثم توقف، ونظر إلى الوراء. وكان القلق والانهماك ظاهرين عليه. حينها، أدرك توم بأنه كان يقدم يد العون لسلمون آخر - سلمون جميل للغاية - غير أنه ما من بقعٍ قرمزية اللون على جسده، ولا حتى واحدة. لكنه كان مغطى باللون الفضي الخالص من أنفه إلى ذيله.

«تبدينَ مرهقةً للغاية يا عزيزتي».. قال السلمون الكبير لرفيقتِهِ. «لا ينبغي أن تُجهدِي نفسك منذ البداية، تعالي واستريحي خلف هذه الصخرة»، ودفعها بلطفٍ بأنفه إلى الصخرة حيث جلس توم.

يجب أن تعلم أن هذه كانت زوجة السلمون. فسمك السلمون، مثله مثل أي كائنٍ آخر ذو خُلُقٍ رفيع، عادةً ما يختار زوجته ويحبُّها ويخلصُ لها، يهتمُّ بها ويعمل ويحارب من أجلها، كما يفعل أيُّ مخلوقٍ نبيلٍ المحتد. فهُم ليسوا مثل أسماك الشبوط والروش والكرابي المبتذلين، ممن تنعدم عندهم العاطفة ولا يعتنون بزوجاتهم.

وفي تلك اللحظة، وقع بصر السلمون الكبير على توم، فحدَجَه بنظرةٍ حادةٍ للحظات، كما لو أنه مُقبِلٌ على أكلِهِ.

«ما الذي تفعله هنا؟» صاح السلمون بنبرةٍ عنيفةٍ.

«أوه، لا تؤذيني. كل ما في الأمر هو أنني أردت أن أنظر إليكما. إنكما في غاية اللطف والجمال».

«آها؟».. أجاب السلمون بتفاخرٍ واضحٍ، لكن على نحوٍ مهذبٍ جدًا. «أستميحك عذرًا، فهمتُ يا صغيري العزيز. لقد قابلتُ بعض المخلوقات التي تشبهك من قبل، ووجدتهم مهذبين وشديدي اللطف. والواقع أن أحدهم أسدى لي معروفًا كبيرًا مؤخرًا، وأملُ أن أتمكن من رد الجميل. أرجو ألا تكون عائقًا في طريقك هنا. حالما تنال هذه السيدة قسطًا من الراحة، سنكمل رحلتنا».

يا له من سلمون كَيِّسٍ ورائع!

«إذن، هل سبق أن التقيت بكائناتٍ مثلي من قبل؟» سأل توم.

«عدة مرات يا عزيزي، ولأصدقك القول، حتى ليلة أمس جاءني أحدهم من جهةٍ مصبِّ النهر لكي يحذرنِي وزوجتي من الشُّباك والمصائد الجديدة المنصوبة على النهر، ولم أتمكن من معرفة كيف وصلت منذ الشتاء الماضي! ثم أرشدنا إلى المنطقة المحيطة بها بأسلوبٍ ساحرٍ للغاية».

«إذن، ثمة أطفال في البحر؟».. هتَفَ توم وصَفَّقَ بيديه الصغيرتين، «لا بُدَّ أن ألتقي بأحدهم لألعب معه هناك؟ يا له من أمرٍ مبهجٍ!»

«ألم يكن هناك أطفال في ذاك الجدول؟» سألت زوجة السلمون.

«كلا! لقد نشأتُ وحيدًا. أخالني رأيتُ ثلاثةً منهم ليلة أمس، لكنهم اختفوا بلمح البصر متَّجهين صوب البحر. فتوجهتُ أنا أيضًا صوب البحر. ما من أحدٍ عندي لألعب معه هناك سوى البراغيث واليعاسيب وأسماك السلمون المرقط».

«أوووه يا للقرف! يا لها من صُحبةٍ وضيعةٍ!».. صاحت زوجة السلمون باشمئزازٍ ساferٍ.

«عزيزتي، إن عاش وسط صُحبةٍ وضيعةٍ فهذا بالتأكيد لا يعني أنه مثلهم أو أنه اكتسب شيئًا من وضاعة خُلُقهم».. أجاب السلمون.

«بالتأكيد! يا له من صغيرٍ بائسٍ. لِمَن المُحزن له أن يعيش بين مثل تلك المخلوقاتِ المقرفة مثل براغيث بستةٍ أرجل، واليعاسيب أيضًا! عجبًا! حتى إنها لا تصلح للأكل فقد جربتها مرةً وكانت صلبةً وفارغةً برُمّتها! أمّا بالنسبةٍ لسماك السلمون المرقط، فالجميع يعرف حقيقته!».. قالت زوجة السلمون التي لَوث إحدى زوايا شفيتها للأعلى مبديةً احتقارًا فظيعةً، حتى إن زوجها فَعَلَ الأمر ذاته أيضًا وقد بدا في قمة الفخر والغطرسة كالقائد الإغريقي ألكيببيادس.

«لِمَ تبغضان أسماك السلمون المرقط لهذه الدرجة؟».. تساءل توم.

«إننا لا نأتي على ذكركم ولو بصورةٍ عابرةٍ يا عزيزي ما دمنا لسنا مضطرين إلى ذكركم. ويؤسفني أن أقول إن صلة القربى التي تربطنا بهم، لا تُشرّفنا. منذ سنوات عديدة مضت كانوا مثلنا بالضبط، غير أنهم صاروا كسالى جُبناء وجشعين لدرجة أنهم بدلًا من التوجّه إلى البحر كل عام لاستكشاف العالم وليصبحوا أقوياء موفوري الجسد، قرروا البقاء في الجداول الصغيرة للبحث عن الحشرات وأن يكتفوا بأكل الديدان واليرقات. وها هم يُعاقَبون عقابًا لائقًا كما ينبغي بسبب ذلك، فقد صاروا مخلوقاتٍ صغيرةً سمراء بشعةً مرّقة، كما أنّ ميولهم تجاه الطعام في غاية الحقايرة؛ لدرجة أنهم لا يمانعون التهام صغارنا».

«وفوق ذلك، فإنهم يعودون ليدّعوا معرفتنا من جديد».. أجابت زوجة السلمون، ثم أضافت: «في الواقع، بلغني أن أحدهم قد تقدّم لخطبة أنسةٍ من أنسات السلمون المحترمات. يا له من مخلوقٍ وضيعٍ وقِحٍ!»

فجاء ردّ زوجها النبيل: «إنني أمل، بأنّ هناك عددًا كبيرًا من أنساتٍ سلالتنا ممّن لا يُحقرن من شأنهنّ بالإصغاء لمثل هذا المخلوق ولو للحظات. وإن شهدت شيئًا كهذا يحدث،

فسأعتبر قتلها كليهما، واجبًا عليّ. وعلى الفور!.. قالها السلمون وكأنه فردٌ أرستقراطي عريق النسب قادمٌ من إسبانيا.

ليس هذا وحسب، لأنه بدا صادقًا في رغبته بتنفيذ ما قاله أيضًا. لأنه، ما من فردٍ يُكرهُ الضغينة لعدوه اللدود مثلما يفعل أولئك الذين ينتمون لنفس الأصل والنسب. وسمك السلمون، ينظر لسمك السلمون المرقط بنفس الطريقة التي ينظر بها النبلاء المتبجحين، لعامة الناس. كمخلوقٍ يُشبهه أكثر من اللازم، بحيث يستحيل احتمالاه.

الفصل الرابع

«مغريّة هي المعرفة المُتأثّية من أسرار الطبيعة

غير أننا كلّما حشرنا أفكارنا بمقدّراتها

يُصابُ جمالها بالعطب،

كلّما ارتكبنا مجزرة التفسير والتحليل

نشوّهُ صورتها الجميلة

كفى علماً.. كفى فنّاً

اطووا هذه الصفحات الفارغة وهلمّوا

عودوا بقلوبٍ مبصرةٍ رحيبةٍ».

وليام وردزورث.

مضى الزوجان في طريقهما بعد أن حدّرها توم من أنثى القندس العجوز الشريرة. وغاص توم على نحو بطيء لكن باحتراس، ليبحر بمحاذاة الساحل بعد أن أبحر لأيامٍ طوال على مقربةٍ منه. لأن البحر كان يبعد أميالاً عديدةً. ولعلهُ، لم يكن ليهتدي إلى طريقه لو لم ترشده الجنيات، دون أن يُبصر جمال وجوههنّ ولا أن يشعر بأياديهن الرحيمة.

وما إن مضى، حتى انخرط في مغامرةٍ غريبةٍ للغاية من جديد. كانت ليلة أيلولية هادئة، حيث تألّق القمر ملقياً بضيائه خلال صفحة المياه. فطار النوم من عيني توم. مع أنه أغلق عينيه بإحكام قدر الإمكان. وعندما لم يُجد الأمر نفعاً، صعد إلى السطح، وجلس فوق بقعة

معينة من الصخور. ثم رفع بصره للأعلى صوب القمر المضيء المكتمل متسائلاً عمّن يكون.
فخُيّل إليه أن القمر ينظر إليه كذلك.

وراح يتأمل ضياء القمر المتلألئ فوق وجه المياه المتموجة، وقمم أشجار التنوب الحالكة،
والمروج المكسوة باللون الفضي. وأخذ يصيخ السمع لنعيق البومة وثغاء طائر الشنقب،
صياح الثعالب وضحك القنادس. ويتمتع بالعطر الذي يفوح من أشجار البتولا ورحيق زهور
الخلنج المنبعثة على امتداد أراضي الطهيوغ السبخة في الأعلى بعيداً. فغمّره شعورٌ
بسعادةٍ عارمةٍ. رغم أنه لم يعرف السبب بالتحديد. وبالطبع، لو أنك جلستَ هناك في ليلة
من ليالي أيلول دون أدنى قطعة من الثياب تغطي ظهركَ المبتلّ، لارتعدتَ فرائصَكَ من
شدة البرد! لكنّ توم كان طفلاً مائياً، وبالتالي فإن شعوره بالبرد لا يتجاوز شعور سمكة.

وعلى نحوٍ مبالغٍ. وقع بصرُهُ على منظرٍ جميلٍ. حيث لاحظ ضوء أحمر يشعّ على امتداد
الضفة، ويلقي في عمق المياه ظلالاً محددةً ممتدة من الوهج. لهذا، تلهّف توم الصغير
المعروف بفضوله وشغفه، لتلبية نداء التوجه صوب الضوء الأحمر واستكشاف ماهيته.
فسبح متوجّهاً نحو الساحل. حتى واجه الضوء إبان توقُّفه على مسطحٍ ضحلٍ يجري عند
حافة صخرةٍ منخفضة.

وهناك أسفل الضوء، رأى خمسَ أو ستَ أسماكٍ سلمونٍ كبيرة، تتطلع إلى وهج الضوء
بعيونها المحملقة الواسعة وهي تهزّ ذيولها، وكانت مسرورةً بالوهج المنبعث من الضوء أيّما
سرورا!

فاقترب توم من السطح، ليُلقي نظرةً عن كثب، إلى هذا الضوء المدهش حتى أحدثت ضجةً
لفتت الانتباه. فسمع صوتاً يقول: «ثمة سمكٌ يعلو..».

لم يكن يعرف معنى الكلمات، لكنه بدا وكأنه يُدرك الأصوات ويعرف الصوت الذي ينطق
بهذه الكلمات. حينها رأى على ضفة النهر، ثلاثة مخلوقاتٍ ضخمة تسير على قدمين، أحدهم

يحمل الضوء - متوهجًا وحادًا - وآخر يحمل عمودًا طويلًا. حينها، أدرك أنّهم بشرٌ، فتملّكهُ خوفٌ شديدٌ وتسَلَّلَ إلى حفرةٍ في صخرةٍ لكي يتوارى ويتمكن من خلالها رؤية ما يجري.

مال جسد الرجل حامل الشعلة فوق سطح الماء، وبدأ يفتّش بشكلٍ جدّيٍّ، ثم قال: «سنصيد كميةً كبيرةً يا رفيقي. إنها تزنُ أكثر من خمسة عشر رطلًا. كُن متأهبًا وأبقِ يديك ثابتتين.»

أحس توم أن هناك خطرًا محددًا على وشك الحدوث، فتطلع لتحذير أسماك السلمون الحمقى الذين لم يبرحوا مكانهم محدقين في وهج الشعلة كما لو كانوا مسحورين. وقبل أن يتمكن توم من اتخاذ قراره، ألقى عصا عبر المياه مما أثار صوتَ رذاذٍ رهيبًا تلاه أصوات اقتتال. فأدرك توم أن السلمون المسكين تم طعنهُ برمح، ورفعهُ من المياه.

ومن ثم، من الخلف، التحق بهؤلاء الرجال الثلاثة، ثلاثة رجالٍ آخرين، رافق ظهورهم صيحات، وضربات، وكلمات يتذكر توم أنه سمعها من قبل، اقشعرَّ بدنهُ وشعر بالإعياء لسماعها في تلك اللحظة. فقد أدرك بطريقة ما، أنها كلماتٌ وحشيةٌ، قبيحةٌ، مسيئةٌ تقشعُرُ لها الأبدان. وبدأت الذكريات تعود إليه شيئًا فشيئًا. لقد كانوا بشرًا. وكانوا يتشاجرون، وكان الشجار محتدمًا مستميتًا مثلما سبق لتوم رؤيته مراتٍ عديدة. فصمَّ أذنيه الصغيرتين، وبدأ يتوق للفرار بعيدًا عن هذا المشهد. غير أنه في قرارة نفسه، أبدى سرورًا بالغًا لكونه طفلًا مائيًا، ولم يعد له علاقةٌ بحقارة البشر وفضاعاتهم والثياب القذرة على أجسادهم، وبالكلمات النابية التي تتفوه بها شفاههم. لكنه لم يجرؤ على الخروج من مخبئه. في حين راحت الصخرة تهتز فوق رأسه من سحق أقدام الصيادين والحُرَّاس، واقتتالهم.. وعلى حين غرة، وبعد أصوات الطرطشة المروعة في المياه ووهج الشعلة المخيف وأصوات التهديد والوعيد، خيم الهدوء على المشهد برُمَّته. في المياه وعلى مقربةٍ من توم، سقط أحد الرجال، ذاك الذي حمل المشعل بيده، وغرق في النهر سريع الجريان حتى حملهُ التيار، موجةً تلو الأخرى.

سمع توم الرجال فوقه وهم يركضون - على ما يبدو بحثًا عنه - لكنه غار للأسفل، وهناك لزِمَ مكانه، ولم يتمكنوا من العثور عليه.

وانتظر هناك طويلاً حتى عَمَّ صمْتٌ مُطْبِقٌ، ثم راح يسترق النظر فرأى الرجل ملقياً في مكانه. وأخيراً، استجمع شجاعته وسبح نحوه وهو يقول لنفسه: «لربما جعله الماء يغط في نوم عميق، كما حدث معي!»

وهكذا، كلما اقترب أكثر، كلما انتابه الفضول أكثر فأكثر حيال الرجل. ولم يستطع أن يعرف السبب. عليه المضي لرؤيته. وسيقترب منه بهدوء تام بالطبع. لذا واصل طريقه باتجاه الرجل مقترباً. ولأن الرجل لم يُبدِ أي حركة، مضى توم نحوه حتى صار قريباً منه ونظر في وجهه.

كان القمر يلقي بضياهه المشرق على المكان برُمَّته بحيث مكنَّ توم من رؤية ملامح وجه الرجل بكل وضوح. وكان كلما يمعن النظر، كلما تعود إليه الذاكرة شيئاً فشيئاً، إلى أن عرفه. لقد كان سيده السابق، غرايمز.

لاذ توم بالفرار وأخذ يسبح بعيداً بأسرع ما يمكن.

«أوووه يا إلهي.. سيتحول إلى طفلٍ مائيٍّ سيئٍ ومزعجٍ للغاية! ولعلهُ يجدني ويبرحني ضرباً مرةً أخرى.»

وعاد أدراجه إلى النهر مرةً أخرى لمسافة قليلة. استقر هناك بقية الليل خلف جذور النغت. وما إن حلَّ الصباح حتى حرَّكته رغبةٌ شديدةٌ بالتوجُّه صوب البركة الكبيرة ثانيةً لرؤية ما إذا كان السيد غرايمز قد تحوَّل إلى طفلٍ مائيٍّ أم ليس بعد. وبحذرٍ فائقٍ، مضى توم صوب مقصده وهو يختلس النظر حول الصخور كلها، ويختبئ خلف الجذور. وحينما وصل، رأى أن السيد غرايمز ما يزال في موضعه بلا حراك وأنه لم يتحول إلى طفلٍ مائيٍّ.

لم يهدأ لتوم بال حتى يعرف ما الذي سيحلُّ بالسيد غرايمز. لذلك، وعندما عاد بعد الظهر مرةً أخرى لنفس المكان، لم يجد السيد غرايمز هذه المرة. كان قد اختفى. فجزم توم أن السيد غرايمز تحوَّل إلى طفلٍ مائيٍّ.

يحتاج صديقنا الصغير أن يهون على نفسه الأمر لأن السيد غرايمز لم يتحول إلى طفل مائي أو أي شيء من هذا القبيل على الإطلاق. بيد أنه لم يهون على نفسه، وظلّ لوقتٍ طويل يتوجّس خيفةً من لقاء غرايمز على حين غرةٍ في إحدى البرك العميقة. وهو لم يعرف أن الجنيات قد حملن الرجل بعيدًا، ووضعنه حيث يضعن كل من يسقط في المياه. حيث يستحق أن يكون بالضبط.

لكن، أتعلم؟، ما حدث للسيد غرايمز، ترك أثرًا بليغًا في نفس توم للحد الذي لم يعد معه لصيد السلمون. فمن المؤكد أنه عندما يصبح الرجل صيادًا غير شرعيّ وسارقًا، فإن الطريقة الوحيدة لردعه وإصلاح حاله هي وضعه تحت المياه لمدة أربع وعشرين ساعة مثل غرايمز. لذلك عندما تكبر لتغدو رجلًا فتيةً، أرجو أن تنحو منحى الأمانة والشرف كما ينبغي على الرجال الصالحين. وألا تلمس أبدًا سمكةً أو رأس طريدة تعود لرجل آخر دون إذن صريحٍ منه. حينها سيشهد لك الناس بكونك رجلًا شريفًا، ويعاملونك على هذا الأساس. ولعلهم يتحلون بروح رياضيةٍ معك، بدلًا من ضربك وإسقاطك في النهر، أو تسميتك بصياد جائر معتدٍ بنفسه.

حينها، قرر توم العودة لأسفل النهر، لأن الخوف قد تملكه من البقاء بالقرب من موقع غرايمز. وحالما شق طريق العودة، بدا الوادي برُمته موجسًا وفي حالٍ مثيرةٍ للشفقة. حيث تساقطت الوريقات المحمّرة والمصفرة في النهر، في حين نفق البعوض والخنافس بأكملها واختفوا عن الأنظار، وساد ضباب الخريف البارد ممتدًا فوق التلال حتى كاد أن يلتصق على صفحة النهر بحيث تعذر على توم الرؤية وشق طريقه. لكنه عوضًا عن ذلك، تلمس طريقه متتبعًا مجرى النهر. يومًا بعد يوم، مرورًا بالجسور الهائلة والمراكب والبارات والبلدة الكبيرة بمراسيها وطواحينها، والمداخن بأعمدة دخانها الممتد. مارًا بالسفن الراسية في النهر حيث راح يصطدم بحبالها الغليظة بين الحين والآخر ويتساءل عن ماهيتها. ثم يسترق النظر ليرى البحارة وهم يتسكعون على متن السفن ويدخنون غلايينهم، فيخض رأسه مرةً أخرى، فقد كان مرعوبًا من فكرة أن يقبض عليه بنو البشر، وأن يعود مجددًا لتنظيف المداخن. لم يكن يدري أن الجنيات بجانبه على الدوام. فقد كنّ يغضن أبصار

البحارة لئلا يرونه، ويُجَبِّئَهُ طريق قنوات الطواحين وفتحات المجارى، وكل ما يُشَكِّل خطراً عليه. لقد كانت رحلةً موحِشَةً بالنسبة لصغيرٍ مسكينٍ مثله. لدرجة أن حَدَثَ به الرغبة لأكثر من مرةٍ، بالعودة إلى جدول فينديل، واللعب مع أسماك السلمون المرقط تحت شمس الصيف المشرقة. غير أن ذلك، بات مستحيلاً عليه. فما يُتاح للمرء مرةً واحدةً، لا يمكن أن يُتاح له مرةً أخرى. إذ يتسنى لكل المخلوقات أن يكونوا صغاراً مرةً واحدةً فقط في حياتهم، وحتى أطفال المياه. بالإضافة الى ذلك، فإن الأناس الذين يعتزمون المُضَيِّ لاستكشاف العالم كما اعتزَمَ توم، لا بُدَّ لهم أن يتوقَّعوا بأن الرحلة ستكون مُرهقةً. وإن لم تُوهنْ عزيمتهم ويتوقَّفوا في منتصف الطريق فإن ذلك من حُسنِ حُظِّهم. وعوداً عن التوقُّف، يمضون بشجاعةٍ إلى نهاية الطريق كما فعل توم. عندئذٍ، لن يظلُّوا صبياناً أو رجالاً ولا أسماكاً ناضجةً ولا أسماك الرنجة الحمراء اللذيذة، بعد أن يكونوا قد تعلَّموا الكثير، أكثر مما ينبغي لهم تعلُّمه، ولكن ليس بقدرٍ كافٍ. كمن يزرع الشوفان البرِّي الخاصَّ به من غير أن يجني ثمارَ حصاره.

غير أن توم لطالما كان شجاعاً عنيداً مثل كلب بولدغ إنكليزي صغير. لم يعرف أبداً معنى الإرهاق. ومضى صامداً، حتى رأى من مسافةٍ طويلةٍ خلال الضباب، عوامة بحرية حمراء اللون. واكتشَفَ وسط دهشته، أن مجرى النهر يدور حول المكان دوراناً كاملاً، ثم يجري بعيداً عن الساحل.

كان ذلك بسبب المدّ بالطبع، غير أن توم لم يكن يعرف شيئاً عن المدّ. كلُّ ما يعرفه أن المياه العذبة حوله استحالت لمياهٍ مالحةٍ في غضون دقائق. ثم حدث تغييرٌ كبيرٌ في أنحاء جسده، حيث انتابه شعورٌ بأنه أصبح على قدرٍ من القوة والخفّة والبرودة كما لو أن الشمبانيا قد تدفَّقت في عروقه. فقفز ثلاث مرات خارج المياه على ارتفاع ياردة، وعاد للغوص رأساً على عقب، من غير أن يعرف سبب قيامه بذلك تماماً كما تفعل أسماك السلمون حالما تدخل المياه المالحة الوافرة لأول مرة، والتي، كما أخبرنا عنها معظم الحكماء بأنها مصدرٌ لكل الكائنات الحيّة.

حينها لم يعد مبالياً بالمد الذي سيواجهه. فالعوامة الحمراء كانت على مرمى بصره تتمايل في عرض البحر وقد أزمع أمره على التوجه إليها، وبالفعل، مضى. وخلال طريقه، مرَّ بأسرابٍ هائلة من أسماك القاروس والبوري، يندفعون بالآلاف وينقضون على القريدس، غير أنه لم يُعزَّ انتباهاً إليهم ولا حتى هم. وفجأة، مرَّ بفقمةٍ كبيرة سوداء لامعة كانت تُلاحق أسماك البوري.

فأطَلَّت الفقمة برأسها وكتفيتها خارج الماء لتلقي نظرةً على توم وقد بدت تماماً مثل زنجي مُسنِّ بدينٍ مدهونٍ، برأسٍ رماديٍّ. وبدلاً من أن يشعر توم بالخوف منها قال لها: «كيف حالُّك يا سيدتي الفقمة؛ يا له من مكانٍ ساحرٍ هذا البحر».

فنظرت إليه الفقمة بعينين ناعستين لكن بنظرةٍ ثاقبةٍ. وعضواً عن محاولة الانقضاض على توم، قالت له: «حركة المدِّ ملائمة بالنسبة لك يا صغيري. أتبحث عن إخوتك وأخواتك؟ لقد مررتُ بهم جميعاً وكانوا يلعبون في الخارج».

فأجاب توم:

«إذن، سيكون لدي رفاق في نهاية المطاف».

ومضى صوب العوامة، تسلقها وجلس عليها ليسترد أنفاسه، وبدأ ينظر من حوله بحثاً عن أطفال المياه. غير أنه ما من أحدٍ هناك ليراه.

هبَّ نسيم البحر منعشاً وبددَ الضباب حتى انقشَعَ بالكامل. وحول العوامة، تهادت موجات صغيرة، ومعها، تمايلت العوامة في عرض البحر.

فيما راحت أفياء السُّحْب تتسابق فوق الخليج الأزرق البهّي، ومع ذلك لم تُجارِ بعضها بعضاً. وهوت الأمواج منبسطةً على الرمال البيضاء الممتدة، ثم ثارت وتوالت على الصخور لثلقي نظرةً على أشكال الحقول الخضراء في الداخل ومن بعدها تكسرت فوق الصخور، ذرةً ذرةً. ولم تُبالِ بالأمر البتّة، بل استجمعت ذراتها وهاجت مرةً أخرى. حامت طيور

الخرشنة فوق توم كما لو أنها يعاسيب ضخمة بيضاء اللون برؤوس سوداء. بينما راحت النوارس تلهو مثل فتياتٍ صغيراتٍ يلعبن. أما طيور صائد المحار ذات الساقين والمنقار الأحمر فكانت تحلّق غدواً ورواحاً من الساحل إلى الساحل وهي تُغرّد بصوتٍ منعمٍ جياشٍ. في حين لبت توم ينظر وينظر، ويُرهِف السمع وكانت سعادته ستكتمل فقط لو كان باستطاعته رؤية صغار المياه. ولما انحسر المدّ، غادر العوامة وراح يسبح ويسبح في الجوار يحدوه أملٌ في العثور عليهم، لكن من دون جدوى.

أحياناً، كان يتخيل صوت ضحكاتهم يتناهى إليه. غير أن ذلك لم يكن سوى صوت تموجات المياه. ثم يُخيّل إليه في أحيانٍ أخرى أنه يراهم في القاع لكنها كانت مجرد أصدافٍ بلونٍ أبيض وزهري. وعلى حين غرة، خامره اليقين بأنّه عثر على أحدهم، لأنه رأى عينين برّاقتين تختلس النظر إليه من بين الرمال. فغاصّ، وأخذ يحفر بين الرمال ويصيح: «لا تختبئ! أرغب باللعب معك كثيراً».

فنظّت من بين الرمال سمكة طربوت عملاقة، ذات عينين قبيحتين وفمٍ منحرفٍ. وراحت تتخبّط وتضرب بذيلها على امتداد القاع وتضرب توم الذي ألقى جالساً في قاع البحر، يذرف دموعاً مريرةً لخيبة مسعاه. لقد قطع كل هذه المسافة، وواجه الكثير من المخاطر، دون أن يعثر على طفل واحد من أطفال المياه! يا لمرارة موقفه!

حسناً، يبدو الأمر صعباً بالفعل، لكنّ الناس يا صغيري، وحتى الصغار منهم، لا يمكنهم الحصول على ما يريدونه، من غير الصبر على تحقيقه، والسعي من أجل تحقيقه كذلك، كما ستدرك يوماً ما. فلزم توم مكانه على العوامة لأيامٍ وأسابيع طوال، يتربّص البحر متسائلاً عن موعد ظهور صغار المياه. ومع ذلك لم يحصل شيئاً.

ثم بدأ يسأل كل المخلوقات الغريبة التي تجيء من البحر عمّا إذا كانوا قد شاهدوا أيّاً من صغار المياه. وكان جواب البعض «نعم»، بينما لم يُبَسّ آخرين ببنتِ شفةٍ على الإطلاق.

راح يسأل أسماك القاروس والبولوك غير إنهم كانوا منهمكين بالتهام القريديس لدرجة أنهم لم يلقوا بالأ بالرد عليه ولو بكلمة واحدة.

عندئذٍ وصل أسطول كامل من حلزونات البحر الأرجواني هائمًا في البحر، وعائمًا على إسفنجٍ مليءٍ بالرغوة. فسألهم توم: «من أين أتيتم أيتها المخلوقات الجميلة؟ وهل رأيتم صغارا مائيين في طريقكم؟»

فأجابت إحدى حلزونات البحر: «إننا نجهل من أين أتينا وإلى أين وجهتنا. من منّا يُمكنه أن يعرف؟ لقد قضينا حياتنا نهيئُ عائمين في عرض المحيط، أشعة الشمس الدافئة تَلْفُحُ رؤوسنا، ومن تحتنا مياه الخليج الدافئ؛ وهذا يكفيننا. بلى، لعلنا رأينا صغار المياه وصادفنا العجب العجاب من المخلوقات أثناء إبحارنا!» وأبحرت بعيدًا تلك المخلوقات السعيدة المغفلة متجهةً كلها صوب الساحل على الرمال.

ثم ظهرت سمكة مولا مولا هائلة، بحجم خنزير سمين مقطوع لنصفين، وبدت مولا مولا كما لو أنها مقطوعة إلى نصفين كذلك، وأنها مكبوسة في مكبسٍ لكَيِّ الملابس حتى أصبحت مستويةً. لكنها، ومع كل هذا الجسد الثقيل والزعانف الكبيرة، لم تكن تملك سوى فمٍ صغيرٍ كفم أرنبٍ، ولا يعدو كونه أكبر حجمًا من فم توم.

ولما سألتها توم أجابت بصوتٍ واهنٍ حادّ:

«لست متأكدًا من أنني أعرف. لقد ضللتُ طريقي. فقد قصدتُ الذهاب إلى تشيسايبك وأخشى أنني نسيْتُ كيف ذلك بطريقةٍ ما. يا إلهي، حصل كل ذلك لأني تتبعتُ تلك المياه الدافئة اللطيفة. متيقنٌ من أنني ضللتُ طريقي.»

وعندما استعمله توم من جديد، لم يسعُه إلا أن يجيبه: «إنني تائهٌ. لا تكلمني، أحتاج أن أتذكر.»

لكن، مثله مثل العديد من المخلوقات الطيبة، كلما حاول التذكُّر أكثر، كلما تمكَّن النسيان من ذاكرته. فلاحظ توم بأنه يتخبَّط طوال اليوم هنا وهناك، حتى رأى خفر السواحل زعنفته الكبيرة ظاهرةً فوق المياه. فانطلقوا نحوهُ وأصابوه بعقافة سحب القوارب وأخذوه بعيدًا. وهكذا، أخذوه الى المدينة وباعوا رأسه مقابل بنيس، واعتبروه صيدًا جيدًا. لكن توم لم يدر بذلك بكل تأكيد.

ثم وصل سرب من خنازير البحر، تترنح أثناء سيرها بين المياه - آباء وأمّهات وخنازير بحرٍ صغار - وكانت أجسادهم سلسةً ولامعةً للغاية، لأن الجنّيات، اعتدنَ على تلميع أجسادهم كل صباح. كانوا يطلقون أصواتًا خافتةً بهدوءٍ كلما اقتربوا من توم لدرجة أنه تحلّى بالشجاعة ليتحدّث إليهم: لكن كل ما أجابوه كان: «صه.. صه.. اصمت» لأن هذا كان، كل ما تعلموا قولهُ.

بعد ذلك، ظهر سربٌ من أسماك القرش المُتشمّسة، معظمها بطول قاربٍ، فتوجس توم خيفةً منهم. غير أنهم كانوا مخلوقات كسالى حسنة الطباع، وليسوا طغاة جشعين كأسماك القرش الأبيض والأزرق والقرش الأرضي والقروش ذات رأس المطرقة ممن يفترسون البشر. ولا مثل أسماك القرش النجار والدرّاس والقرش الجليدي ممن يقتاتون على الحيتان المسنة المسكينة.

عند ذلك أصبحوا على مقربة من العوامة، وأخذوا يحكّون ظهورهم الضخمة بها، ثم لزموا أماكنهم ليُشمّسوا ظهورهم البارزة خارج المياه تحت أشعة الشمس. فطرفوا بأعينهم لتوم!

بيد أنه لم يستطع حثّهم على الكلام. لأنهم كانوا قد أكلوا الكثير من أسماك الرنجة، حدّ الثُّخمة نوعًا ما. وعندما مرّت بالقرب منهم ناقلةٌ فحمٍ كبيرة، بثّت الرعب في أفئدتهم وفرقت جمعهم. فبدأ على توم سرورٌ بالغ، فقد كانت تتبعث منهم روائح فظيعة للغاية، الأمر الذي دفع توم لحبّيس أنفاسه طوال فترة وجودهم حوله.

وبعد ذلك، اقترب من توم مخلوق جميل جدًا، يُشبه وشاحًا مصنوعًا من الفضة الخالصة، له رأس مدبَّبٌ وأسنانٌ طويلة جدًا. لكنه بدا معتلًا مغتمًا. تارةً ينقلب على جانبه بلا حول ولا قوة، وتارةً يندفع متقدِّمًا كأنه نارٌ فضيَّة اللون. وأحيانًا يسقط مغمى عليه ساكنًا بلا حراك.

فبادره توم بالسؤال: «من أين أتيت؟ ولمَ تبدو مريضًا للغاية وحزينًا؟»

«قدمتُ من ولاية كارولينا الدافئة، حيث تحدُّ أشجارُ الصنوبر الضفاف الرملية، وحيث تتقاذف أسماك الشفنين البحرية الكبيرة وتخفق متخبطةً كأنها خفافيش عملاقة تتركب تيارات المدِّ. لكنني جُئتُ البحر من الشمال إلى الجنوب على امتداد تيار الخليج الدافئ الغدار، حتى وجدتُ نفسي عالقًا بين الرُّكام الجليدي القارص عائمًا في غمرة المحيط. وهكذا أوقعتُ نفسي في ورطةٍ بين الجبال الجليدية، ونالني ما نالني من نفحات الرياح القارصة. لكن، صغار المياه انتشلوني من هناك وأطلقوا سراحي من جديد. وها أنا الآن أتحمَّس مع بداية كل يوم. لكنني معتلٌ ومهمومٌ، وربما لن يتسنَّى لي العودة إلى الوطن مجددًا لأحظى باللهو مع أسماك الشفنين بعد الآن.»

«أوه!.. صاح توم، ثم سأله: «والتقيت بصغار المياه؟ وهل رأيت أيًا منهم هنا بالجوار؟»

«بلى.. لقد أنقذوني للمرة الثانية بالأمس! وإلا لكنتُ الآن طعامًا لخنزير بحرٍ أسود كبير.»

يا له من أمرٍ مثيرٍ للسخط! فأطفال المياه على مقربةٍ منه، ومع ذلك لم يستطع العثور على أحدهم. عندئذٍ ترك العوامة، وانتوى الإبحار مع الأمواج والتواري خلف الصخور ليخرج من البحر عندما يُرخي الليل سدوله، مثل ميرمان المنسيِّ في قصيدة السيد أرنولد الرائعة (23) – والتي لا بدَّ من أن تحفظها يومًا ما عن ظهر قلب – ويجلس فوق بقعة من الصخور بين الأعشاب البحرية المتألِّقة قرب أمواج المدِّ المنخفضة لشهر أكتوبر. وجلس هناك ينادي على أطفال المياه، ولكن، ما من مجيبٍ على نداءاته. حتى أعياء التعب من فرط القلق والبكاء.

(23) ميرمان المَنسِيّ: قصيدة لماثيو أرنولد، نشرت في عام 1849. تحكي قصة حزن غرنيق البحر (أو عريس البحر: ذكر مكافئ لحوارية البحر)، على زوجته البشرية، التي بعد سماعها أجراس الكنيسة في عيد الفصح، تخلت عنه وأولادهم للعيش على الأرض بين البشر، وعدم العودة أبدًا. القصيدة مليئة بمشاعر الكآبة والخسارة.

ولكن ذات يومٍ، عثر فيما بين الصخور على مخلوقٍ ما. غير أنّه وللأسف لم يكن طفلًا مائيًا. بل سرطان البحر، وكان مميزًا للغاية لكونه يملك برنقيات حيّة ملتصقة على مخلبيه، وهذه علامة مميزة تدل على التفوق في مملكة سرطان البحر، والتي تُعدُّ أثنى من أن يشتريهما مال، كالضمير الحيّ و صليب فيكتوريا (24).

(24) صليب فكتوريا: صليب فكتوريا هو أعلى وسام عسكري بريطاني يُمنح لأفراد القوات المسلحة الذين يثبتون شجاعتهم في مواجهة قوات العدو، ويمنح للعسكريين من أي من دول الكومنولث والمستعمرات السابقة للإمبراطورية البريطانية. تم تأسيسه عام 1856.

لم يسبق لتوم رؤية سرطان البحر من قبل، لذلك، أسرّه هذا المخلوق بالكامل. فقد اعتبره أكثر المخلوقات عجبًا وفرادةً وإثارةً للضحك ممن رآهم في حياته، وفي هذه النقطة لم يكن توم مخطئًا إلى حدٍّ بعيدٍ. فكلّ عباقرة هذا العالم من العلماء والمبتكرين إلى الرسّامين الألمان القدامى ومبتكري الصفقات ليس بمقدورهم أن يبتكروا شيئًا بمنتهى الدهشة والفرادة مثل سرطان البحر. حتى لو جمعوا فطنة عقولهم كلّها وصبّوها في عقل أحدهم صبًا.

كانت إحدى كفيّه تتخذ هيئة قبضةٍ والأخرى مسنّنة كالمنشار. وقد سرّ توم بمشاهدته وهو يُمِسِّكُ بالأعشاب البحرية بكفّه المقبض، بينما يقطع السلطة بكفّه المسنن، ثم يضعها في فمه، بعد أن يشم رائحتها كما يشم القرد رائحة طعامه. ودائمًا ما تقوم حيوانات البرنقيل الصغيرة بإخراج شباكها لتنجرف مع المياه وتلتصق بسرطان البحر حتى تحصل على نصيبها من الطعام، أيًا كان نوعه.

غير أن ما حمل توم على الدهشة هو رؤية المخلوق وهو يحرّر نفسه ويتقدم بوثبات هائلة ويقفز كالأولاد في لعبة القفز التي ينحني فيها أحد الأولاد ليقفز الآخر فوق ظهره.

وما لا ريب فيه أنه حصل على فرصته في ذلك، وكانث أجمل الفرص التي سنحت له باتجاه مقصده. لأنه إن توجه نحو شق ضيق على بعد عشرة ياردات، ماذا تخاله فاعل؟ فلو أنه دخل برأسه إلى الشق في البداية، ما كان بإمكانه أن يدير وجهه. لذا تأقلم على أن يدخل ذنبه القصير بداخل صدفته ويمدّ قرنيه الطويلين اللذين يحملان عند أطرافهما حاسته السادسة - وما من أحد يعرف ما هي تلك الحاسة السادسة - ثم يقوم ظهره ليستدل على طريقه ويحرف عينيه إلى طرفيه حتى توشكا على الخروج من تجويفيهما، وبعد ذلك يستعد، يتقدم، ثم ينطلق! ويمضي بعيداً، ليدخل بطريقة مفاجئة في جحر ويلبث هناك يسترق النظر عابثاً بشاربيه ويقول بملء فمه: لن يمكنك القيام بما قمت به..!

عندما بادره توم السؤال عن أطفال المياه أجابه: «نعم، رأيتهم».

لقد صادف العديد منهم لكنه لم يلق بالأمثلة تلك المخلوقات الصغيرة الدخيلة التي رآها تهب لمساعدة الأسماك والمحار الذين يتعرضون للمتاعب. حسناً، من ناحيته، سيشعر بالخل من فكرة أن يتلقى المساعدة من مخلوقات صغيرة رقيقة لا تحمل حتى صدفة على ظهرها.

لقد عاش سرطان البحر العجوز في هذا العالم، زمناً طويلاً بما يكفي ليعتني بنفسه. لذا، لم يتصرف هذا المخلوق المعتد بنفسه، على نحو لائق كما ينبغي مع توم. وستلاحظون كيف أنه كان يعدل عن رأيه قبل أن يبيده. كما هو الحال بالنسبة للمغترين بأنفسهم عموماً. غير أنه كان مسلياً بنظر توم الذي كان بلا مؤنس، لدرجة أنه لم يجرؤ على خوض شجار معه. وإنما اعتادا المكوث في جحور بين الصخور، وتجاذب أطراف الحديث لساعات.

وفي أثناء ذلك، وقعت مغامرة عجيبة وفي غاية الأهمية لتوم الذي كان قاب قوسين أو أدنى من فكرة أنه «لن يعثر على أطفال المياه بالمرة» وإنني موقن من أنك كنت ستشعر

بالأسى لحاله.

حسنًا، أملُ أنك، وبعد كل هذا الوقت، لم تنسَ السيدة الصغيرة البيضاء. على أية حال، ها هي قادمة، بحُلَّةٍ نظيفةٍ جميلةٍ، كما هي عاداتها وكما ستظلُّ دومًا. حيث حدث الأمر أثناء نهارات ديسمبر القصيرة المُبهجة، عندما تهبَّ الرياح دائمًا من الجنوب الغربي إيدانًا بوصول سانتا كلوز ليفرد مفرش مائدة أبيض طويلاً استعدادًا لوضع هدايا الفتيان والفتيات الصغار ومنح الطيور عشاء عيد الميلاد خاصتهم من فُتات الطعام. لنواصل الحكاية، وقد حدث في نهارات ديسمبر البهيجة، أن السَّير جون كان مستغرَقًا بمسائل الصيد بحيث ما من فردٍ في القصر تجرأ على محادثته ولو بحرفٍ واحدٍ.

كان يذهب للصيد أربعة أيام بالأسبوع، وكان يحصل على صيدٍ وفيرٍ للغاية. وكان يذهب في اليومين المتبقيين إلى هيئة المحكمة ومجلس الأوصياء وكان يحكم بالعدل في القضايا الموكلة إليه على أكمل وجه. وحالما يصل منزله في الوقت المحدد، يتناول العشاء في الخامسة، لأنه يُكرِّهُ كرهًا شديدًا للنمط الجديد الغريب المتمثل بتناول الطعام في تمام الثامنة أثناء موسم الصيد، والذي يدفع المرء لأن يتفقَّد فور دخوله المنزل، طبخة لحم البقر البارد ومذاق البيرة برفقة الخادم، الأمر الذي يُفقدُه شهيته ويدفعه للنوم على ذراع كرسي في غرفته ثملاً بعد أن أعياه التعب لمدة ساعتين أو ثلاث قبل أن يتسنَّى له تناول العشاء كأى نبيلٍ محترم.

فيا صغيري العزيز، حريٌّ بك أن تنحو منحى السَّير جون ما دُمت سيِّد نفسك. وسواء أردت القراءة بإمعان أو ركوب خيلك لفترة طويلة، فالتزم بساعات الإفطار العتيقة المعتادة في كامبريدج عند الثامنة، وساعة العشاء عند الخامسة التي تُمكنك من إنجاز عمل يوميين خلال يومٍ واحدٍ.

ولكن، بالطبع، إن عثرتَ على ثعلب عند الساعة الثالثة بعد الظهر وقمتَ بمطاردته حتى حلول الظلام، وصرتَ على بُعدِ عشرين ميلاً من المنزل فلمَ يتحتم عليك أن تنتظر عشاءك حتى يمكنك الحصول عليه، كما ينتظر غيرك من خيرة الرجال. وانتبه جيدًا لحقيقة أنك إن

داهمك الجوع بينما لم يجعُ حصانك بعد، فقدّم له عصيدته الدافئة ومياهًا، وقُدّه إلى مأواه على مهلٍ ولا تنسَ أن الخيل المعافى لا ينبت على سياج من الأشجار كما ينبت التوت البري.

فلنعدُ إلى قصتنا. حدث أن السير جون، الذي اعتاد الصيد طوال اليوم وتناول العشاء في تمام الخامسة، أن يعطّ في نومٍ عميقٍ كل مساء وأن يشخر شخيرًا رهيبًا حتى أن كل النوافذ في قصر هارثوفر تهتز، ويخرُ السخام من المداخن لشدة شخيرِه. الأمر الذي جعل سيدة القصر تعقد العزم على الخروج منه، بعد أن فقدت الأمل في خلق حديثٍ معه، كما يفقد المرء أمل سماع تغريدة من عندليب ميّت. وهكذا تركته هو والطبيب والكابتن سوينجر الوكيل، لحفلات شخيرهم المتزامنة كل مساء، وبقدرٍ ما يطيب لهم. وانطلقت في رحلة صوب ساحل البحر برفقة الأطفال، بقصد تهيئة نفسها وأطفالها، لظروف استخدام اليهود على نحوٍ طبيعيٍّ معتدلٍ.

لربما، كان يجدر بها المكوث في المنزل واستخدام عقار باري السائل لتقرّحات أقدام الخيل، فثمة الكثير منه في الإسطبلات، ومن ثم كانت ستوفّر أموالها، وثقوّت أيضًا الفرصة على المرض كيلا ينال من أطفالها - بأن تحافظ عليهم من اعتلال صحتهم في الأماكن القذرة - كما هو الحال بالنسبة للمئات من الأطفال بعد أن يصطحبهم ذوهم لأمكنة تفوح منها رائحة القذارة وتحوطها المياه الآسنة، ثم نعود لتتساءل كيف أصيبوا بالحُمى القرمزية وبالخناق!

لكنّ الناس ليسوا على قدرٍ من الحكمة ليفهموا ذلك، حتى يموتوا من الروائح الكريهة، ووقتها، سيكون الأوان قد فات. باستثناء ما تراه، وهو أن السير جون ظل يشخر بصوتٍ مزعجٍ للغاية.

ولكنّ السيدة قصدت مكانًا لا ينبغي لنا معرفته، خشية أن يتراءى للسيدات الصغار بأنه ثمة صغارٌ مائيون في ذلك المكان! وبالتالي يلاحقونهم ويقومون باصطيادهم، بالإضافة إلى أنهم سيرفعون سِعر المسكن المحيطة به. ومن ثم يحبسونهم في أحواض الأسماك كما

جرت العادة عند السيدات في بومباي، مثلما قد تلاحظ في لوحاتهم الفنية وهم يحتفظون بملائكة كيوييد في أقفاص، ولكنَّ أحدًا لم يسمع من قبل أنهم قاموا بتجويع الكيوييد(25)، أو تركهم ليلقوا حتفهم من القذارة والإهمال، كما تفعل السيدات الإنكليزيات مع مخلوقات البحر المسكينة. لذلك، لا ينبغي لإحدهن أن تكون على دراية بوجهة السيدة. فأن تسمح بموت صغار المياه هو أمرٌ لا يقلُّ بشاعةً عن سرقة بيوض الطيور التي تمنحنا تغايرد عذبة. على الرغم من وجود الآلاف، بل الملايين من كليهما في العالم، ومع ذلك، ليس ثمة مخلوق يُعتبر وجوده فائضًا أكثر من اللازم في هذا الكون.

(25) صورة أو تمثال يجسد طفلًا صغيرًا جميلًا مع أجنحة، وغالبًا ما يحمل قوسًا وسهمًا. ويُشار أيضًا لآلهة الحب عند الإغريق.

والآن، عند الشاطئ وفوق الصخور، حيث كان توم جالسًا مع صديقه سرطان البحر، مَضَتْ تننزه ذات يوم، السيدة البيضاء الصغيرة إليي شخصيًا، وبرفقتها رجلٌ حكيمٌ جدًا يُدعى البروفيسور پتثلنسپرتس، والدته من أصلٍ هولنديٍّ، وبالتالي فقد وُلِدَ في كوراساو – وأنا متأكد بأنك نِلتَ دروسًا كافيةً من حصة الجغرافيا وبالتالي تعرف موقعها – ووالده بولنديّ الأصل، لذلك ترعرع في بتروباولوفسكي – ومن المؤكد أنك تلقيتَ تعليمًا جيدًا في درس السياسة المعاصرة، وبالتالي تعرف لماذا ترعرع في بتروباولوفسكي – لكنه مع ذلك كان رجلًا إنكليزيًا مئة بالمئة، كما كان يسعى دومًا وراء أملاك من يُجاورونه.

واسمُهُ كما قلت، كان البروفيسور پتثلنسپرتس وهو اسمٌ بولنديٌّ بالغٌ في القِدَم وشهير.

وقد كان كما ذكرتُ، عالمًا عظيمًا في الطبيعة وكبيرَ أساتذةٍ في شتى الاختصاصات في الجامعة الحديثة التي أسَّسها ملك جُزر آكلي لحوم البشر، وكونه عضوًا في جمعية الأقلمة، فقد جاء إلى هنا لجمع كل المخلوقات المُقرِّفة التي يمكن أن يجدها على سواحل إنكلترا، ليعود بها ويُطلقها حول جزر آكلي لحوم البشر! لأنهم لا يملكون مخلوقاتٍ سيئةً بقدرٍ كافٍ هناك، لياكلوا ما يتركونه من لحوم.

غير أنه كان رجلاً مسنّاً عظيم الشان، ودوداً رقيق الجانب، وكان مولعاً بالأطفال، فهو على الأقل، لم يكن من آكلي لحوم البشر. وكان يُحسِن للعالم كله قاطبةً؛ طالما كانوا طيبين معه. لكن، كان يعيبه أمرٌ واحدٌ فقط وهو ما يعيبُ طائرَ أبي الحناء إن نظرتهم إلى سلوكه يوماً ما من نافذة حجرة للأطفال، وهو أنه عندما يعثرُ شخصٌ ما على دودة غريبة فإنه يثبُّ على قدمٍ واحدةٍ محيطاً به، وينتشل الدودة منه. ثم يتباهى وينفش ريشه تماماً كما يفعل طائر أبي الحناء، معلناً أنه مَنْ وجد الدودة أولاً وأنها دودته، وإن لم تكن دودته، فإنها لا تُعتبر دودةً على الإطلاق!

كان قد التقى السير جون في سكاربورو، أو فليتوود أو في مكانٍ ما آخر – وإن كنت لا تأبه بمعرفة مكان لقائهما الأول، فلن يكثر أحدٌ بمعرفة ذلك – وكان قد تعرّف عليه، وصار شديد التعلُّق بأطفاله. حينها، لم يكن السير جون يعرف شيئاً عن طيور الكوكاتو النادرة ولم يُلقِ بالاً لذلك شريطة أن يرسل له بائع السمك سمكةً جيدةً على العشاء. وحتى السيدة ما كانت تعرف سوى القليل ولكنها رأت أنه من اللائق أن يكتسب أطفالها شيئاً من معرفته. وكما ينبغي أن تعي، أن في الأزمنة اللعينة الماضية، كان تعليم الأطفال مقصوراً على جانبٍ واحدٍ عليهم أن يتعلّموه ويفهموه بشكلٍ جيدٍ. ولكن، في عصور التنوير الحديثة هذه، فقد تمّ تأهيلهم لدراسة القليل عن كل شيء، وأن يدرسوا كل ذلك بطريقةٍ لا تضمن لهم معرفة واسعة، وهو أمرٌ ينطوي على الكثير من البهجة والراحة بالنسبة لهم وبالتالي، يروقهم الأمر. وهكذا، مضى هو وإيلي يتنزهان فيما بين الصخور، وأخذ يشرح لها عن مخلوقٍ واحدٍ ضمن عشرات الآلاف من المخلوقات الجميلة وغير المألوفة التي يمكن رؤيتها هناك. لكن إيلي الصغيرة لم تكن لِثولي اهتماماً بدراسة مثل تلك المخلوقات على الإطلاق لأنها كانت تُفضّل اللعب مع عدد من الأطفال أو حتى مع الدُمى التي بإمكانها أن تتظاهر بأنها مخلوقات على قيد الحياة. وأخيراً تحدّثت بكلِّ صراحةٍ قائلةً:

«لا تُهمّني كل هذه الأشياء فهي ليس بمقدورها اللعب ولا الحديث معي. ليتني أجد صغاراً يعيشون في المياه هنا كما أتخيل رؤيتهم، كم أودُّ ذلك».

«صغارًا في المياه؟ يا لك من مخلوقة صغيرة غريبة الأطوار!.. أجابها البروفيسور.

«بلى، إنني واثقة بأن هناك صغارًا يسكنون المياه، وأنه ثمة حوريات بحرٍ وجرانيقٍ كذلك. رأيتهم جميعًا في لوحةٍ معلقةٍ في المنزل مرسومٍ فيها سيدةٌ جميلةٌ تُبحرُ في مركبةٍ تجرُّها الدلافين، ويتحلَّق حولها صغار المياه حتى أن أحدهم يجلس في حجرها. في حين تدور حولهم حوريات البحر ويلهون، والجرانيق ينفخون في أصداف المحار. كان اسم اللوحة هو: انتصار غالاتيا(26)، ويظهر فيها من ورائهم في اللوحة، جبلٌ متَّقد. إنها معلقة على الدرج الطويل. وقد أنعمتُ النظر فيها منذ أن كنتُ طفلةً صغيرةً، وحلمتُ بها ألف مرة. إنها لوحة في غاية الجمال لدرجة تدفعني إلى التصديق بأنها حقيقية.»

(26) انتصار غالاتيا: غالاتيا هي أسطورة من أساطير كتاب التحولات للشاعر الروماني أوفيد، يحكي قصة الفلاح الراعي، أسيس، الذي يقع في حب حورية الماء غالاتيا والتي يعني اسمها باللغة اليونانية البيضاء كاللبن. ألهمت هذه القصة العديد من الأعمال الفنية منها لوحة انتصار غالاتيا لرافائيل كما وصفتها إيلي تمامًا، وهو مشهدٌ لاحقٌ من قصة حياة الحورية يضم الكثير من التفاصيل.

ولكن البروفيسور لم تكن لديه أدنى فكرة حول التسليم بأن تكون مثل هذه الأشياء صحيحةً لمجرد أن الناس يعتبرونها أشياء جميلة. وعلى هذا المنوال، ظنَّ أن قبيلة البالتاز على حق تمامًا حين ظنوا أنه من الأرحم أن يأكلوا أجدادهم على أن يقوموا بدفنهم تحت الأرض، لأنهم مؤمنين بأن الدفن طقسٌ مكروهٌ للغاية. وفي حقيقة الأمر، تجاوز تفكير البروفيسور حدًا أبعد من ذلك حين رأى أنه ما من كائنٍ بشريٍّ يمكن إجباره على تصديق أيٍّ أمرٍ باستثناء ما يمكنه رؤيته أو سماعه أو تذوقه أو التعامل معه. وكان يتبنَّى نظرياتٍ في غاية الغرابة حول العديد من الأمور المُسلم بها. بل إنه وقف ذات يوم في الجمعية البريطانية مُصرِّحًا بأنه يوجد في أدمغة القردة، الحُصين الكبير(27) تمامًا كالموجود في أدمغة البشر. وهذا كان تصريحًا صادمًا لأنه لو كان الأمر كذلك، ما الذي سيحلُّ بالفضائل اللاهوتية الثلاث: الإيمان، الرجاء، والمحبة، التي أرساها الربُّ على يد بولس الرسول

لملايين الناس؟ قد تعتقد أن ثمة اختلافات أخرى أكثر أهمية بينك وبين القرد، مثل القدرة على الكلام، وصنع الآلات، ومعرفة الصواب من الخطأ، وتلاوة صلواتك، وغيرها من الاختلافات التافهة من هذا النوع، غير أن كل ذلك ليس سوى تصورات أولاد صغار يا عزيزي. لا شيء يُعوّل عليه سوى ميزان الحُصَيْن الكبير. إن كان موجوداً في دماغك، فأنت لست بقرد، حتى لو كنت تسير على أربع وليس على قدمين، وحتى لو كنت شديد الشبه بالقردة أكثر من القرده أنفسهم. بيد أنه لو تم اكتشاف حُصَيْن كبير في دماغ أحد صغار القرده، فما من شيء سيُنقذ الجدة الخامسة لجدتك الكبرى من كونها قرداً كذلك.

(27) الحُصَيْن الكبير: ويدعى أيضاً قرن آمون أو حصان البحر بسبب تشابهه مع فرس النهر وهو مُكوّن رئيسي لأدمغة البشر والفقاريات الأخرى. وهو يلعب أدواراً مهمة في دمج المعلومات من الذاكرة قصيرة المدى مع الذاكرة طويلة الأمد وفي الذاكرة المكانية التي تُمكن الفرد من التجوال. في مرض الزهايمر واشكال أخرى من الخرف، فإن الحصين واحد من المناطق الأولى في الدماغ التي تعاني من الضرر.

لا يا عزيزي الصغير، تذكّر دائماً أن الفرق الحقيقي الحتمي الفائق الأهمية والقاطع بينك وبين القرد، هو أنك تملك الحُصَيْن الكبير في دماغك، بينما ليس للقرود شيء من هذا القبيل. لذلك، فإن اكتشافه في دماغ قرد سيكون اكتشافاً مغلوّطاً يندّر بالخطر، حيث سيصاب الجميع بصدمة كبيرة أشد من صدمة تصريح البروفيسور. ومع ذلك لن نُول أهمية كبيرة للأمر، حقيقةً لأنه وكما يقول اللورد دندري وآخرون: ما من مخلوقات تملك في أدمغتها الحُصَيْن الكبير، غير البشر. لذلك، إن اكتشفوه في دماغ قرد، فلم عساه أن يكون الحُصَيْن وليس عضواً آخر غيره؟!

لكن مما يؤسفني قوله هو أن البروفيسور تيمادي في ذلك، لأنه قرأ في الجمعية البريطانية في ملبورن، أستراليا عام 1999، مقالةً في صحيفة أگدت لكل من يجد نفسه أعرف وأكثر حكمةً فيما يتعلق بالعلم: أنه لم ولن يوجد قط، ويستحيل وجود أي كائنات تملك قوى عقلية ولو حتى بمقدار النصف، باستثناء البشر، في أي مكان وزمان وبأي حالٍ كان. وأن

الحوريات، غرائيق البحر، الفراشات، آلهة الغابات والأقزام، شعوب الإسكيمو والسنافر، الجان والجنّيات والجنّيات السمرات والصفيرات، الأشباح، العفاريت، الشياطين والقردة البربريين، الغرائيق والمردة، الملائكة وكبار الملائكة والغيلان ومن هم أسوأ منهم قاطبةً، ليسوا سوى عدم. تُرَهاتٌ وكلامٌ فارغٌ. فاضطر للنهوض باكراً جداً في الصباح بعد أن تناول وجبة إفطاره خلال الليل، لكنه قام بذلك، من أجل قناعاته الشخصية على الأقل. حيث اعتبر ما قرأه، تنبؤاً حقيقياً، وأن من كتبه كاهنٌ في غاية البراعة يعتبر نفسه صدوقياً مخلصاً (28). ولربما كان محقاً! فوصف البروفيسور نفسه من ناحيته بأنه فريسيّ مُحزَّبٌ، ولعله محقٌ في ذلك أيضاً (29). غير أن الطرفين لم يخوضا نزاعاً على الأقل. فعندما يغدو ابن آدم، فرداً واسعَ الخبرة بالحياة وتجاربيها، فإن الكلمات الجارحة تغادره سريعاً دون أي أثرٍ، كما تتبدد المياه من على بدن البط. لذلك اجتمع الأستاذ والكاهن الذي كتب المقال، والتقى لتناول العشاء مساءً ذلك اليوم. وفيما بعد، جلسا معاً على الأريكة قُرابة ساعة، وتحدثا عن عمالة النساء في القارة القطبية الجنوبية، حيث لا أحد يخوض حديثاً عن العمل بعد احتساء نبيذه. ثم أقسم كلٌّ منهما للآخر، أنه أفضل رفيقٍ التقى به من أي وقت مضى في حياته. فيا لها من مزيةٍ أن نكون بشرًا عرّكنا تجارب الحياة!

(28) طائفة أو حزب يهودي يُدعى مؤسسها «صادوق» (حسب رأى الرابي ناتان/سنة 1000م) كان أحد تلاميذ أنتيجونوس الذي من «مسوكوه» وربما أساء فهم تعاليم معلّمه أو أنكرها، فرفض فكرة قيامة الموتى والحياة الأبدية والملائكة والأرواح، ومن ثم قام بتأسيس حزب الصدوقيين، وإن كان البعض يرى أن الصدوقيين هم في الأصل أتباع صادوق رئيس الكهنة في عهد داود، والذي تعاقب نسله على رئاسة الكهنوت في عصر المكابيين وما بعده حيث تأسس هذا الحزب. كان هناك عداًء تقليديّ بين الفريقين، غير أنهم اتفقوا في معادتهم للمسيح! حيث وجّه إليهم النقد، بسبب قيادتهم الأمة إلى حافة الهاوية.

(29) إحدى فئات اليهود الرئيسية الثلاث التي كانت تناهض الفئتين الأخريين: فئتي الصدوقيين والأسينيين، وكانت أضيقتها رأياً وتعليماً.

من خلال ذلك كلّه، يمكنك أن تتخيّل بأن البروفيسور لم يكن متماشياً مع وجهة نظر إيلي الصغيرة. وعليه، قدّم لها خلاصةً مقتضبةً لبحثه الشهير الذي قدّمه في الجمعية البريطانية، بطريقةٍ تتناسب مع عقلها الفتّي. ولكن بما أننا أوضحنا حججه تجاه مسألة أطفال المياه بدقة في مرةٍ سابقةٍ - وهو ما يُعتَبَرُ كثيراً جداً عليه - فلن نعيد النظر فيها هنا مرةً أخرى. إلا أنّ إيلي الصغيرة كانت فتاةً صغيرةً حمقاء على ما أظن، فبدلاً من أن تقتنع بحجج البروفيسور يتضمنن سبريس، طرح السؤال نفسه مرةً أخرى.

«لكن، لم لا يوجد أطفال مياه؟»

كلّي ثقةٌ وأملٌ أن سبب إجابة البروفيسور الجافة بعد ذلك هو أنّه في تلك اللحظة، داس على حافة صدفةٍ محارٍ حادٍ للغاية، ولسوء حظّه، أدى إحدى الثآليل البارزة في أصابع قدمه. فأجاب الصغيرة بنبرةٍ عنيفةٍ جداً ناسياً أنه كان رجلٌ عليمٌ وبالتالي عليه أن يعرف أنه لا يمكن أن يعرف؛ وأنه رجلٌ وعالمٌ منطقيٌّ ليس بمقدوره معرفة الإجابة على هذا السؤال؛ لذلك عليه أن يعي بأنه يتعدّر عليه إثبات مفهوم سلب العموم - أي أن يستدل بنفي الحكم عن المجموع على ثبوته لبعض أفراد العام - وكلّي ثقةٌ وأملٌ بأن صدفة المحار الحادة التي أضرت بأصبع قدمه، هي السبب وراء إجابته بنبرةٍ حادةٍ للغاية:

«لأنه ليس هنالك أطفال مياه!»

والتي لم تكن حتى إجابةً بلغةٍ إنكليزيةٍ جيدةٍ يا صغييري العزيز لأنه كما تعرف من حجج العمة أغيتيت، ما كان ينبغي على البروفيسور أن يتحدث بهذه الطريقة إن كان يحتدم غضباً لدرجة أن يعتبر مثل هذه الأمور ليست صواباً، أو أنها عدمٌ أو كلاهما. وإن سبق للبروفيسور قراءة حجج العمة أغيتيت، فإنها غير موجودة كذلك.

ولما تحسّس شبكته التي كان يصطاد بها أسفل الحشائش المائية بانفعالٍ بالغ، كانت قد أصابته الهدف، وأمسكت بـ «توم» الصغير المسكين. وحالما أحس البروفيسور بثقل الشبكة، رفعها بسرعة، وتوم عالقٌ بداخلها.

«يا إلهي! يا له من خيار بحرٍ زهري! ويملك يدين أيضًا! لا بد أنه ذا صلةٍ بصنف السينابتا». صاح البروفيسور، ثم أخرجته من الشبكة وأردف قائلاً: «ويملك عينين حقيقتين! عجبًا! لا بد أنه من عائلة الرّأس قَدَمَيَات. إنه كائن استثنائي للغاية!»

«كلا لسْتُ كذلك!» صاح توم بأعلى صوته لأنه يكره أن يُطلق عليه الآخرون أسماء قبيحةً.

«إنّه طفلٌ مائيٌّ!».. صاحت إيلي الصغيرة، وبالفعل كان طفلًا مائيًا.

«هراءٌ مائيٌّ يا عزيزتي!».. أجاب البروفيسور وأشاح بوجهه على نحو عنيف.

ليس ثمّة شكّ في ذلك، فقد كان طفلًا مائيًا، وقد أنكر البروفيسور وجوده قبل لحظات. فما الذي يجدر به فعله؟

كان بوّده أن يصطحبه معه للمنزل في دلوٍ بالطبع. وألا يعامله بطريقةٍ لطيفة. قطعًا لن يفعل ذلك، كان سيتركه ليعيش، ويلاطفه فقط لكون البروفيسور عجوز نبيل ودود. وكان سيكتب عنه كتابًا ويمنحه اسمين طويلين حيث لن يفصح الاسم الأول سوى عن النزر اليسير بخصوص توم، بينما سوف يشير الاسم الثاني لكل شيءٍ متعلق بالبروفيسور. ومما لا جرم فيه أنه سيمنحه اسمًا من قبيل: هيدروتيتكنن پتثملنسپرتسيانوم. أو أي اسمٍ طويلٍ آخر من هذا القبيل، فالعلماء في أيامنا هذه، دَرَجوا على تسمية أيّ كائنٍ بأسماء طويلةٍ عندما استنفدوا كل الأسماء المقتضبة بعد أن أخذتهم العادة في تمييز تسعة أنواع من كل صنف. لكن ما الذي سيكون رد العلماء عليه بعد خطابه في الجمعية البريطانية؟ وما الذي ستقوله إيلي الصغيرة بعدما أخبرها به للتو...؟

ثمّة عجوز وثنيٌّ حكيمٌ قال ذات مرّة:

«إننا ندين للأطفال بإظهار أكبر قدرٍ ممكنٍ من التهذيب والاحترام.

أبي إنه لا يجدر بالبالغين أن يتفوّهوا بأمور غير لائقة أو أن يتصرفوا بطريقةٍ منافيةٍ للصواب أمام الأطفال، حتى لا يكونوا مثلاً سيئاً لهم.

يقول ابن العم كرامشايلد ما معناه: إننا نأمل من الأولاد الصغار، أن يكونوا على قدرٍ فائقٍ من التهذيب.

ولكنه نشأ في بلدٍ حيث لا يُتَوَقَّع من الأولاد الصغار أن يكونوا مهذّبين، لأن كل صغيرٍ فيهم في حكم ساداتهم، لا خير يُرجى منه. وفي النهاية، كل امرئٍ أدري ببنات نفسه من غيره، لذلك ربما هذا حالهم. غير أن ابن العم المسكين كرامشايلد، ولإنصافه، لم يكن في سريرته متحيّزاً لمثل هذا الرأي، وإنما ماضٍ بمهمة أخلاقية، ولم يكن عالماً ليُلقي خطاباً عن هذا الموضوع، أو متعطشاً للسلطة، مع أن ذلك كان أمراً مغريباً للغاية بالنسبة له.

ولكن معظم البشر – وأخشى أن يكون البروفيسور واحداً منهم – يفسرون الأمور بمزيدٍ من الغرابة والعجب والتحيّز وعدم الصدق، بأسلوب معكوس يتّسم بالفوضى والاضطراب أكثر حتى من ابن العم كرامشايلد. لأنهم يجعلون الأمر يعني: بأنه ينبغي عليكم أن تُظهروا مدى تهذيبيكم للأطفال من خلال عدم الاعتراف بالخطأ أمامهم. حتى لو كنتَ مدرّكاً لذنبك، كيلا يفقدوا الثقة بذويهم من الكبار. فإن أجاب البروفيسور إيلي الصغيرة على هذا النحو: «بلى يا عزيزتي، إنه طفلٌ مائيٌّ ويا لهُ من كائنٍ مدهشٍ للغاية. إنه يُظهر كيف أنني لا أعرف إلا القليل عن عجائب الطبيعة، على الرغم من أربعين عاماً من العمل الشريف. وأن الأمر وما فيه أنني سبقَ وأخبرتُك عن استحالة وجود مثل هذه المخلوقات، وهاهو أحدهم يظهر أمامي لدحض غروري ويُريني صنائع الطبيعة ومقدرتها، وها هي تقوم بكل ما يمكن أن يفوق خيال الإنسان العاجز ويتخطّاه. لذلك، دعونا نشكر الخالق، والملمهم، وربّ الطبيعة على جُل صنائعه المدهشة العظيمة، ولنحاول أن نكتشف عجائب هذا الكائن».

برأيي، لو تحدّث البروفيسور على هذا النحو، فأجزم بأن إيلي الصغيرة كانت ستصدقه وتؤمن به إيماناً راسخاً وتحترمه أكثر من ذي قبل، وتحبه على نحوٍ أكبر من أيّ وقتٍ مضى كانت قد أحبته فيه. لكنه كان يتبنّى وجهة نظر مغايرة. لقد غالبه التردّد للحظات، ونزا به

قلبه للاحتفاظ بـ توم مع أنه تمنى لو لم يمسك به أبدًا. وفي النهاية، أخذ يتوق للتخلص منه. لذا استدار، ودفع توم بإصبعه حيث ما من طريقة أفضل من هذه للتخلص منه، وقال بلا تبصّر: «يا أيتها الصغيرة العزيزة، لا بد أن أحلامًا راودتك عن أطفال المياه ليلة أمس، فعقلك مهووس بهم».

وطوال ذلك الوقت، لبث توم في حالة رعب لا توصف، إلا أنه حافظ على رباطة جأشه بقدر المستطاع، مع أن البروفيسور أطلق عليه اسم خيار البحر والرأس قدمي. ففي رأسه الصغير، ثمة مفهوم ثابت لا يتغير وهو أنه إذا أمسك به إنسان يرتدي ثيابًا، فإنه سيرتدي ثيابًا كذلك، وسيتحول لمنظف مداخن قذر أسود البشرة مرةً أخرى. ولما نكزه البروفيسور، شعر بأن هذا الموقف يفوق قدرته على الاحتمال. لذلك، وبين خوفه وحنقه، التفت ببسالة كفارٍ محصورٍ في زاوية غرفة، وعصَّ إصبع الأستاذ حتى جعله ينزف.

«أوه، أي، أي».. صرخ البروفيسور، سعيدًا بفرصة تخلصه من توم بعد أن ألقاه فوق الأعشاب البحرية، ومن هناك غاص في المياه واختفى في لمح البصر.

«لكنه كان طفلًا مائيًا، وسمعته يتكلم! لقد اختفى».. صاحت الصغيرة، وهرعت لأسفل الصخور لتحاول الإمساك بتوم قبل أن ينزلق للبحر. ولكن للأسف، فات الأوان! والأسوأ من ذلك، أنها عندما هرعت لأسفل الصخور، زلت قدمها وانزلقت لمسافة ستة أقدام تقريبًا، وارتطم رأسها بصخرة حادة وسقطت هناك هامدةً تمامًا.

انتشلها البروفيسور وحاول إيقاظها منادياً باسمها، وبكى حزناً عليها لأنه أحبها كثيرًا. لكنها لم تستيقظ على الإطلاق. فحملها بين ذراعيه وأخذها إلى مربيتها. فعاد الجميع إلى المنزل ووُضعت إيلي الصغيرة في السرير، واستلقت هناك بلا أدنى حركة. وبين الحين والآخر كانت تستيقظ وتنادي في «طلب الطفل المائي» ولكن أحدًا لم يعرف ما تعنيه الصغيرة. أما البروفيسور فلم ينبس ببنت شفة، لأنه كان خجلاً من إخبارهم بالحقيقة.

وبعد مُضيِّ أسبوعٍ، وفي ليلةٍ مألها ضوء القمر، حَلَّقَتِ الجنيَّاتُ بالقرب من نافذة الصغيرة، أحضرن لها زوجًا من الأجنحة الجميلة التي لم يسعها إلا أن تضعها في موضعها على ظهرها. ثم خرجت من النافذة وطارَت معهن، وحلَّقن فوق الأراضي والبحار وارتفعن ليخترقن الغيوم، ثم ما من أحدٍ سَمِعَ أو رأى عن إيلي الصغيرة شيئًا، لزمِنٍ طويلٍ جدًا. ولهذا السبب اعتادوا القول إنه لم يَرَ أحدٌ حتى الآن، طفلًا مائيًا.

من جهتي، أعتقد، أن علماء الطبيعة يصطادون العشرات منهم عندما يخرجون من أجل الحصول على عينات التجريف لكنهم لا يُفصحون بشيءٍ عمَّا يرونه. فيُلَقون بهم في البحر مرةً أخرى، خوفًا من الإساءة لنظرياتهم. وكما ترى، عثر هذا البروفيسور على أحدهم كما قد يفعل أيُّ عالمٍ في وقته المقرَّر.

عثرت جنيَّة عجوز رهيبة على البروفيسور. وأحسَّت بمطباته، وحسبت بالتنجيم، ميلادَه، وفهَمَت بدقَّة، كم يبلغ من العمر بالمقلوب. وهكذا عرفت ما يفكِّر به كما لو أنها قرأته في كتاب مكتوب كما يقولون في الغرب القديم. وهكذا عرفت مكانه كما هو الحال على الدوام، وستكتشف الجنيَّة العجوز أماكن علماء الطبيعة يومًا ما، وتفضح أمرهم في مجلة التايمز، وعندئذٍ، سنرى، من سيضحك في النهاية!

لذا، تولَّت الجنيَّة العجوز أمر البروفيسور بحزمٍ وصرامةٍ شديدين فورًا. لكنها تقول إنها دائمًا ما تتعامل بصرامةٍ بالغةٍ مع الأُناس الطيبين، لكون فرصة علاجهم وردِّهم إلى رُشدِهِم أقوى وأسرع، وبالتالي فإنهم المرضى الذين يدفعون لها أفضل ما لديهم. فهي مضطرة إلى العمل بنفس راتب الأطباء الذين عملوا لدى إمبراطور الصين – ومن المؤسف أنهم لا يتقاضون راتبًا – لأنه لا مكافأة على مساعدةٍ لا تُسفر عن نتيجة.

وهكذا، أحكمت سيطرتها على البروفيسور المسكين. لأنه لم يكن راضيًا بالأمر على حقيقتها، ملأَتْ رأسه بأمورٍ على غير حقيقتها، لتري إن كان سيؤمن بوجودها. ولأنه لم يقرِّر التصديق بوجود طفلٍ مائيٍّ عندما رآه، فقد جعلته يؤمن بمخلوقات أنكى من أطفال

المياه. جعلته يصدق بوجود مخلوقات وحيادات القرن، وبالتنانين الثائرة التي تنفت النيران، وبمخلوق المانتيكور، وبزواحف الأصلة الأسطورية وأفعى أمفيسبينا، بحيوان الفَتْحَاء، وطائر الفينيق، والرُّخ، ووحوش العُرْك، بالرجال ذوي رؤوس الكلب، وبالكلب سيربيروس ذي الرؤوس الثلاث، والعملاق المخيف جيريون، وغيرها من المخلوقات الجميلة التي يخالها الناس، وحتى هذه اللحظة، إنها لم تُخلَق مطلقًا، وكلهم أمل ألا يُخلَقوا أبدًا، مع إنهم لا يعرفون شيئًا حولها، ولن يعرفوا البتة. وهذه المخلوقات أُخلت بعقل البروفيسور الطيب وقصّت مضجعه، حتى خلّفته في حالة من الذعر والحيرة والاضطراب والتهيه. فهاله الأمر ولم يستطع معه جوابًا، الأمر الذي دفع الأطباء للقول بأنه فقد صوابه لثلاثة أشهر، ولعلمهم على حقّ هذه المرة كما يصيبون في تشخيصهم بين الحين والآخر. لذلك تم استدعاء كل الأطباء في المقاطعة لتقديم تقرير عن حالة البروفيسور، وبلا شك، قدم كل واحدٍ منهم تقريرًا يتناقض تمامًا مع تقرير الآخر، وإلا ما الفائدة من أن نكون رجالات علم؟ ولكن في النهاية، اتفق معظمهم على كتابة تقرير بلسانٍ طبيّ دقيق، نصفه بلغة لاتينية سيئة، والنصف الآخر بمصطلحات يونانية أسوأ، وما تبقى منه بلغة إنكليزية، هذا إن عرفوا كيف يكتبونها. وهذه هي بداية التقرير:

«لقد مضينا قدمًا في تسجيل النشاط الكهربائي لألياف الطبقة السطحية أسفل الدماغ لثنائيات السيلوريت البريتومية لهذا العالم الشهير الذي ظهرت عليه أعراض نادرة، تشرفنا بالقيام بتشخيصها استقصائيًا، واستنادًا للفحص الأولي بتقديم تشخيص رباعي تنازلي ومضاد للحالة المرضية المعروفة باسم جُربيات بامبسترهاوزن الزرقاء»

لكن السيدة، ما فهمتَ حرفًا من تلك التقارير، وارتعبتَ من رؤيتها الكلمات الطويلة لدرجة أنها لاذت بالفرار وحبستَ نفسها في غرفة نومها، مخافة أن تسحق أنفاسها الكلمات أو أن تخنقها العبارات.

ثم أضافت قائلة: «أفعى البوا العاصرة، يا لها من صحبة سيئة جدًا. ولكن ممّا كانت أفعى البوا العاصرة مكوّنة؟ من أحجار الممشى؟ أمرٌ مفزعٌ للغاية! ما خطبُه حسب ظنّهم؟»..

سألت العجوز المسنة.

«عقله مشوّش، لربما الكفر وعدم إيمانه هما مدعاة لذلك».. قالت الممرضة.

«إذن، لم لا يقولون ذلك بكلمات واضحة؟».. تساءلت السيدة.

وردت السماوات والبحار والصخور والوديان صدى سؤال السيدة: لم لا يقولون ذلك بكلمات واضحة بالفعل؟ إلا أن الأطباء ما سمعوا الصدى قطّ..!

ولهذا السبب، دفعت السيدة زوجها السير جون لأن يكتب إلى صحيفة التايمز لنشر إعلان يطلب من وزير المالية بفرض ضريبة على المصطلحات الطويلة، وعلى الفور. بفرض ضريبة ضئيلة على الكلمات التي تزيد عن ثلاثة مقاطع - وهذا شرًا لا بد منه - مثل وجود الجرذان، لا بد من ردهم بترؤ. والضريبة الباهظة تكون على الكلمات التي تتعدى أربعة مقاطع، كالبدع والحركات التلقائية واستحضار الأرواح وما ينسب للأساطير وهلم جرا. بينما تُفرض ضريبة شديدة تمامًا على الكلمات التي تزيد عن خمسة مقاطع والتي أمل أنه لا أحد يرغب في رؤية أي أمثلة منها. ثم فرض ضريبة مماثلة على الكلمات المشتقة من ثلاث لغات أو أكثر في نفس الوقت. أما الكلمات المشتقة من لغتين، فقد غدت شائعة جدًا، حتى أنه لم يعد هناك أمل لاقتلاع جذورها مثلما يستحيل إلغاء الأنواء الجوية. ولما كان وزير المالية عالمًا ورجلاً منطقيًا، فقد سرّ بالفكرة أيما سرور وتبناها، لأنه رأى فيها الخطة الوحيدة والمنشودة لإلغاء الجدول دال - الذي يستخدمه معظم الناس للإعلان عن الأرباح والخسائر الرأسمالية الناجمة عن بيع ممتلكات معينة أو الاتجار بها خلال السنة - ولكنه عندما قدّم مشروع هذا القانون، لاقى معارضة شديدة من معظم الأعضاء الأيرلنديين - ومما يؤسفني قوله - من بعض الإسكتلنديين بالمثل، بحجة أنهم في بلد حرّ لا يلزم أي فرد بفهم عواطف نفسه ورغباته أو أن يفهمه الآخرون.

وبالتالي، فشل تمرير مشروع القانون في القراءة الأولى. ولكون الوزير رجلًا حكيمًا، فقد سرّى عن قلبه بفكرة أن هذه ليست المرة الأولى التي تأتي فيها امرأة بفكرة عظيمة،

فيشمخ الرجال بأنوفهم الغبية عنها!

بعد ذلك، توّلى الأطباء علاج البروفيسور، كُّل على طريقته الخاصة. ومضى كل واحدٍ منهم في عمله بنيّة صادقة، واصفين عقايرَ متنوعة ذات خصائص مختلفة كما وصفها القدماء والمعاصرون، من أبقرات إلى فوتشيرسلان كالتالي:

1. نبتة الخَرْبِق، على النحو التالي: -

الخربق من صنف AEta

الخربق من غالاتيا

الخربق من صقلية

وجميع الأصناف الأخرى العائدة للفصيلة الحوذانية بعد استخلاصه واستخدامه كعقار من نفس جيله. مع إنه لن يُجدي نفعًا. لأن جُربيات بامبسترهاوزن الزرقاء لن تتحرك ولو قيد أنملة خارج الطبقة السطحية أسفل دماغه.

2. محاولة اكتشاف ما يجري معه، بعد اللجوء لنظرية أبقرات وأريتايوس القبادوقي وسيلسوس وكايليوس أورليانوس ومن ثم غالينوس. غير أنّهم اكتشفوا أن تلك الأساليب تنطوي على قدر كبير من المتاعب، كما فعل معظم الناس منذ ذلك الحين. وعليه، فنستعين بالتالي:

3. عشبة لسان الثور، والمعالجة بالكّي..

فقد عملوا على إحداث ثقب في رأسه لإخراج الأبخرة، وهو ما من شأنه بلا شك أن يعود بالنفع الكثير - كما يقول غوردونيوس - لكن الطريقة لم تُفلح.

حجر البازهر

دماغ كبش منقوع ومغلي مع التوابل

زيت عشبة الشيح

مياه النيل

غصن من شجيرة الشفّاح

نبيذ جيد، مع إنه ليس هناك نبيذ جيد

المياه المستعملة في موقد الحدادة

مادة العنبر المستخرجة من جوف الحيتان

وسائد مصنوعة من نبتة الماندرينك

شحم قوارض الزغبات

أذن أرنب بري

كافور

أملاح ونبته السنّا

مسك

أفيون

بث الرعب فيه

ضربه بقوة حدّ النزيف

دلق أوعية مياه باردة عليه

ثم الرض على صدره حتى تتكسر أضلاعه، إلخ.

اعتمادًا على أساليب القرون الوسطى أو الرهبان: ولكن، كل ذلك لم يجد نفعًا. فجُريبات
بومسترهاوزن الزرقاء ما زالت عالقةً هناك.

بعد ذلك اقترحوا:

التلطف معه

التقبيل

جلب شمبانيا السلاحف المائية

وأسمك الرنجة الحمراء ومياه غازية

ثم نُصَحَه

وزجَّه في أعمال البستنة

ولعبة الكروكيه

وأخذه لأمسيات موسيقية

ومن ثم قراءة يوميات العمّة الغاضبة

تدخين التبغ الخفيف

قراءة صحيفة ساتردي ريفيو

ركوب عربة مزودة بحصانين وما إلى ذلك

ولم تنفع المحاولة على الرغم من حداثة الطريقة.

وإن كان مجرمًا مجنونًا أطلق النار على الملكة، وقتل كل دائنيه للتملص من الدفع لهم، أو أنه انغمس في أي شذوذٍ آخر من هذا النوع، لكانوا أضافوا إليه:

أن يُرسل لأكثر الأماكن صحيةً في إنكلترا، وتُوصي بـ:

سهول هامبستيد

جولات مجانية في غابات ويندسور

قراءة صحيفة «ذا تايمز» كل صباح

وتزويده ببندقية ذات سبطانيتين وكلاب صيد ضخمة، وتركه لإطلاق النار على ثلاثة من الحبار الطائر في الأسبوع وليس أكثر من ذلك. في حالة قلّ وجود طائر الطيهوج الشمالي الكبير.

ولكن بما أنه لم يكن مجنونًا كما ينبغي للمجانين أن يكونوا، ولا سيئًا جدًا لكي يُسمح له بمثل وسائل الراحة هذه، فقد تعاظم اليأس في نفوسهم، ولجؤوا لطرقٍ سيئةٍ، أي:

المعالجة بأبخرة الكبريت

حتى يتلوّى لكونه عقارًا لا يُضاهى لمعالجة المجانين، إلا أنهم لم يتمكنوا من معرفة ممّ يتكون!

تطهير كبد أسماك ال*****

إلا أن اسم المادة غاب عن بالهم، لذلك لم يستطع الطبيب غراي أن يجلب لهم عينة.

مرهم هولويز

العلاج بالبيولوجيا الكهربائية

علاج فالنتاين غريتراكس على طريق التمسيد بالأيدي

العلاج بتلقي الرسائل من الموتى عن طريق وضع الأيدي على الطاوات

أقراص هولويز

أقراص موريسون

العلاج بالمثل

العلاج بأقراص توماس بار التي تقهر المرض وتطيل الحياة

العلاج بالتنويم المغناطيسي

وطقوس طرد الأرواح الشريرة والتي يقصد بها استخدام مطرقة الساحرات.

إلا أن أحدًا منهم، لم يقدم علاجًا يذكر فيه (أطفال المياه) أو شيئًا له علاقة بالمياه.

العلاج بالمياه

إكسير الشباب من مدام رايتشل

نبوءات عزّاف بَكْبَسِي

نبيذ مقطّر من البيض الفاسد

العلاج بالحرارة

حيث أحرزت هذه الطريقة نجاحًا عندما استخدمها المحققون القدامى لعلاج اضطرابات التفكير، والتي تُستخدَم من قبل الملاي الفارسيين لعلاج الروماتيزم اليوم.

المعالجة عن طريق الإشعاع المتأصل بالأرض أو أن يُؤارى الثرى.

تبخيرُهُ.

مواساته بطرق الخيميائي الألماني بازيلوس فالانتينوس في انتصاره على الأنتيمون، أو تطبيق مسحوق من قَبَل كينلم ديغبي على سلاحِهِ الذي يُشَبَّهُه البعض بكأس مشروب يُذهب السكره.

أو سكب الزئبق في فمه لطرد الأرواح الحيوانية.

اعتلال النيزك، أو السفر إلى القمر للبحث عن وعيه المفقود كما فعل روجيرو مع أورلاندو فوريوسو. إلا أنهم لم يكن لديهم مخلوق الهيبوغريف ليحملهم على ظهره، فاضطروا إلى استخدام المنطاد. وعندما سقطوا في بحر الشمال، التقطهم قارب مخصص لصيد الرنجة في مدينة يارموث، وعادوا إلى موطنهم وهم رجالٌ أعقل وأحكم بكافة المقاييس.

الخصومة، أو استغلاله كما يستغل الإنسان أخيه الإنسان.

اللامبالاة أو عدم القيام بأي شيءٍ على الإطلاق.

ومع كل تلك الاعتلالات والاختلالات التي ابتكرها هؤلاء المغفلون، ومحاولات تدخُّلهم منذ أن قام إخواننا السُّود بتكسير أحجار الصوان في أبيضيل منذ زمنٍ بعيدٍ جدًّا، على نحو ما شهد به معرض قصر الكريستال الكبير، لندن. لكن، ما من شيءٍ عاد بالنفع على حالة البروفيسور! وإنما راح يصرخ وينادي طوال اليوم باسم طفل مائي، يناديه ليطرد الوحوش التي آمن بوجودها بسبب الجنيّة العجوز، والتي بالطبع لم يسعَ الأطباء لاكتشافها لعدم إيمانهم بوجودها، ولم يفكروا في شيء سوى جُريبات بامبستر هاوزن الزرقاء. وكالعادة،

يضعون الأمور في غير موضعها الصحيح كما يضعون العربة قبل وصول الخيل، ويخلطون بين العلة والمعلول.

وفي النهاية، اضطروا لترك البروفيسور الطيب لتخفيف حدة توتره من خلال تأليف كتابٍ ضخيمٍ، يُنافي تمامًا كلَّ آرائه القديمة. حيث أُكِّد فيه، أن القمر مصنوعٌ من الجبن الأخضر، وأن كل المخلوقات العملاقة فيه الشبيهة بالعثِّ الأخضر - والتي قد تراها في بعض الأحيان في غاية الوضوح من خلال التلسكوب، لو قمتَ فقط بالإبقاء على عدسته متسخةً كما ينبغي، مثلما أبقى السيد ويكس على بطاريتته الأولية - ليست سوى أطفالٍ صغارٍ يُفَرِّخون ويحتشدون هناك بالملايين، على استعداد للنزول إلى هذا العالم - متى ما شاء صغار الأرض - بأخٍ صغيرٍ جديدٍ أو أختٍ صغرى لهم.

والذي لا بد أن يكون رأيًا خاطئًا لسبب واحد: وهو أنه ما من غلافٍ جويٍّ حول القمر! على الرغم من أن البعض يُؤكِّد وجوده على الأقل في الجانب الآخر منه، وأن الغلاف يتخذ شكلًا مدورًا في الجزء الخلفي من القمر لذلك لا يُرى. وتبيَّنوا أن القمر يتخذ هيئة نوعٍ من الفطائر المحلاة، وأنه مُخضَّلٌ لدرجة أن الرجل الذي سافر إلى القمر، سافر في منتصفِ نهارٍ صيفيٍّ مرتديًا معطفًا مطريًا وجزمة كوردينك، وهو يغرز ثعابين البحر بالرمح ويعطس، لذلك، أجزم القول بأنه لا وجود للغلاف الجوي ولا يمكن أن يكون هناك تبخرٌ للمياه، وبالتالي فإن قطرة الندى لا يمكن أبدًا أن تنخفض إلى أقل من 71.5 درجة تحت الصفر فهرنهايت، وعليه يستحيل أن يكون الجو باردًا للغاية هناك حوالي الساعة الرابعة صباحًا، لتضييق على المسار المساريقي عند الأطفال في البُطِينين الأيسرين، وبالتالي، لا يمكن أن يصابوا بالسعال الديكي. وإن لم يُصَبَ الطفل بسعالٍ ديكِّيٍّ فمن المستحيل أن يكون طفلًا صغيرًا على الإطلاق، وعليه، ما من وجودٍ لصغار على سطح القمر.

و.ه.م إثباته!

والذي يبدو سببًا غير مباشرٍ، ولعلَّه كذلك. مع أنك ستضطرب في زمانك، لسماع أسبابٍ أنكى من ذلك، ومن أناسٍ أعرف منك.

لكن ثمة شيء واحد مؤكد، وهو أنه عندما كتب البروفيسور العجوز الطيب كتابه، شعر بالراحة إلى حد كبير من جُريبات بمبسترهاوزن الزرقاء ومن بضعة أمور أشد بكثير على عقله من الاعتداد بالنفس والتصلُّف، ومن عمى القلب وقسوته. وهذا يُعتبر السبب الحقيقي وراء إصابته بجُريبات بامبسترهاوزن الزرقاء، والعديد من الأمور البشعة الأخرى أيضًا. حيث أخذت سيول أفكاره وآرائه القذرة في دماغه تنضب، وتنقشع حتى تستحيل إلى لون القهوة الرائق. كتلك التي تحب أن تنشأ فيها الأسماك. وإلى أن بدأت أسماك طازجة ونقية للغاية، بالسباحة في عقله، أمسك اثنتين أو ثلاثًا منها. وهذه، تسليّة بالغة اللطف، بالنسبة لسيول أفكاره. وقام بتشريحها بعناية فائقة دون أن يذكر أبدًا ما اكتشفه منها إلا للأطفال الصغار. فصار منذ ذلك الحين فصاعدًا، رجلًا أشدَّ حزنًا وحكمةً بعد أن تعلّم الكثير مما تعرّض له، وهذه صيرورةٌ في غاية الصلاح يبلغها المرء يا ولدي العزيز، حتى وإن تحتم على المرء أن يدفع ثمنًا باهظًا لينال هذه النعمة.

الفصل الخامس

إلى صاحب الشريعة المعروف بحزْمِهِ
الذي ما فتى واضعًا مسوح الألوهية والورع
تلك النعمة الأجل رَأْفَةً.

إليه أقول:

ما عرفنا إن كان ثَمَّة شيء في غاية الجمال
كما هي الابتسامة على وجهك.

حتى إن الزهور في مشاتلها، لمحياك باسمه
وضوعها فَوَاحٍ مع كل خطوة تخطوها قدماك.

فأنت أنت.. من يصون الأجرام في الغُلا

من الانحراف في مسارٍ باطلٍ

وأنت أنت من يُبقي بعذله

أركان السماوات، أقصاها،

نقيَّة وثابتة.

وليام وردزورث

وماذا حلّ بتوم؟

انسَلَّ بعيدًا عن الصخور عائداً إلى المياه كما أخبرتك أنفاً. لكنه لم يستطع التوقف عن التفكير بالصغيرة إيلي. فهو لم يعد يتذكر من هي، ما خلا معرفته بأنها فتاة صغيرة، على الرغم من أنها كانت تفوقه حجماً أضعافاً. وهذا أمرٌ لا يبعثُ على الدهشة، فالحجم لا علاقة له مع ذوي القربى. حيث إن الحشائش الصغيرة قد تكون ذات صلةٍ بشجرةٍ كبيرة، وأنَّ كلبة صغيرة مثل فيك تربطها قرابةٌ باللبؤة أيضاً، بالرغم من أنها أضخم منها أضعافاً مضاعفة. لذا أدرك توم بأن إيلي ليست سوى فتاةٍ صغيرة، وراح يفكر فيها طوال ذلك اليوم تواقاً للظفر بصداقتها واللعب معها. بيدَ أنه سرعان ما استولى على تفكيره أمرٌ آخر.

وإليكم رواية ما حدث له، كما نشرته صحيفة ووتربروف في صباح اليوم التالي - وهي أفخم جريدة مائة - تستعين بها الجنيّة العجوز السيدة بيديد التي تقرأ الأخبار على مهلٍ كل صباح، وخاصةً فيما يتعلّق بقضايا الأمن ورجال الشرطة، كما ستسمعون عمّا قريب.

حيث كان توم يسبح بمحاذاة الصخور في مياهٍ يبلغ عمقها ثلاثة أقدام، يتفرّج على أسماك البولوك وهي تصطاد القريدس، وأسماك الكيّدَم وهي تتذوّق البرنقيات على الصخور وأصداف المحار وعلى كل شيءٍ آخر، عندما رأى قفصاً دائرياً مصنوعاً من الأملودات - غصينات طرية خضراء - وبداخل القفص، علّق صديقهُ سرطان البحر الذي بدا خجلاً جداً من نفسه. يلهو بلوامسه عوضاً عن الإبهام.

«ماذا؟! هل تصرفت على نحوٍ طائش؟ هل زجّوا بك في زنزانة؟»

خامر سرطان البحر شعورٌ بالسخط على مثل هذا الاعتقاد الذي أبداه توم. غير أن الإحباط كان قد تمكن من روحه فلم يخض نقاشاً عن الأمر. لذلك، أجاب باقتضابٍ قائلاً:

«ليس بإمكانني الخروج.»

«ولماذا دخلت هناك؟»

«دخلتُ سعيًا خلف تلك القطعة القذرة من السمك الميِّت هناك».. أجاب سرطان البحر، مشيرًا للقطعة التي خالها سمكةً طازجةً ذات رائحة شهية عندما نظر إليها من خارج القفص.

وهكذا بدت بالفعل بالنسبة لسرطان البحر. لكنّه غيّر رأيه وأساء إليها لأنه كان مستاءً من نفسه.

«ومن أين دخلتَ؟»

«من خلال ذلك الثقب المدوّر في سقف القفص»

«إذن، لِمَ لا تخرج من خلاله بنفس الطريقة؟»

«لأنني عاجزٌ عن ذلك».. وقام سرطان البحر بفتلٍ شاربيهِ بعنفٍ أكثر بكثير من ذي قبل، لكونه اضطرّ للاعتراف بذلك. ثم تابع قائلاً:

«لقد قفزتُ لأعلى ولأسفل، للخلف وللأمام وحتى إلى الجانبين لآلاف المرات على أقل تقدير، ولم أتمكن من الخروج. صعدتُ إلى قاعدة الثقب هناك ولم أعثر عليه».

ألقي توم نظرةً على الفخ، فهو أدري من سرطان البحر. حيث أدرك الأمر ببساطة ووضوح مثلما يمكنكم إدراكه لو شاهدتم مصائد سراطين البحر الشبيهة بالأقفاص.

«انتظر قليلاً».. قال توم، «ارفع ذيلك باتجاهي، وسوف أسحبك بطريقة عكسية من خلاله، وعندها لن تظل عالقًا بين الأعمدة».

غير أنّ سرطان البحر كان غيبياً للغاية، وأخرقَ لدرجةٍ أنه لم يستطع الوصول للثقب. ومثله مثل العديد من صائدي الثعالب ممن يبرعون في عملهم ما داموا موجودين في نطاق مناطقهم، ولكن بمجرد ابتعادهم عن حدودهم المألوفة، يفقدون صوابهم، هكذا فقدَ سرطان البحر صوابه، إنّ جاز التعبير.

ولما أصبح توم على مقربةٍ منه، أخذ ينكش الثقب بحثًا عنه حتى وصل إليه، وبعد ذلك، وكما كان متوقعًا، سحبهُ سرطان البحر الأخرق من رأسه أولاً.

«مرحبًا! يا لها من حركة رائعة، والآن اضربْ بقبضتِكَ أطراف تلك الأملودات حتى تتحطّم حينها، سيخرج كلانا بسهولة.»

«يا إلهي! لم يخطر ذلك ببالي أبدًا، رغم كل ما مررتُ به من تجارب في الحياة!..» قال سرطان البحر.

وكما ترى، لا تعود التجربة بالنتف المجدى ما لم يتمتّع الإنسان أو سرطان البحر بالذكاء الكافى للاستفادة منها. ذلك أن العديد من الناس، أشباه بولونيوس العجوز فى مسرحية هاملت لشكسبير، الذى جاب العالم برُمته، ومع ذلك بقى رجالًا يفتقر للذكاء والعقل، حتى أنّ طفلًا صغيرًا سيكون أذكى منه إلى حدٍ ما.

غير أنهم لم يقتلعوا سوى جزءٍ بسيطٍ من الأملودات، حتى شعروا وكأن سحابةً كبيرةً سوداء تظلل رأسيهما. فرفعا أبصارهما، وإذا بأنثى القندس تُطلُّ عليهما. وحالما وقع نظرُها على توم، كَشَرَتْ عن أنيابها تكشيرةً حادةً قائلةً: «أيها الوغد الصغير المتطفل! سأنال منك الآن لأنك حذرت أسماك السلمون منى وأخبرتهم بمكاني».. ثم تحركت ببطءٍ فوق المصيدة سعياً وراء دخولها.

دَبَّ رعبٌ هائلٌ فى قلب توم، وما برح الخوف يتملّكه أكثر عندما رآها وقد عثرت على الثقب فى قمة المصيدة. فقلّصت جسدّها لتعبر من خلاله بعينين جاحظتين وفمٍ يكشّر عن أنيابها. لكن، ما إن أدخَلت رأسها فى المصيدة حتى أمسك السيد سرطان البحر الشجاع أنفها بمخلبه وتشبّث به. وهكذا، غدا الثلاثة هناك بداخل المصيدة حتى صار المكان مكتظًا بهم للغاية. وبدأ سرطان البحر بشدّ رأس أنثى القندس، وأنثى القندس تعنّف سرطان البحر، وبينهما كان توم مسحوقًا حتى انقطعت أنفاسه. وأجهل ما كان سيحلّ به لو لم يتمكّن أخيرًا من التسلُّق على ظهر أنثى القندس، وخرج من فتحة المصيدة آمنًا.

انشرح صدر توم من فرط سعادته عندما خرج، لكنه لم يتخلَّ عن صديقه الذي أنقذه. وما أن رأى ذيله يظهر أعلى الفتحة، أمسك به وسحب الحيوان بكل ما أوتي من قوة.

لكن سرطان البحر لم يُفَلِّت أنثى القندس.

«تعال معي».. صاح توم «ألا ترى أنها ماتت؟»، وهكذا كانت بالفعل، مغمورةً بالمياه تمامًا، وميتةً. وهذه هي نهاية أنثى القندس اللئيمة.

ومع ذلك، لم يبرح سرطان البحر مكانه.

«تعال معي أيها العنيد الأبله!».. صاح توم بأعلى صوته، «وإلا سيُمسِكُ بك الصياد!»

وكان ما يقوله توم، صحيحًا. لأنه أحسَّ بأن ثمة شخصًا ما في الأعلى، قد بدأ برفعه من الجهة الجانبية للقارب. ثم فطن إلى أن المصيدة بأكملها، ترتفع معه. ولما رأى السيد سرطان البحر ما يفعله الصياد، انفجر غضبًا، واستدرك الأمر وتخلَّص من يده ثم قفز خارج المصيدة إلى البحر آمنًا. وهكذا، خَلَفَ يدهُ التي على شكل قبضةٍ وراءه، لأنه لم يخطر على عقله البليد أبدًا أن يتملَّص من يديه في النهاية. لذلك تخلَّص من قبضته كأهون حلٍّ. غير أن كل هذا ليس سوى هراءٍ محض! فما يجدرُ بك معرفتهُ هو أنَّ سرطان البحر كان أيرلنديّ الأصل، وكان قد فقس من بيضةٍ قبالة جزيرة ماغي في مصبِّ بلفاست لوف. وعندما سأل توم صديقه سرطان البحر لِمَ لم يفكر بالهرب؟ أجابه بإصرارٍ شديدٍ أن السبب هو مسألة شرفٍ تعاهدوا عليها فيما بين أفراد سرطان البحر. وهذه هي الحقيقة.

وكما أدرك عمدة بليموث ذات مرةٍ بما خَبَرَهُ من تجربةٍ سيئةٍ مع سرطان البحر قبل ثمانمئة أو تسعمئة سنة مضت، لأنه لو عاش تلك الحادثة منذ عهدٍ قريب، لقلنا بأنها حادثةٌ فرديةٌ لتكون جديرةً بالذِّكر. فذات يوم، حدث وأن سَيِّمَ العمدة من الجلوس على كرسي صلبٍ مرتديًا ثوبًا فخماً من الفراء، وحول عنقه سلسلةٌ من الذهب، والاستماع للشرطيِّ تلو الآخر يَمْرُون بقربه، ويقولون:

«ماذا سنفعل بالبحار الثمل في الصباح الباكر؟»

فيجيب أحدهم:

«نضعه في المعتقل إلى أن يستفيق في الصباح الباكر»

وعندما انتهى من الأمر، هبَّ على قدميه وراح يلعب لعبة القفزية التي يلعبها الأولاد الصغار، مع رئيس البلدية، حتى سقطت معظم أزرار قميصه. ثم تناول غداءً دسمًا إلى أن أفلتت أزرار قميصه كلها. فقال:

«يبدو وكأنه مدُّ ربيعيٍّ منخفضٌ، سأخرج بعد ظهر هذا اليوم لجني نبتة القبار.»

حسنًا، إنَّه لم يقصد جني القبار الذي تأكله مع لحم الضأن المسلوق. بل كما يفعل قائد مدفعية في فالييتا وهو يُرفِّقه عن نفسه بحصد القبار، بعد أن ألصق على جدران إحدى المعازل إعلانًا يذكر فيه:

«لا يُسمح لأي كائنٍ هنا بقطع القبار سواي!»

الأمر الذي أدب الضباط البحريين في الميناء والمالطيين اللائذين بأسوار نيكس مانجيار. ومع ذلك، فإنَّ كل ما كان يعنيه العمدة هو أن الرغبة تحدوه للانطلاق، وأن يحظى بمرح ما بعد الظهيرة مثل أي تلميذٍ مدرسيٍّ، ويصطاد سرطانات البحر بمصائد معدنية. وهكذا قَصَد ميوستون بحثًا عن سرطانات البحر. وعندما وصل إلى شقٍّ معينٍ بين الصخور، غلَبَهُ حماسه لدرجة أنه بدلًا من إدخال المصيدة فيما بينها، دَسَّ يَدَهُ في الوقت الذي كان السيد سرطان البحر موجودًا في مأواه. وبالتالي أمسك بمخالبه إصبع العمدة، وظل متشبَّثًا به.

«أي آي».. قال العمدة، وسحب إصبعه بكل ما يملك من شجاعة. غير أنه كلما راح يسحب أكثر، كلما تشبَّث به سرطان البحر على نحوٍ أشدَّ، إلى أن اضطرَّ للصمت. ثم حاول أن يدسَّ

مصيدته بيده الأخرى ولكن الشق كان ضيقًا للغاية. وعاد ليسحب يده مرةً أخرى إلا أنه لم يستطع تحمّل الألم.

عندئذٍ أخذ يصرخ طالبًا النجدة، ولكن ما من مخلوقٍ هناك على مقربةٍ منه سوى بارجةٍ حربيةٍ راسيةً قرب حائل الأمواج. حينذاك، بدأ وجهه يصير شاحبًا بعض الشيء، والمدُّ لَمَّا ينحسر. وما انفكَّ سرطان البحر، متشبّثًا بإصبعه. ثم استحالَ وجهه شاحبًا تمامًا. وأخذت تيارات المدِّ تغمره حتى ركبتيه، بينما سرطان البحر كان باقياً على حاله. ثم راودته فكرة: أن يبتتر إصبعه. بيّد أن تنفيذهما يتطلّب أمرين: أن يمتلك سكينًا، وأن يكون على قدرٍ كافٍ من الجرأة لفعل ذلك، والعمدة، ليس بحوزته أيّ منهما.

وفي ذلك الوقت، وصلت مياه المدِّ إلى خصره، فاضفّرَ وجهه، وسرطان البحر كما هو.

ثم تراءى له كل ما قام به من شرورٍ وأعمالٍ سيئةٍ. من التراب الذي أضافه إلى السكر وأوراق الخوخ التي وضعها في أباريق الشاي، والمياه التي مزجها مع دبس السكر إلى الملح في التبغ عندما كان يعمل في مصنع الجعة الذي يديره أخوه من باب أن على الإنسان، مدّ يد العون لأقرب الناس إليه. أثناء ذلك، ازرقَّت بشرته، لأن منسوب مياه المد قد وصل إلى صدره، وما يزال سرطان البحر عالقًا بإصبعه.

عندئذٍ، لم يساورني أدنى شكٍّ بأنه شعر بندمٍ تامٍ لكل ما قام به من شرور، وأنه قطع وعدًا بتقويم نفسه، كما يفعل الكثيرون عندما يعتقدون أنه لم يبقَ أمامهم حياةٌ كافيةٌ لتزكية أنفسهم. لذلك يقطعون وعودًا بخسّةٍ للغاية بحسب اعتقادهم. ولكن الجنيّة العجوز سرعان ما تكشف خداعهم، برفقةٍ عصاها السحرية المصنوعة من جذوع أشجار البتولا.

ثم تكالبت كل الألوان على وجهه في آنٍ واحدٍ، وبدا بمظهرٍ يائسٍ للغاية، فرفع عيناه لأن المياه كانت قد وصلت إلى ذقنه، وسرطان البحر لم يزحزح نفسه ولو قيد أنملة.

عندها، مرَّ قارب تابع للبارجة الحربية بالقرب من ميوستون، ولاحظ البحارة من على متن القارب، رأس العمدة ناتئًا أعلى سطح الماء. فظن أحدهم أنه برميلٌ من البراندي، بينما حسبَه آخَرٌ غواصًا أسود البشرة حتى أنَّهم همَّوا بإطلاق النار عليه، الأمر الذي لم يكن ليَسْرَ العمدة. غير أنه لحظتها، انطلقت صرخةٌ مدويةٌ من وسط ذلك الشَّقِّ، فأدرك الضابط البحري المسؤول مصدر الصرخة وأمر طاقمه بالتوجه صوب العمدة وانتشاله بأسرع ما يمكن.

وهكذا، قام البحارة بنزع سرطان البحر من إصبع العمدة وتحريره بطريقة أو بأخرى، وإنزاله على البرِّ عند مركز باربيكان. ومنذ ذلك الحين، لم يذهب لصيد سرطانات البحر مرةً أخرى. ونأمل ألا يضع المزيد من الملح في التبغ، ولا حتى أن يبيع البيرة في معمل أخيه. وهذه هي قصة عمدة بليموث، وهي قصةٌ تنطوي على ميزتين: أوَّلاها، أنها تتَّسم بحقيقةٍ تامَّةٍ. وثانيًا، أنه ما من عِظَّةٍ أخلاقيةٍ بين سطورها البتَّة، كما ينبغي أن تحتوي القصص الجيدة كلها بحسب اعتقاد الناس. ولا حتى في أيِّ جزءٍ من هذا الكتاب، لأنه قصة خرافية، كما تعلمون.

والآن حدث أمرٌ في غاية الروعة مع توم، فما إن غادر سرطان البحر بخمس دقائق، حتى قابل طفلًا مائيًا.

طفلٌ مائيٌّ حيٌّ حقيقي جالسٌ على الرمال البيضاء، وكان منهمكًا للغاية بموقعٍ صغيرٍ من الصخور. وحالما وقع بصرُه على توم، أنعم النظر فيه لبعض الوقت، ثم صاح قائلاً:

«يا إلهي! إنك لستَ واحدًا منا! إنك فردٌ جديدٌ علينا! يا لها من بهجة!»

وانطلق مسرعًا صوب توم، وركض توم نحوه أيضًا، واحتضنا وقبلا بعضهما لفترةٍ طويلةٍ دون أن يعرفا السبب. غير أنهما لم يكونا بحاجةٍ لأيِّ مقدماتٍ هناك تحت المياه. وفي النهاية تحدَّث توم قائلاً:

«أين كنتم طوال هذا الوقت؟ كنتُ أبحث عنكم منذ وقت طويل. كنتُ أشعر بالوحدة».

«إننا هنا منذ أيامٍ عديدة. ثمة المئات منّا يجوب حول الصخور، كيف حدث ولم ترنا أو لم تسمعنا عندما نغني ونمرح كل مساءً قبل أن نعود إلى المنزل؟»

فرجع توم بصره إلى الطفل، وأجاب:

«حسنًا، هذا أمرٌ مثيرٌ للعجب! لقد رأيتُ أمورًا تشبهكم مرارًا وتكرارًا، لكنني اعتقدتُ أنكم أصداف أو مخلوقات بحرية ولم يخطر على بالي أنكم أطفالٌ مائيون مثلي!»

والآن، ألم يكن ذلك أمرًا شديدَ العجب؟ وغريبًا للغاية في الواقع. فلا بد أن تكون راغبًا – وبلا أدنى شك – في معرفة كيفية حدوث ذلك، ولماذا لم يتمكن توم قط، من العثور على طفلٍ مائيٍّ إلى أن أنقذ سرطان البحر من المصيدة. لو قررتَ قراءة هذه القصة أكثر من تسع مرات وتَفَكَّرتَ في الأمر بنفسك، فسوف تكتشف السبب. ليس من الجيد أن تُخبرَ الصغار بكل شيء، وألا ندفعهم للاعتماد على ذكائهم، وبالتالي، فإنهم لن يتعلموا أكثر مما يتعلمونه في مؤسسة الدكتور دولسيمر الشهيرة في الضواحي المخصصة للكسالى من صغار الطبقة الأرستقراطية، حيث يلقن الأساتذة الدروسَ للأولاد الذين يُصغون إليهم – الأمر الذي يوفر عليهم الكثير من المتاعب – مؤقتًا.

«والآن، تعال وساعدني، وإلا فلن أنتهي قبل أن يعود إخوتي وأخواتي، ويحين وقت العودة إلى المنزل».. قال الطفل.

«بماذا أساعدك؟».. أجاب توم.

«بإعادة هذه الصخرة العزيزة لسابق عهدها. فقد سقطتُ عليها صخرة خرقاء كبيرة مسرعة في العاصفة الأخيرة وارتطمت بها بقوة، واستقرت فوقها حتى سحقت كل الزهور النابتة فيما بينها. والآن، عليّ أن أزرعها ثانيةً بالأعشاب البحرية، والمرجان، وشقائق النعمان. سأجعل منها أجمل حديقة صخرية صغيرة على الساحل برُمَّته».

وهكذا، انهمكا بالعمل على الصخور وزرعها بالنباتات، وبتسوية الرمل أسفل منها. وقد حظيا بوقتٍ ممتعٍ للغاية حتى بدأ المدّ ينحسر. ثم تناهت إلى أذني توم أصوات الأطفال الآخرين قادمين وهم يضحكون ويُنشدون ويصرخون ويمرحون. وكان الصخب الذي يحدثونه يشبه ذلك الناتج عن هدير موجات المياه. فأدرك بأنه كانَ يَسْمَعُ وَيَرَى صغار المياه مُنذُ وَقْتِ طَوِيلٍ إلا أنه لم يُدرك ذلك، لأنه لم يكن على بصيرةٍ من أمره.

وهناك، ظهر العشرات والعشرات منهم. كان بعضهم أكبر من توم وبعضهم أصغر منه. وكان الجميع يرتدي لباس البحر. وعندما عرفوا بأن توم طفلٌ جديدٌ، أخذوه بالأحضان وقبلوه، ثم وضعوه في وسطهم ورقصوا حوله فوق الرمال. وفي تلك اللحظة، لم يبلغ أحدٌ ذلك القدر من السعادة كتلك التي غَمَرَتِ الصغير الطيب توم.

«والآن..».. صاح الجميع في آنٍ واحد. «يجب أن نعود إلى ديارنا، يجب أن نعود إلى ديارنا، وإلا فإن المدّ سينحسر تمامًا ويتركنا في حالة جفاف. لقد أصلحنا كل أعشاب البحر المسحوقة، ورتبنا كل البرك المحاذية للصخور. ونشرنا كل القواقع مرةً أخرى في الرمال، وأحدًا لن يشهد المواضع التي اجتاحتها تلك العاصفة المخيفة الأسبوع الماضي.»

وهذا هو السبب في أن البرك المائية المحاذية للصخور دائمًا ما تكون نظيفةً ومرتبّةً، لأن صغار المياه تأتي إلى المناطق الساحلية بعد كل عاصفةٍ لإزالة مخلفات العاصفة وتمشيبتها من الأعشاب الميتة، وإعادة المكان برُمَّتِهِ، لسابق عهده.

إلا البشر، حيثما يوجدون، يوجد الإسراف، وتوجد القذارة. فَهَمُّ من يتركون مجاري الصرف الصحي تُصَبُّ في البحر بدلًا من وضع مثل هذه الأمور في الأماكن المخصصة لها، كأَيِّ كائنٍ يَتَّسِمُ بِجَسِّ المسؤولية والإدراك! أو إلقاء رؤوس الرنجة وكلاب البحر النافقة، أو أَيْ فضلاتٍ أخرى، في المياه، وبأَيِّ شكلٍ يثيرُ الفوضى على الشاطئ النظيف. حيث لم يَعِشْ صغار المياه منذ مئات السنين. لأنه ليس بوسعهم تحمُّلُ العيش في أي مكانٍ قذرٍ كَرِيهِه الرائحة. ولكنهم تركوا الأمر للشقائق البحرية وسرطانات البحر لإزالة كل شيء، حتى يغطي البحر الصافي البراق كل الأوساخ المتناثرة فوق الوحل والرمال النظيفة، حيث يمكن

لصغار المياه أن ينشروا القواقع الحية والحلزونات البحرية وخيار البحر والأمشاط الذهبية، وأن يشكّلوا حديقةً جميلةً من جديد، بعد إزالة قذارات البشر. وهذا، على ما أعتقد، هو السبب في عدم وجود أطفالٍ مائيين في أيِّ من البقاع المائية التي زُرْتُها في حياتي كُلِّها.

إذن، فأين يقع موطن صغار المياه؟

في جزيرة القديس بريندان السحرية!

ألم تسمع قَطَّ بالقديس بريندان المبارك؟ وكيف كان يعظ الأيرلنديين البرابرة عند ساحل كيري البري، هو وخمسة من الرهبان الآخرين، إلى أن ناله التعب منهم وصاروا تواقين للراحة والسلام؟ فالأيرلنديين المتوحّشين لم يُنصِتوا لوعظهم، ولم يذهبوا للاعتراف والقداس، وإنما فضّلوا التخلف عن ذلك ومعاقرة خمور البوتشين والرقص، وأن يضرب كل منهم الآخر على رأسه بالهراوات، ويطلق كل منهم النار على الآخر من وراء السدود، ويسرق كل واحدٍ منهم ماشية الآخر، ويحرق كل فردٍ منهم منازل الآخر؛ بحيث سئم القديس بريندان ورفاقه منهم. لأنهم لم يتخلّقوا بأخلاق المسيح ولم يصبحوا مسالمين على الإطلاق.

لذا، قصّد القديس بريندان أطراف دونمور العتيقة، وراح يصيخ السمع إلى هدير أمواج المدّ وهو يملأ المكان حول جُزر بلاسكيتس حتى آخر العالم برُمّته شاقًا طريقه صوب المحيط.

فتنهّد قائلاً: «ليتنني أملك أجنحةً كالحمّامة!»

ومن مكانٍ قصيٍّ باتجاه الشمس الغاربة، رأى بحرًا بلونٍ ساحرٍ ضاربٍ في الرُّزقة، وجُزرًا رائعةً بلونٍ ذهبيٍّ فقال: «تلك هي جُزرُ النعيم المباركة».

فاستقلَّ هو ورفاقه قاربًا، وأبحروا بعيدًا جهة الغرب. ولم يُسمَع شيءٌ عنهم على الإطلاق. وأما القوم الذين لم يُصغوا إليه، فقد تحولوا إلى غوريلات وهم على نفس حالهم حتى يومنا هذا.

وعندما وصل القديس بريندان ورفاقه الرهبان إلى تلك الجزيرة الساحرة، ألقوها محفوفةً بأشجار الأرز مليئةً بالطيور الجميلة. فأتخذَ القديس بريندان مكانًا تحت ظلال شجرة أرزٍ وبدأ يحدث جميع الطيور المحلقة في الجو ويَعْظهم. فنالت مواعظُه استحسانًا عظيمًا لدى الطيور لدرجة أنهم ذهبوا ليقصّوا ذلك على الأسماك في البحر، الذين جاؤوا بدورهم إلى القديس بريندان وبدأ يقدم لهم المواعظ. فأخبرت الأسماك صغار المياه، الذين يعيشون في كهوف أسفل الجزيرة، حتى اعتاد الصغارُ الذهابَ إليه بالمئات كلَّ يومٍ أحد، حتى أسسَ القديس بريندان مدرسةً صغيرةً مُعتبرةً ليوم الأحد. وهناك علّمَ أطفال المياه لمئات السنين، إلى أن صارَ نُظْرُهُ ضعيفًا جدًّا ولم يَعُدْ بإمكانه الرؤية. وطالت لحيثُه بحيث لم يعد يجرؤُ على المشي خشيةً أن يدوس عليها، ولربما يسقط متعثّرًا بها!

وفي الأيام الأخيرة، نام القديس ورفاقه الخمسة نومًا عميقًا تحت ظلال شجرة الأرز، ولبثوا نائمين إلى يومنا هذا. فتولّت الجنيّات أمرَ صغار المياه، وبدأنَ برحلة الوعظ وإعطاء الدروس لهم.

هناك من يقول بأن القديس بريندان سينهض ويعود لإعطاء دروسه في وعظ صغار المياه مرةً أخرى. وهناك من يظن، بأنه سيظلّ نائمًا في مختلف الأحوال والظروف حتى مجيء كوكوتسيغرو. ولكن يخال للبحارة، في أماسي الصيف التي لا تزال صافيةً وقت غروب الشمس خلف البحر فيما بين الألسن البحرية المعتمة وبين سماء الجُزر الملبدة بالغيوم، أنهم يرون من مكانٍ بعيدٍ من جهة الغرب، جزيرة القديس بريندان الساحرة. ولكن، إذا ما تمكّنَ البشر من رؤية جزيرة القديس بريندان أو لا، فإنها قائمةٌ هناك في الواقع منذ القَدَم، أرض عظيمة بعيدة وسط المحيط مغمورة تحت الأمواج، أطلق عليها أفلاطون العجوز

اسم جزيرة أطلانتس، وروى حكايات غريبة عن الحكماء الذين عاشوا فيها، وعن الحروب التي خاضوها في العصور القديمة.

ومن تلك الجزيرة انحدرت أزهار غريبة لا تزال تنتشر وتنمو حول هذه الأرض مثل الخُلنج الهائم ولوسيمachus النقدي الهائم، وسراخس فينوس الرقيق، وكرانب القديس باتريك الذي يحفّ بجبال كيري، وزهرات صائد الحشرات الصغيرة المعروفة في ديقونشاير وأخواتها الكبريات باللون الأزرق في إيرلندا، خلنج كونيمارا الأيرلندي والسراخس الشجرية المحاذية لشلال تورك، وغيرها العديد من النباتات الغريبة وكل عرابين المودة التي تُرَكِّث لكل الحكماء من بني البشر، وللصغار الطيبين، من جزيرة القديس بريندان.

عندما وصل توم إلى الجزيرة، لاحظ أنها تتركز كلها على أعمدة، وأن أساساتها كانت مليئة بالكهوف. بعض أعمدتها مصنوعة من حجر البازلت الأسود، مثل جزيرة ستاغا الاسكتلندية. وأخرى خضراء وقرمزية اللون مصنوعة من حجر السربنتين الملطوي مثل خليج كاينانس كوف. وثمة أعمدة أخرى مزخرفة بالحجر الرملي الأحمر والأبيض والأصفر، مثل ليفرميد. وكان ثمة مغارات ضاربة للزُرْقَة كجزيرة كابري الإيطالية وأخرى بلون أبيض كتلك التي في أديلسبيرج، يحدها من كل جانب الأعشاب البحرية من كل الألوان، الأرجوانية والقرمزية والخضراء والبنيّة، مفروشة بالرمال البيضاء الناعمة التي ينام فوقها صغار المياه كل ليلة.

إلا أنّهُ وللإبقاء على نظافة المكان ورونقهِ، فإن سرطانات البحر تتولى أمر ذلك، من خلال جمع فضلات الطعام من على الأرض، والتهامها مثلها مثل العديد من القروذ. بينما كانت الصخور مغطاة بعشرات الآلاف من شقائق النعمان البحرية والمرجان والمرجانيات الصلبة، التي كانت بمثابة حاوية للفضلات، تعمل على تنقية المياه طوال اليوم، وتبقيها نقيّةً وصافيةً. ولكي يعوّضونهم عن اضطرابهم إلى القيام بمثل تلك الأعمال البغيضة – لأن تلك المخلوقات لم تُترك سودًا وقذرة كما يُترك المساكين من منطّفي المداخن وعمّال النظافة –، فالجنيات أكثر مراعاةً لشعور الآخرين، وأكثر من مجرد ذلك بكثير. بل كُنَّ يُزَيِّنُّ تلك

المخلوقات بأجمل الألوان والأشكال حتى تظهر وكأنها مشتل هائل من الأزهار ذات الورود الزاهية.

وإن كنت تفكر بأن ما أقوله ترهات وكلام غير منطقي فلا يسعني إلا أن أقول بأن تفكيرك غير صحيح. فثمة نبيل مسن يدعى جوزيف فورييه اعتاد أن يقول:

«يجدر بنا أن نتصرف مع عمال المداخن والنظافة كما نتصرف مع الجميع، أن نعاملهم بالمثل. وأن نكرمهم بدلاً من أن نحتقرهم».

وقد كان رجلاً مسناً ذكياً جداً، لكن لسوء حظّه هو والعالم، كان مجنوناً للغاية!

وبدلاً من وجود الحراس ورجال الأمن ممن يجردون من وقوع جرائم مروعة بالليل، كانت هنالك ألوف مؤلفة من الأفاعي المائية، وأعجب المخلوقات. وكان كل واحد من الأفاعي يحمل اسم واحدة من حوريات البحر - جنيات البحر اللواتي اعتنين بهم - يونيس وبولينو، فيلودوس وساماث، وكل الجنيات العزيزات الجميلات اللاتي يسبحن حول ملكتهن أمفيتريت وعربتها المشيدة من أحجار كاميو الكريمة.

كن يرتدين قطائف مخملية بلون أخضر وأسود وأرجواني وكلهن متحدات في حلقات، وكان لبعضهن ثلاثمائة عقل للفرد الواحد منهن، لذلك، لا عجب من كونهن مخبرات وبغاية الفطنة والذكاء. وكان لبعضهن أعين في أطراف ذنبها، ولأخريات أعين على كل مفصل ليظفرن برقابة أشمل وأدق. وعندما يرغبن بوجود أفعى مائي صغير، فإن كل ما يقمن به هو زرع أحدهم على أطراف أذناهن ورعايته إلى أن يشتد عودّه ويصبح قادراً على الاعتناء بنفسه، عندئذ يتركونهن ليَمْضوا ويكُونوا عوائل خاصة بهم.

وإن حصل أي أمر مكروه لهم كأن تقوم مخلوقات مؤذية بزيارتهم، فإنهم يهرعون للانقضاض عليهم حيث يبرز من كل واحد منهم، مئات الأقدام التي تظهر وكأنها متجرّ متكامل لصنع السكاكين، منها ما يطعن ومنها ما يُصيب ويخز ويخدش ويمزق ويقرص

ويقيد تلك المخلوقات السيئة على نحوٍ مفزعٍ للغاية، الأمر الذي يضطرُّهم للفرار، حفاظًا على حيواتهم، وإلا فإن مصيرهم سيكون الفرغ إلى قطعٍ صغيرةٍ وبعد ذلك، يتم التهامهم. وإن لم يكن كل ما قلته صحيحًا برُمَّتِه، كل كلمة منه، فإني كافرٌ بالمجاهر، وأن كل الحقيقة انتهت بنهاية الجمعية اللينينية!

كان ثمة صغارٌ مائونٌ بالآلاف، أكثر مما يتصوَّرُهُ توم وحتى أنت.

جميع الأطفال الصغار ممن تتولَّى الجنيات الطيبات العناية بهم. ممن تقوم أمهاتهم وآباؤهم القساة بإهمالهم، وأولئك الصغار الأميون، ومن ترعرعوا على الكفر، وكل من نال منهم سوء جِراء المعاملة القاسية والجهالة والإهمال. كل الأطفال الذين تُغَطِّي جلودهم القذارات ومن يُمنحون النبيذ ويشربونه على الرغم من صغر سنِّهم أو من يشربون المياه من الغلايات الساخنة ومن يسقطون في النار. جُلُّ الصغار في الأزقة والباحات والبيوت الصغيرة ممن يقضون نحبَّهم من الحمى والكوليرا والحصبة والحمى القرمزية والشكايات البغيضة التي ما من أحدٍ يتَّخذها همَّةً الأكبر بعد اليوم، والتي لن يضطر أحدٌ إليها في يوم من الأيام في الوقت الذي نغدو فيه أناسًا نتمتع بمنطقٍ سليم.

وجميع الأطفال الصغار الذين قُتلوا على أيدي أسيادهم القساة والجنود الملعونين، جميعهم كانوا هناك، باستثناء أطفال بيت لحم (30) الذين قتلهم الملك الشرير هيرودوس، ممن لاذوا إلى السماء من غير تردد، وأصبحت جنات النعيم مأواهم منذ زمنٍ طويلٍ كما يعلم الجميع، وصرنا ندعوهم بالأبرياء المقدسين.

(30) إنجيل متى 2: 13 - 23 الحادثة المؤلمة التي تُشير لقتل الأطفال في بيت لحم على يد هيرودوس بعد ولادة يسوع المسيح بالجسد.

على أية حال، وددتُ لو يتخلَّى توم عن كل الأعباء السيئة، ويتوقَّف عن تعذيب الحيوانات التي تتَّسم بالحمق بعد أن أصبح لديه العديد من الرفاق ممن يروقونه. ويؤسفني القول إنه عوضًا عن ذلك، راح يتحرَّش بهذه المخلوقات ما عدا الأفاعي المائية لأنها لن تقف مكتوفة

الأيدي إزاء سلوك توم السيئ. وهكذا، مضى يدغدغ المرجانيات الصلبة ليجعلها تصمت. وأثار الرعب في السرطانات لكي يختبئوا في الرمال ويختلسوا النظر إليه بأطراف أعينهم. ووضع الحجارة في أفواه شقائق النعمان ليدفعهم إلى التخيل بأن وجبة عشائهم، قريبة! فحدّره الأطفال الآخرون من سوء سلوكه، وقالوا له:

«خذ جذرك من أفعالك. فالسيدة بدايد قادمة.»

إلا أن توم لم يُعزّ تحذيراتهم اهتمامًا. وأخذ يتصرّف بطريقة تشّيم بالشغب تمامًا بهجةٍ ومزاجٍ عالٍ. حتى جاءت فعلاً، السيدة بدايد ذات صباحٍ باكراً من يوم الجمعة. كانت سيّدة مخيفة. وعندما رآها الأطفال وقفوا جميعاً في صف واحد بمنتهى الاستقامة وهم يسوون ثيابهم، ثم وضعوا أيديهم خلف ظهورهم كما لو أن محققاً سيقوم باستجوابهم.

كانت السيدة تعتمر قلنسوة سوداء وتضع وشاحاً أسود. ما من تنورةٍ منتفخةٍ مدعمةٍ بالأسلاك على جسدها إطلاقاً. وتضع زوجاً من النظارات الكبيرة بلونٍ أخضر على أنفها الضخم المعقوف والذي كان معقوفاً للغاية لدرجة أن عظمة أنفها كانت تصل لأعلى حاجبيها. وتحت ذراعها تحمل عصا طويلة مصنوعة من أشجار البتولا. في الحقيقة كانت سيّدةً قبيحةً للغاية، لدرجة أن توم انتابته رغبة في السخرية منها بصنع تعابير مضحكة على وجهه غير أنه لم يجرؤ لأن منظر عصا البتولا تحت ذراعها، لم يُعجبه.

نظرت إلى الأطفال واحداً تلو الآخر، وبدأت في غاية الرضا عنهم، مع أنها لم تسألهم سؤالاً واحداً عن سلوكهم. ثم بدأت بمنحهم شتى الأنواع من المذاقات البحرية اللطيفة: كعكات بحرية، تفاح بحري، برتقالات بحرية، قطع التوفي البحرية، والأفضل من كل ذلك أنها أعطتهم مثلجات بحرية مصنوعة من حليب الأبقار البحرية التي لا تذوب تحت المياه مطلقاً.

وإن لم تُصدِّق ما أقوله تمامًا، إذن فَكَّرْ فحسب، هل ثمة شيء أكثر رخصًا ووفرةً من سخور البحر؟ إذا لماذا قد يستحيل وجود قطع التوفي البحري أيضًا؟

بمقدور الجميع العثور على ليمونٍ بحريٍّ مقسمٍ إلى أرباع جاهزة أيضًا، لو بحثوا عنه متى ما كان المدُّ منخفضًا. وفي بعض الأحيان، يمكنهم العثور على عنب بحري يتدلَّى في عناقيد. وإن سافرتَ لمدينة نيس الفرنسية، فستجد سوق الأسماك زاخرًا بالمأكولات البحرية يطلقون عليها اسم «frutta di mare» مع أنني أخالهم يطلقون عليها الآن اسم «fruits de mer» من باب المجاملة لحاكمهم التقوي المعطاء الذي - وعلى ما يبدو - يرغب في أن يرث النعمة التي أُسبِغَتْ على أولئك ممن يتجاوزون ويتعدَّون على آثار الآخرين. ولربما، هذا هو السبب الحقيقي وراء تسمية المكان نيس، لأنه يحوي العديد من الأشياء الجميلة في البحر. وفي النهاية، إن لم يكن حاملًا لهذا الاسم، فحريٌّ به حَمَلُهُ.

أثناء ذلك، أخذتوم الصغير يحملق بكل هذه الأشياء الجميلة وهي تُوهب للصغار، إلى أن بدأ اللعاب يسيل من فمه وأخذت عيناه تتسع وتتسع حتى صارتا كعيني البومة. فقد تطلَّع متحرِّقًا بأن دورهُ سيحينُ في النهاية، وهذا ما حدث بالفعل. لأن السيدة دعتَه، ورفعت أصابعها بشيء فيما بينها، ودسَّته في فمه. فإذا به حصة صلبة باردة وقذرة! صدَّقوا أو لا تصدَّقوا!

«إنك امرأة قاسية جدًا».. صاح توم الذي بدأ ينشج.

«وأنت فتى قاسٍ جدًا، لأنك تدس الحصى في أفواه شقائق النعمان وتخدعها وتدفعها للظن بأنها قد اصطادت وجبة عشاء شهية! لذا ينبغي أن أفعل بك كما فعلت بتلك المخلوقات المسكينة».

«من أخبرك بذلك؟».. سأل توم.

«لقد فعلت ذلك بنفسك، وفي هذه اللحظة بالذات!».. أجابته السيدة.

فوجئ توم بكلام السيدة أيما مفاجأة، لأنه في الحقيقة، لم يتفوه بكلمة قط!

«بلى! فكل فردٍ منكم يخبرني عن الذنب الذي ارتكبه تحديداً، ومن دون أن تكونوا على درايةٍ بذلك. لذا لا فائدة تُرجى من المحاولة لإخفاء أيّ شيء عني، والآن انصرف، وكن فتىً صالحاً. ولن أضع المزيد من الحصى في فمك، إذا لم تحشر المزيد من الحصى في أفواه المخلوقات الأخرى!».. استطردت السيدة.

«لم أكن أدري بأن ذلك يُشكّل ألماً».. قال توم.

«وها قد عرفت الآن. لطالما يتذرع الآخرون بذلك أمامي. إلا أنني أجيبهم: إن كنت تجهل بأن النيران محرقة، فهذا ليس سبباً كافياً لئلا تحترق بها. وإن كنت لا تعرف أن القذارة تستجلب الحمى، فجهلك لا يمنع الحمى من قتلك. فحتى سرطان البحر، يجهل بأن دخوله المصيدة يُشكل ضرراً عليه، ورغم ذلك يدخل، ويتم اصطياده».

«يا إلهي!».. قال توم لنفسه. «إنها تعرف كل شيء!»، وكانت السيدة على درايةٍ بكل شيءٍ بالفعل.

«وهكذا، إن كنت تجهل بأن ثمة سلوكيات لا أخلاقية تبدّر منك فهذا ليس سبباً يحميك من العقاب على ما ارتكبت من أخطاء. غير أن العقاب لا يكون بنفس...».. استطردت السيدة التي صارت نبرة صوتها بالغة الرقة بعد كل ما قالت، وأكملت: «بنفس الدرجة كما لو كنت على درايةٍ بأفعالك يا صديقي الصغير».

«حسناً، لكنك قسوت قليلاً على فتى مسكين مثلي».. أجاب توم.

«لا.. على الإطلاق. إنني أفضل صديقٍ قد تحظى به أكثر من أي وقتٍ مضى من حياتك. دعني أخبرك بالأمر: لا يسعني منغ نفسي من معاقبة الآخرين عندما يقتربون ذنباً. ولا يروق لي أن أفعل ذلك، وغالباً ما أشعر بالأسى الشديد عليهم. لكن ليس بيدي حيلة. ومهما حاولت كبح نفسي عن معاقبتهم، فلا أتمكّن وأمضي في مهمتي على حدّ سواء. لأنني أقوم

بذلك أليًا تمامًا كما تعمل المحركات. إنني مليئةٌ بالعجلات والنوابض من الداخل، وهكذا تم تدويري بدقةٍ بالغةٍ، لذلك، ليس بيدي حيلةٌ».

«هل مضى وقتٌ طويلٌ منذ أن فرغوا من تدويرك؟» سأل الفتى الصغير الماكر الذي اعتقد محادثًا نفسه: «يومًا ما، ستتوقف عن العمل، وربما ينسون أمر تدويرها مثلما اعتاد العجوز غرايمز نسيان تدوير ساعته بعد عودته ثَمَلًا من الحانة. حينها سأكون في مأمن!».

فجاء جواب السيدة: لقد تم تدويري مرةً واحدةً وإلى الأبد منذ زمنٍ طويلٍ لدرجة أنني نسيْتُ كل شيءٍ عن ذلك».

«يا إلهي! لا بد أنك مخلوقةٌ منذ دهرٍ بعيدٍ جدًّا».

«لم يخلقني أحدٌ يا صغيري. سأعيش إلى أبد الأبدِين، فعمري يساوي عمر الخلود، ومع ذلك لم أتجاوز عمر الزمن».

وهناك، علا وجه السيدة تعبيرٌ غريبٌ للغاية، تعابير وقورةٌ جدًّا ممزوجةٌ بحزنٍ واضحٍ، ومع ذلك بدت لطيفةً للغاية. فرفعت نظرها إلى الأعلى بعيدًا كما لو كانت تحديق عبر البحر وعبر السماء إلى شيءٍ بعيدٍ، بعيدٍ جدًّا. وبينما كانت تنظر، ارتسمت على ثغرها ابتسامةٌ هادئةٌ رقيقةٌ تنمُّ على جَلَدٍ، ومفعمةٌ بالأمل، حتى ظنَّ توم في تلك اللحظة، بأنها لم تبدُ قبيحةً على الإطلاق. ولم تُعدْ كذلك لأنها كانت مثل العديد من الناس الذين تفتقر وجوههم لملامح فاتنةٍ ومع ذلك يكون من الرائع رؤيتهم، فهم يأسرون قلوب الأطفال الصغار على الفور. فبعض المنازل على الرغم من عاديّتها وبساطة شكلها، إلا أنه عبرَ نوافذها، ثَمَّة أرواح جميلةٌ بالغة الطيب، تطلُّ منها وتفكّر في المستقبل.

فابتسم توم في وجهها، وسُرَّت الجنيّة العجيبة في لحظتها، وبادلتها الابتسامة أيضًا وقالت: «نعم علمتُ ذلك. طُنننتني بشعةً جدًّا قبل قليل، أليس كذلك؟»

طأطأ توم رأسه، واحمرَّ وجهه خجلًا حتى علَّت الحمرة أذنيه.

«إنني قبيحةٌ جدًا. إنني أبشعُ جنيةً في العالم بأسره. وسأظلُّ كذلك حتى يتصرَّف الناس بأدبٍ ويُعامِلون الآخرين كما يُحِبُّون أن يُعامَلوا. عندئذٍ سأصير جميلةً جدًا كأختي السيدة دايبو، أجملُ جنيةً في العالم. يتلخَّص عملنا بأن تبدأ أختي هذه عملها من حيث أنتهي، وأن أبدأ أنا من حيث تنتهي هي. وأولئك الذين لن يُصغوا إليها، لا بُدَّ أن يصغوا لي كما ستري. أما الآن، فليذهب كل فردٍ منكم لشأنه، باستثناء توم. لن يبرح مكانه ليشهد ما سأفعله، وسيكون هذا بمثابة تحذيرٍ معقولٍ له في المقام الأول قبل أن يذهب إلى المدرسة. والآن يا توم، سأتي إلى هنا في كل يوم جمعة وأستدعي كل من أساء معاملة الأطفال الصغار، وأعامله كما عامل الأطفال.»

وعندها أصاب توم الذعر فتسلَّل متوارياً تحت صخرة من الصخور، الأمر الذي أغضبَ زوج سرطان البحر اللذين يقطنان هناك، وأفزَع صديقهما سمكة الزبيدي الأطلسي بحيث راح يتخبَّط على نحوٍ هستيريٍّ، إلا أن توم لم يتحرك ولو قيد أنملة من أجلهم.

قامت السيدة الجنية أولاً باستدعاء جميع الأطباء ممن يمنحون الأطفال الصغار قدرًا كبيرًا من العقاقير المُلينة. وكان معظمهم من كبار السن لأن الأطباء الأصغر سنًا كانوا أذكى من أن يفعلوا ذلك، باستثناء عددٍ قليلٍ من الجراحين العسكريين، الذين ما زالوا يعتقدون أن أحشاء الطفل تُشبه إلى حدِّ كبيرٍ أحشاء رامي قنابل اسكتلندي! ووضعتهم جميعًا في صفٍ واحدٍ، فبدأ على وجوههم القلق، لأنهم كانوا على درايةٍ بما سيحدث.

بادئ ذي بدءٍ، قامت باقتلاع أسنانهم كلها حتى نزفوا دماءهم، ثم أعطتهم جرعات من الكالوميل ودواء الجَلَّاب المُسهِّل، والأملاح وعقار السنَّا، ثم الكبريت والدبس. الأمر الذي جعل وجوههم تتلَوَّن وتُكوِّن تعابير رهيبة. بعد ذلك أعطتهم كمية كبيرة من الخردل والماء، ومن غير توقُّف. ثم كررث الأمر من جديد وكانت تلك هي الطريقة التي أمضت بها صباح ذلك اليوم.

ومن ثم استدعت مجموعة كاملة من السيدات الحمقاوات اللاتي يقمن بشد خصور أطفالهن الصغار وربط أصابع أقدامهم للإبقاء على حجمهم صغيرًا. وقامت السيدة بربط

النساء كلهنَّ بمشدِّ ضيقٍ ليختنقن حدَّ الغثيان، وتحمرَّ أنوفهن وتتضخَّم أيديهن وأقدامهن وتتورَّم. ثم حشرت أقدامهن في أكثر الأحذية ضيقًا، وأرغمتهن قاطبةً على الرق بها، وقد رقصن بشكلٍ أخرق في الواقع، وبعدها، سألتهن عن مدى رضاهن عن ذلك، ولما أجبتها بأنه لم يرقُ لهن على الإطلاق، أطلقت سراحهن. لأن أيديهن قد اقترفت ذلك الخطأ من باب الأناقة الحمقاء بعد أن اعتقدن بأن ذلك لمصلحة أطفالهن. كما لو أن الخصر الزنبوري والأصابع بالغة الصغر أمرًا نافعًا ومن أشكال الجمال، أو أنه يعود بأدنى قدرٍ من الفائدة على أي أحد!

ثم استدعت جميع المربيات المهملات، ووخزتهن بالدبابيس في كل مكان، ودفعت كل واحدة منهن في عربة أطفال بأحزمة ضيقة على بطونهن ورؤوسهن بسرعة، حتى تدلَّت أذرعهن من كلا الجانبين، وشحبت وجوههن وأصبحن بمظهر أخرق للغاية، وأصبن بضربة شمس، ولكن كونهن تحت المياه، لا يمكن أن يحدت لهن شيء سوى ضربات بحرية وهذه - كما أجزم لك - تحمل نفس القدر من السوء تقريبًا، إن جربت الجلوس أسفل عجلة طاحونة.

وانتبه!

عندما تسمع هديرًا في قاع البحر، سيخبرك البحارة بأنها ليست سوى أمواجه العالية. ولكنك بت أكثر إدراكًا وتعرف ما يحدث... إنها السيدة الجنية العجوز وهي تدفع المربيات المهملات في عربات الأطفال!

وبحلول ذلك الوقت سيكون التعب قد نال منها وسيتعين عليها المغادرة لتناول وجبة الغداء. وبعد الغداء، تشرع في العمل من جديد، وهذه المرة سوف تستدعي جميع مديري المدارس القساة. أفواجًا وأفواجًا متكاملة منهم. وما أن رأتهم، حتى تجهمت ملامح وجهها وصارت مخيفة. فاستعدت للعمل بجدية، كما لو أن أفضل جزء من عملها كان قد بدأ للتو.

كان أكثر من نصفهم رهبان مستنون في منتهى القذارة، شعث، تنبعث منهم روائح كريهة. ولأنهم لم يجروا على ضرب رجالٍ بمثل حجمهم، كانوا يتسلّون بضرب الأطفال الصغار بدلًا من ذلك. كما يمكنك أن ترى في صورة البابا غريغوري الكبير - حيث كان رجلًا صالحًا ونزيهًا عندما يحشر أنفه في أمورٍ يفقه كُنْهَهَا - وهو يُعلِّم الصغار إنشاد: دو - ري - مي.... برفقةٍ سوطٍ متعدّد الأطراف موضوعٍ أسفل كرسيّه.

ولكن بما أنهم لم ينجبوا أطفالًا قطّ، فقد وضعوا في رؤوسهم فكرةً مفادها أنهم الأشخاص الوحيدون في العالم الذين يعرفون كيفية التعامل مع الأطفال، مثلما يظن معظم الناس حتى الآن. وقد أدخلوا إلى إنكلترا خلال العصور الأنجلوسكسونية المنصرمة، أسلوبًا للتعامل مع الأولاد والبنات، وبالمجان أيضًا، وكما من أسوأ الأساليب التي يستحيل أن تعامل بها كلبًا أو حتى جوادًا. ولكن السيدة بدايد، أخذتهم جميعًا منذ زمن بعيد وأذاقتهم كيف يكون طعم الضرب بعصيّهم التي كانوا يضربون الصغار بها، عسى أن تؤتي هذه الطريقة نتائج طيبة وتعود بالنفع عليهم. فراحت تصفّعهم على وجوههم وتضربهم على رؤوسهم بالمساطر وراحات كفوفهم بالعصي. وكشفت لهم بأنهم من النوع الذي يُشيع الأقاويل، هذا وأنهم صنف من البشر يتّسم بالسوء والشر! وكانوا كلما تعاضم سخطهم يخبرون السيدة الجنيّة بأنهم يقولون الصدق، في محاولةٍ منهم لإنقاذ ما تبقى من سمعتهم بسبب الطريقة التي عاملتهم السيدة الجنيّة بها، كلما أصرت الجنية أنهم لا يفعلون ذلك وأنهم لا يتفوهون سوى بالأكاذيب. وفي النهاية أوسعتهم ضربًا مبرحًا بعصاها المصنوعة من أشجار البتولا - لكن على نحوٍ لا يعود بضررٍ بالغٍ عليهم - ثم فرضت على كل فردٍ منهم أن يتّم حفظ ثلاثمئة ألف سطر من الكتاب المقدس عن ظهر قلب قبل أن تعود يوم الجمعة المقبل. وأثناء ذلك كله، كان الصراخ والعيويل يرتفع من كل واحدٍ منهم حتى صعدت أصوات أنفاسهم عبر البحر كالفقايق الخارجة من مياه الصودا؛ وهذا أحد الأسباب التي تفسر وجود الفقاعات في البحر! وثمة أسباب أخرى وأخرى: ولكن هذا السبب بالذات هو ما يشكل موضع اهتمام الأولاد الصغار. وبمرور الوقت، أخذ الإرهاق من السيدة الجنية مأخذًا، لدرجة أنها بدت مسرورةً بالتوقّف عند هذا الحدّ، وبالفعل، فقد أبلت بلاءً حسنًا في يوم عملها ذاك.

لم يكره توم السيدة المُسِنَّة بالمعنى الحرفي للكُزّه. إلا أنه لم يسعُه إلا أن يفكر بها على أنها سيدةٌ خبيثةٌ نوعًا ما، ولا عجب إن كانت تلك السيدة العجوز المسكينة، خبيثةٌ حاقدةٌ بالفعل. لأنه إن تعيّنَ عليها أن تنتظر لتغدو سيدةً جميلةً حتى يكون جزاء المذنبين من جنس أعمالهم، عندئذٍ سيكون عليها أن تنتظر لزمّنٍ طويلٍ جدًّا.

يا للعجوز المسكينة! يقع على عاتقها الكثير من الأعمال الشاقّة، ولو أنها وُلِدَتْ ونشأت على مهنة غسيل الملابس والوقوف على حوض الاستحمام طوال اليوم لكان ذلك أفضل بكثيرٍ بالنسبة لها. لكن وكما ترى، ليس بمقدور الناس اختيار صنعتهم الخاصة دائمًا!

فأخذ توم يتطلّع لسؤالها سؤالًا واحدًا. وفي نهاية المطاف، متى ما نظرتُ السيدة لتوم، لم تمنحهُ نظرةً تُنمُّ على لؤمٍ على الإطلاق، بل راحت ابتسامةً طريفةً ترتسم على محياها بين الحين والآخر، حتى إنها كانت تقهقه بينها وبين نفسها بشكلٍ مَنَحَ توم الشجاعة لسؤالها، فقال أخيرًا:

«هل لي أن أسألك سؤالًا يا سيدتي؟»

«بالتأكيد يا صغيري»

«لِمَ لا تُحضرين كل أرباب الأعمال القساة إلى هنا وتلقينهم درسًا أيضًا؟ أولئك الذين يعاملون فتيان المناجم بفضاظة، وصانعي المسامير ممن يبزون أنوف فتيانهم ويدقون أصابعهم بالمطرقة، وكل أصحاب حرفة تنظيف المداخن أمثال غرايمز ربّ عملي؟ لقد رأيتَه يسقط في مياه البحر منذ فترة طويلة، أكاد أجزم أنه موجود هنا. وإني على يقين بأنه عاملني بقسوة.»

تجهّم وجه السيدة بحيث ارتعدت فرائص توم من الخوف لذلك، وندم لكونه وجّه سؤالًا لها بمثل هذه الجرأة. إلا أن السيدة ما كانت غاضبةً منه. فأجابت:

«إنني أبحث عن مثلهم على مدار الأسبوع. إنهم في مكانٍ مختلفٍ جدًّا عن هذا، فهم يعرفون حق المعرفة أنهم يقتربون الأخطاء».

وكانت نبرة السيدة يشوبها هدوءٌ تامٌّ، الأمر الذي جعل توم يستشعر إحساسًا بوخزٍ طفيفٍ من رأسه وحتى قدميه كما لو أنه دخل بين سربٍ من قُرَاص البحر اللاسعة.

«لكن هؤلاء الناس».. استطردت السيدة، «لا يدركون بأنهم يقتربون الأخطاء، لأنهم مجرد حمقى لا صبر لديهم. وبالتالي أعاقبهم حتى يغدوا أناسًا صبورين وحسب، ويتعلمون استخدام المنطق السليم كأني كائنٍ عاقل. وفيما يخص مُنْطَفي المداخن وفتيان المناجم والمساميريين، فقد تولت أختي إرسال أناسٍ طيبين للحدِّ من كل هذه السلوكيات، إنني ممتنةٌ لها جزيل الامتنان على ذلك. ليتهَا استطاعت أن تُوقِفَ السادة القساة عن الإساءة للأطفال المساكين، لغدوثُ سيِّدةٍ محبوبَةٍ قبل ألف عامٍ على الأقل. فكنّ ولدًا صالحًا، وعاملٍ الناس كما تُحب أن يعاملوك – وإن لم يقوموا هم بذلك – عندئذٍ وعندما تجيء أختي السيدة الجنيّة دايو يوم الأحد، لربما تهتمّ بك، وتعلّمك كيف تتصرف. فهي أدري مني بذلك».. ثم مضت لسبيلها.

سُرَّ توم أيّما سرورٍ لمعرفته بأنّ لقاءه بالسيدة غرايمز مرّةً أخرى يُعدّ من المستحيلات، مع أنه كان إلى حدٍّ ما، يشعر بالأسى عليه، بالنظر إلى أنه اعتاد في بعض الأحيان، أن يمنحه بقايا البيرة. إلا أن توم عقد العزم على أن يكون فتىً صالحًا طوال يوم السبت، وكان كذلك بالفعل. لأنه لم يُخَفِ أيّ سلطعون ولم يدغدغ المرجانيات ولم يضع الأحجار في أفواه شقائق النعمان البحرية ليجعلهم يتوهمون بأنهم يأكلون وجبة عشائهم. وما إن حلَّ صباح الأحد حتى جاءت معه السيدة دايو كما هو متوقَّع. حيث بدأ الأطفال الصغار يرقصون ويصفقون بأيديهم. وحتى توم أخذ يرقص معهم بقدرٍ ما يستطيع.

أما بالنسبة للسيدة الجنيّة الجميلة، فلا يسعني إخباركم عن لون شعرها، ولا كيف هو لون عينيها. وما كان لتوم أن يعرف ذلك أيضًا. لأنه، وعندما ينظر إليها أيُّ كائنٍ، فإن أقصى ما

يستطيع التفكير به هو أنها تملك أجمل وألطف وأرق وأسمح وجهٍ يُمكن أن يراه المرء أو قد يرغب برؤيته.

مع أن توم لاحظ بأنها كانت امرأةً فارعةً الطول - بطول أختها - لكنها عوضًا عن أن تكون مثل أختها نكدة المزاج، حقيرةً وعنيفةً، كانت على قدرٍ كبيرٍ من اللطف والنعومة والسخاء والعدوبة. كانت أكثر المخلوقات التي تفيض جمالًا وطيبًا ممن أولوا اهتمامًا للأطفال، وقاموا برعايتهم على الإطلاق. لأنها كانت تفهم الأطفال الصغار بكل معنى الكلمة، حيث أنجبت العديد من صُلُبها، صفوفًا وأفواجًا، ولا يزال لديها حتى يومنا هذا. وكان كل ما يُبهجها ويشرح صدرها هو اللعب مع الأطفال الصغار كلما سنحت لها لحظة فراغ، حيث أثبتت أنها امرأةٌ ذكيةٌ ذات إحساس عالٍ.

فصحة الأطفال الصغار، ظريفةٌ عذبةٌ، وهي أطيب صفة يمكن أن يحظى بها المرء في العالم بأسره، وهذا ما يعتقدُهُ - على الأقل - كل الحكماء في العالم. ولهذا السبب، عندما رأى الأطفال الجنيّة الطيبة، كان أمرًا طبيعيًا أن يتشبثوا بها وأن يشدوها من ثيابها حتى تجلس على صخرة. فيبدوون بالتسلُّق إلى حجرها، والتحلُّق حول رقبتها، والإمساك بيديها. ومن ثم، يقوم جميع الصغار بحركتهم الرقيقة المعروفة، حيث يضعون إبهامهم في أفواههم، ويأخذون بالتَّضامِّ التماسًا للدفع والراحة، وبالخرخرة مثل العديد من القطط. في حين يجلس أولئك الذين لم يتمكنوا من التسلُّق إلى حجرها، على الرمل متشبثين بقدميها. حيث ما من أحدٍ كما تعلمون، يرتدي أحذيةً أسفل المياه، باستثناء العجائز ممن يخشَيْن أن يقوم صغار البحر بوخز أصابع أقدامهن الخشنة.

وقف توم هناك يحدِّق بهم بامعان، لأنه لم يفهم فحوى الأمر.

«من أنت يا عزيزي الصغير؟».. سألت السيدة الطيبة.

«هذا هو الطفل الجديد».. هتف الصغار جميعهم بعد أن سحبوا أصابع إبهامهم من أفواههم، ثم أردفوا: «وهو لم يحطَّ بأُمَّ قطّ».. وأعاد جميع الصغار إبهامهم إلى أفواههم سريعًا، لأنهم

لم يرغبوا بإهدار الوقت.

«إذن، سأكون أمّه، وسيحظى بأفضل مكان، لذا فلينزل الجميع للحظة».

ورفعت ذراعين كبيرين مليئتين بالأطفال الصغار، على إحداها تسعمئة طفل، وثلاثمئة طفل آخر تحت الأخرى. وألقت بهم في المياه يمنة ويسرة. لكنهم لم يغضبوا من تصرفها هذا كما فعل الأولاد الأشقياء في قصة صبيان المحبرة - لهاينرش هوتمان - عندما قبض القديس نيكولاس عليهم وقام بغمسهم في دواته (31).

(31) إشارة لقصة صبيان المحبرة المذكورة ضمن المجموعة القصصية لهاينرش هوتمان تحت عنوان (بيتر ذو الشعر المنكوش)، ومضمونها: يقبض نيكولاس على ثلاثة صبيان يغيظون صبيًا داكن البشرة. ليلقنهم درسًا، يغمسهم بالحبر الأسود.

حتى أنهم لم يُخرجوا أصابع إبهامهم من أفواههم، بل عادوا إليها وهم يخوضون في المياه بأقدامهم وأرجلهم ويتلوون كما يتلوّ صغار الضفادع، حتى لم يَعدْ بمقدور أحدٍ رؤية أيّ ملمحٍ من السيدة الطيبة، من رأسها إلى قدمها، سوى حشدٍ هائلٍ من الأطفال الصغار. بيّد أنها أخذت توم بين ذراعيها، ووضعتة في أنعم مكانٍ بين الأمكنة كلها. وراحت تُقبّله وتُربّث عليه، وتحدّثه بنبرةٍ خفيضةٍ ممزوجةٍ بالرّقة عن أشياء لم يسمّعها من قبل في حياته. فسرح توم في عينيها، وبدأ يتعلق بها ويحبها. حتى غلبه النعاس واستغرق في نومٍ عميقٍ في حضرة ذلك الحب الخالص.

حينما استيقظ، رآها تحكي للأطفال قصة. وأيّ قصةٍ كانت ترويها عليهم؟! كانت إحدى القصص التي حكتها لهم، والتي تبدأ في كل ليلة من ليالي عيد الميلاد المجيد ولم تنته حتى هذه اللحظة، ولن تنتهي أبدًا. كانت قصةً من الأبد وإلى أبد الأبد. وفيما راحت تواصل حكايتها، بدأ الأطفال بسحب إبهامهم من أفواههم، مصغين إليها بجديّة ولكن دون أن تبدوا على ملامحهم تعابير الأسى بالمرّة. فهي لا تقصّ عليهم قصةً تبعث على الأسى أبدًا. كان توم يُصغي أيضًا، ولم يَضُقْ ذرعا بالإصغاء إليها أبدًا. وراح يصغى لفترةٍ طويلةٍ

جداً لدرجة أنه أُخِلدَ مرةً أخرى إلى نومةٍ عميقة. وعندما استيقظ، كان ما يزال تحت رعاية السيدة.

«لا ترحلي».. قال توم الصغير. «هذا لطفٌ منك، لم أحظ من قبلُ بأحدٍ يحتضني».

«لا ترحلي».. قال الصغار جميعهم. «لم تُنشدِ لنا ولا أنشودة واحدة بعد».

«حسنًا، أمامي وقتٌ لأنشودةٍ واحدةٍ فقط. فما عساها أن تكون؟»

«الدمية التي فقدتها! الدمية التي فقدتها!».. هتف الصغار كلهم في آنٍ واحدٍ.

وهكذا، بدأت الجنيّة العجيبة تُنشد قصيدتها:

«كان لي مرةً دميةٌ يا أعزائي،

صغيرةٌ في غاية الجمال

لها وجهٌ كُندَفِ الثلجِ يا أعزائي،

ووجنتان بلَوْنِ الكرز.

ولشعرها الذهبيّ يا أعزائي،

حُصِّلَ مجعّدةٌ جذابةٌ.

لكنني فقدتُ دميتي الصغيرة يا أعزائي

وأنا ألهو في البراح؛

ناديتها.. بحثت عنها،

ولم أجد لها أثرًا.

ثم وجدتها في يومٍ من الأيام يا أعزائي،

وأنا أَلعب في المروج الواسعة

يُقال إنَّها تغيّرت كثيرًا يا أعزائي،

فالدهان اختفى من على وجهها،

والبقرات مزَّقنَ ذراعها،

ولم يَعدْ كسابق عهده شعرها،

ومع ذلك، من أجل الماضي هي لا تزال عزيزتي،

وأجمل دمية في العالم.»

يا لها من أنشودةٍ طفوليةٍ جدًّا لكي تغنيها جنيّة! ويا لبساطةِ صغار المياهِ الذين بدوا

مسرورين بها!

حسنًا، ولكن كما ترى، ما من أحدٍ منهم عادت عليه حجج العمّة أغيتت بالفائدة في عالم

البحر.

«والآن...».. توجّهت السيدة بالكلام لتوم، «هلاً بقيت ولدًا طيبًا لأجل خاطري، ولا تُعدّ

لتعذيب المزيد من المخلوقات البحرية حتى أعود؟».

«وسوف تعانقيني مرةً أخرى؟»

«بالطبع يا بطوطي الصغير. أودّ أن آخذك معي وأعانقك طوال الطريق، لكن لا يجوز لي ذلك».

ومضت الجنيّة في طريقها، وهكذا، بذلّ توم ما بوسعه - ومن كل قلبه - لكي يظل ولدًا صالحًا وألاً يعذب أيًا من مخلوقات البحر بعد ذلك طالما بقي حيًا. وإنني أجزم لكم بأن توم لا يزال على قيد الحياة حتى يومنا هذا.

أوه، كم من الأولاد الصغار ممن يملكون أمهاتٍ لطيفاتٍ يُغدقنّ عليهم حبًا ويروين لهم قصصًا، سيغدون أولادًا طيبين؟ وكم أخشى أن يكبروا ويصيروا أولادًا أشقياء، ويكونوا سببًا للدموع في عيون أمهاتهم الجميلات!

الفصل السادس

«أنت أيها الطفل الصغير

كيانٌ بهيٍ يستحيلُ تجاهلُهُ

جوهرٌ سامٌ في سماوات البراءة والحرية

لم تستدعي السنين متمنيًا

لثقلٍ عليك

بعذاباتٍ حثيثةٍ؟

لم هذا التمني

بغير تبصّرٍ أو قاعدة

لوضع أعباء ثقلها حول عنقك

من خلال الانهماك المبكر بمعاركها

بدل عيش نعمة طفولتك؟

عمًا قريبٍ سثقل الحياة كاهلك

بأعبائها الدنيوية

وعلى صدرك ستجثم العادات

بثقلها الجليدي

وعمقها الذي يضاها عمق الحياة».

وليام وردزورث

وصلنا للجزء الأشد إيلاّمًا في قصتي برُمّتِها. وأدري أن البعض سوف يسخرون من هذا الجزء وسوف يثيرون الكثير من اللغظ من لا شيء. لكنني أعرفُ شخصًا لن يسخر منها. كان ضابطًا ذا شاربين طويلين للغاية، يتخللهما الشيب. وهذا الضابط قال ذات مرة حينما كان جالسًا مع أفراد جنود سَرِيّته:

«ثمّة موقفان في العالم يدميان قلبي، ويؤثران بي حدّ البكاء أكثر من غيرهما من المواقف، موقفان سأفعل أي شيءٍ للحدّ منهما، وإيجاد حلّ مناسبٍ لهما، وهما: طفلٌ يبكي بسبب لعبةٍ مكسورة، وآخرٌ يسرق حلوى».

ما من أحدٍ من جنود سَرِيّته تجرّأ على السخرية منه. فقد كان لديه شاربان طويلان جدًّا وقد غزاها الشيب، ولكن بعد مغادرته السَرِيّة، تحدثوا فيما بينهم واعتبروه رجلًا مرهفَ العواطف، حسّاسًا... إلخ. باستثناء مجندةٍ محترمةٍ شابّةٍ من طائفة الكويكرز(32) ذات روحٍ

ناصعة البياض مثل قُبَعَتِهَا. وهذه السيدة لم تكن منحاظةً بشكلٍ عام لرأي الجنود. بل أَكَدَّتْ بهدوءٍ تامٍّ، مثل أيِّ فردٍ ينتمي لطائفة الكويكرز:

(32) ويطلق عليهم أيضًا اسم الصحابييون وهم مجموعة من المسيحيين البروتستانت نشأت في القرن السابع عشر في إنكلترا على يد جورج فوكس.

«يا رفاق. إنما هذا الرجل، إنسان شجاع حقًا وهذه فكرة لا تغرب عن بالي»

حسنًا. قد يتبادر إلى ذهنك بأن توم سيصبحُ فتىً طيبًا ما إن يحظى بكل ما يحتاجه ويتمناه. إلا أنك ستكون واهمًا إلى حدٍّ كبيرٍ. أن تعيش مرتاحًا إلى حدٍّ ما، هو أمرٌ جيدٌ جدًّا، ولكن هذا لا يجعل من الناس أفرادًا صالحين بالضرورة. وإنما في بعض الأحيان يجعل منهم أناسًا سيئين، كما حصل للناس في أميركا، ومثل شعب يَشُورُونَ في الكتاب المقدس (33) ممن تمرّدوا وثاروا على توبيخ الربِّ لهم، ولم يُقدِّروا رحمات الله ونعمه عليهم، مثل فريس أكلَ وشَبِعَ وسمَنَ وغلُظَ وامتلاً شحمًا فبدأ يرفس صاحبه الذي يرعاه. (33) سفر التثنية. تثنية 32: آية 15. يستخدم اسم يَشُورُونَ وهو اسم حُبِّي لإسرائيل، وتُترجم في السبعينية بمعنى المحبوب.

ويؤسفني القول أن هذا ما جرى مع توم الصغير. فقد غدا مولعًا بحلوى النعناع البحرية والمصاصات البحرية إلى الحد الذي لم يكن بوسع رأسه الأحمق الصغير التفكير بأي أمرٍ آخر ما عداها. كان يتحرّق شوقًا للمزيد على الدوام، ويتساءل عن موعد عودة تلك السيدة العجيبة لتمنحه بعضًا منها، وعمّا ستعطيه له وكم قطعةً ستُعطيه. وفيما لو كانت ستمنحه حلوى أكثر مما ستمنح للصغار الآخرين، ولم يفكر بشيءٍ سوى المصاصات طوال النهار، ولم يحلم بغيرها طيلة الليل. وماذا حدث بعد ذلك؟!

بدأ توم بعد ذلك بمراقبة السيدة العجيبة ليعرف أين تُخبئ قطع الحلوى. فأخذ يتوارى ويتسلّل ويلاحقها. وكان يتظاهر بأنه ينظر في الاتجاه الآخر، أو أنه يسعى خلف أمرٍ

مختلف، حتى اكتشف أنها تحتفظ بقطع الحلوى في خزانة مليئة بعرق اللآلئ الجميلة بعيدًا في شقٍ غائرٍ بداخل الصخور.

وبدأت نفسه تُوسوس له بالتوجه صوب الخزانة مع أنه كان خائفًا. وعاودته الرغبة مجددًا وكان خوفه أقل من المرة الأولى. وبعد التفكير المستمر بالحلوى في نهاية المطاف. اجتاحتته رغبةٌ شديدةٌ لدرجة أنه لم يعد خائفًا بالمرة. وفي إحدى الليالي، وبينما كان جميع الصغار الآخرين نائمين، لم يتمكن توم من النوم لتفكيره في المصاصات، فراح يتسلل فيما بين الصخور متوجّهًا صوب الخزانة. وها هي ذي! كانت الخزانة مفتوحة!

ولما رأى كل قطع الحلوى الرائعة بداخل الخزانة، ساوره خوفٌ شديدٌ عوضًا عن شعوره بالبهجة وتمنى لو أنه لم يأت إلى هنا. حينها، قرَّرَ بأن يلمسهم لمسًا خفيفًا لا غير، وقام بذلك فعلاً. ثم رغبَ بتذوق قطعة واحدة لا غير، وتذوق قطعة واحدة بالفعل. ثم طمَع بقطعةٍ أخرى ثم قطعتين اثنتين، وثلاث، وهلم جرا. وفزعَ من فكرة أن تصل السيدة وتمسك به متلبسًا بالجُرم، فراح يلتمهم دفعةً واحدةً بأقصى سرعة، حتى أنه لم يُعُد يشعر بمذاقها ولا ببهجة حلاوتها. عندئذٍ، أحسَّ بالغثيان، وكان ما يزال راغبًا بقطعةٍ أخرى وحسب، وامتدَّ الأمر لقطعةٍ أخرى، وهكذا حتى أكل الحلوى كلها.

وطوال ذلك الوقت، كانت السيدة بدايد تقف خلفه مباشرة..

قد يتساءل البعض: لكن لِمَ لَمْ تَقْمُ السيدة بقفل خزانتها وحمايتها من السرقة؟ حسنًا، أعرف. قد يبدو هذا أمرًا غريبًا إلا أنها لا تقفل خزانة الحلويات أبدًا. وبإمكان الجميع المضي وتذوق الحلويات، وأن يأكل وفقًا لذلك. إنه أمرٌ في غاية الغرابة لكن هذا ما حصل. وأنا، على يقين تامٍّ من أنها تدري ما هو الأفضل وأنها تُحسن التصرف ولربما تأمل أن يُبقي الناس أصابعهم بعيدًا عن النار، من خلال حرقها، وأن يتوبوا عن توريط أنفسهم بالمصائب، بعد الوقوع فيها.

خلعت السيدة نظارتها، لأنها لم تعد راغبةً في رؤية المزيد. وفي غمرة شعورها بالأسف وعدم الرضا، رفعت حاجبها حتى وصلا لشعر مقدّم رأسها، وغدت عيناها واسعتين لدرجة أنهما قد تُؤويا في حدقتيهما كل أحزان العالم، وفاضتا بدموعٍ غزيرةٍ، كما تجود في أغلب الأحيان. غير أنّ كل ما قالته هو:

«آه يا أيها العزيز الصغير الطيب. إنك مثل البقية تمامًا».

لكنها قالت ذلك لنفسها، وتوم لم يسمعها أو يرها البتّة.

لكن، لا يجدر بأن يذهب بك الظن إلى أنها سيدة مرهفة الإحساس على الإطلاق. وإن حدّث، وأخذت تفكّر بأنها قد تعفيك أنت أو تعفيني أنا أو أيّ بشريّ آخر في حال اقترفنا خطأ ما لكونها تملك قلبًا أطيّب مما يجب لتفكر بمعاقبتنا، فستجد نفسك مخطئًا وواهمًا للغاية، كما يتوهم أناسٌ كثيرٌ كل يوم وكل عام.

فماذا فعلت الجنيّة العجيبة عندما رأت أن توم أكل مصاصاتها بأكملها؟

هل استشاط غضبًا وهجمت على توم بعنفٍ منقضةً عليه كما ينقض الصقر على فريسته لتحمله وتبعده عن خزانة الحلويات بالضرب والوكز والجرّ والقرص. ثم تحاصره في زاوية وتوسّعهُ ضربًا وهزًا وصفعًا، بعدها تُرغمهُ على الجلوس فوق صخرة باردة ليعيد النظر فيما اقترفه وما إلى ذلك؟ كلا، على الإطلاق!

بإمكانك مراقبتها وهي تؤدّي ذلك في عملها مع الناضجين إن كنت تعلم أين تعثر عليها.

لكنك لن تراها أبدًا وهي تقوم بمثل تلك التصرفات مع الأولاد الصغار. فهي تعرف حق المعرفة بأنها لو عاملت توم بمثل تلك الطريقة، فإنه سيقاوم، ويردّ الضرب عليها، وسوف يرفض ويعض ويتفوّه بمفردات نابية! وسوف يعود في تلك اللحظة لسابق عهده: منظّف مداخن صغير شقي لا يعرف عن القيم المسيحية شيئًا. وسيُفعل ما يُفعل به.

هل استجوبته؟ هل بثّ الرعب فيه؟ هل قامت بتهديده لإجباره على الاعتراف؟ أبدًا أبدًا. وكما أخبرتك، لربما تراها تتصرّف هكذا في عملها بالقدر الكافي إن عرفت أين تبحث عنها، لكنك لن تراها تفعل ذلك أبدًا مع الصغار. لأنها لو عامَلتَهُ بهذه الطريقة، فهذا يعني أنها تدفعه للكذب من شدة الخوف، وكان من شأن ذلك أن يكون أسوأ عليه مما لو عاد مرةً أخرى كصبيٍّ صغيرٍ يعمل في تنظيف المداخل ولا يعرف من المسيحية شيئًا!

كلا! فالسيدة الجنيّة، تركت مثل هذه الأساليب للآباء والمعلّمين المضطربين - الحمقى كما يدعوهم البعض - ممن يُجبرون صغارهم على الاعتراف بأخطائهم من خلال التهيب بدلًا من محاسبتهم بطريقةٍ منصفةٍ - كما يرغبون ويرجون لأنفسهم - وتلك طريقة قاسية غير عادلة، للحدّ الذي لا يجرؤ معه أيُّ قاضٍ يتبوأ مقعد القضاء على مثل هذا التصرّف مع أشدّ اللصوص والقتلة إجرامًا وشرًّا. فالقانون البريطاني الجيد يمنع مثل تلك الأساليب، ولا حتى معاقبتهم لحملهم على الاعتراف، وهو ما يعتبر جريمةً فظيعةً لدرجة أنه ما من أحدٍ ارتكبها حتى الآن، إلا من قبل المحققين، وملوك نابولي، وبضعة أفرادٍ من معشر الاشقياء الآخرين ممن سَنِمَ العالم شرورهم.

ألم يقولوا:

«لقد أنشأنا صغيرنا على الطريق القويم كما ينبغي. فَلَمَّا كَبُرَ، حَادَ عنه. ألم يقل الحكيم سليمان إنه لن يحمّد عن الطريق؟» (34).

(34) يقتبس الكاتب قوله هنا من سفر الأمثال.. إصحاح 22 آية 6

ولكن، لا ينبغي أن يترعرع الطفل على أسلوب الضرب والتفريع والترهيب. فهذا الأسلوب لا يجوز اتّباعه حتى مع مُهرٍ إن أردتَ ترويضه، وأن تجعل منه جوادًا مطيعًا نافعًا.

وقد يقول آخرون:

«ولكن الجنيّة لن تضطر لتبّاع مثل هذه الأساليب إن كانت على درايةٍ أصلاً، بكل شاردةٍ وواردةٍ!.. وهذا صحيحٌ. ولكنها لو لم تكن على درايةٍ، فمن المؤكد أنها ما كانت لتتصرّف على نحوٍ أسوأ من قاضٍ بريطانيٍّ أو هيئةٍ محلّفين ولا حتى الآباء والمعلمين على حدّ سواء.

لذلك، لم تَقُل الجنيّة شيئاً على الإطلاق بخصوص ما فعل توم، ولا حتى عندما حضر في اليوم التالي مع بقية الصغار من أجل تَلْقِي الحلويات. مع أنّ فرائصه كانت ترتعد خوفاً من المجيء، إلا أنه كان خائفاً أكثر من عدم المجيء خشية أن يشكّ فيه أحد. وقد تعاضم خوفه أكثر من اللازم، خشية ألا يكون هناك حلوى في الخزانة – كما هو متوقّع – بعد أن التهمها كلها! ولئلا تستفسر الجنيّة عمّن قام بأكلهم!

إلا أن الجنيّة أخرجت العديد من قطع الحلوى كما كانت من قبل! مما أدهش توم، وبتّ بداخله الخوف أكثر.

وعندما أمعنت الجنيّة النظر في وجهه، أخذ يرتعد من رأسه حتى أخمص قدميه، إلا أنها أعطته حصّته مثل بقية الأطفال الصغار، فخُيّل إليه بأنها لم تتمكن من اكتشاف فعلته.

غير أنه وعندما دسّ الحلويات في فيه، كره طعمها بحيث جعله يشعر بغثيان فظيع، للحدّ الذي اضطرّ معه للهرب بأسرع ما يمكن. وطوال الأسبوع الذي تلاه، شعر توم بمرض شديد، وبشعورٍ ممزوجٍ بالحزن والسخط.

ثم، وعندما حلّ الأسبوع القادم، حصل على نصيبه مرةً أخرى من الجنيّة، ومرةً أخرى نظرت الجنيّة مباشرةً في وجهه، ولكن نظرتها صارت أكثر حزناً مما بدت عليه في أيّ وقتٍ مضى. فلم يتمكن توم من حمل الحلويات، وإنما أخذها رغماً عنه. وعندما جاءت السيدة دايو، أراد أن تحتضنه مثل البقية، لكنها قالت بكل جدية:

«أودُّ أن أعانقك لكنّي لا أستطيع، فجسدك خشنٌ ومليءٌ بالأشواك الواخزة».

فنظر توم إلى نفسه، ورأى أن كل جزء من جسده مغطى بالأشواك حتى أصبح كقنفذ البحر تمامًا.

وهذا أمرٌ طبيعيٌّ تمامًا، لأنه يجدر بك أن تؤمن، بأن ما يبني أجساد الناس هي أرواحهم، مثلما يصنع الحلزون صدفته. وأنا يا صغيري لا أمزح! إنني جادٌ في ما أقول لأبعد الحدود.

وهكذا، ما إن تغدو روح توم خشنة ذات طباعٍ يغلب عليها الشر، حتى يصير جسده خشناً مليئاً بالأشواك كذلك، لأجل ألا يعانقه أحد، أو يلعب معه، أو حتى أن يودّ النظر إليه. فما الذي يمكن لتوم أن يفعله الآن سوى أن يبتعد ويختبئ في زاويةٍ ويبكي تأسياً على حاله؟ فما من أحدٍ سيلعب معه، وهو يعرف تمام المعرفة السبب. وطوال ذلك الأسبوع، عاش توم في حالةٍ مثيرةٍ للشفقة والرثاء. حتى أنه عندما جاءت الجنية القبيحة ونظرت في وجهه مباشرةً بنظرةٍ ملؤها الغمّ والصرامة، أخبرها توم أنه لم يعد بوسعه التحمّل أكثر من ذلك، ودفع الحلوى بعيداً قائلاً:

«لا، لا أريد أيّاً منها. إنني عاجزٌ عن الشعور بطعمها»، وانفجر هذا المسكين الصغير باكياً، ثم اعترف للسيدة بدايد بكل شيء كما حدث. كان مرعوباً للغاية مما فعله، لأنه توقع منها أن تعاقبه بقسوةٍ بالغة. ولكن السيدة حملته عوضاً عن ذلك، وقبّلته، وحسب! الأمر الذي لم يكن لطيفاً تماماً، لأن ذقنها كان خشناً شائكاً في حقيقة الأمر، غير أنه كان وحيداً جداً، ورأى أن التقبيل الشائك أفضل من لا شيء.

«سأسامحك أيها الرجل الصغير، دائماً ما أسامح أي مخلوقٍ في اللحظة التي يخبرني فيها بالحقيقة من تلقاء نفسه».

«إذن، ستزيلين عني كلّ هذه الأشواك البغيضة؟»

«هذه مسألة مختلفة تماماً. أنت من زرعتها على جسدي بنفسك، وأنت الوحيد الذي يمكنه إزالتها».

«لكن كيف عساي أن أفعل هذا؟».. قال توم، الذي بدأ يبكي مجددًا.

«أعتقد أنه حان الوقت لتذهب للمدرسة. لذا سأجلب لك مديرة المدرسة التي ستعلمك كيف تتخلص من أشواكك».

وهكذا، مضت في طريقها.

فارتعب توم من فكرة وجود مديرة مدرسة. لأنه تخيّل بأنها ستأتي حاملةً معها عصا البتولا أو خيزرانية، لكنه أخيرًا واصل نفسه في أنها قد تكون فردًا شبيهًا بالمرأة العجوز في فينديل، حيث لم تكن معها عصا على الأقل.

عندما وصلت المديرة برفقة الجنية، رأى توم بأنها أجمل فتاة صغيرة شوهدت على الإطلاق، لها صفائر طويلة تسبح خلفها مثل سحابة ذهبية، وأردية طويلة تطفو حولها كأنها غيمة فضية.

«ها هو ذا».. قالت الجنية «عليك بتعليمه كيف يصير صبيًا صالحًا، شئت أم أبيت».

«أعلم».. قالت الفتاة الصغيرة. مع أنه كان باديًا عليها عدم الارتياح. فوضعت إصبعها في فمها، وحدث توم بنظرة. ووضع توم إصبعه في فمه وبادلها النظرة ذاتها، لأنه شعر بالخجل من نفسه على نحو فظيع. لكن الفتاة الصغيرة بالكاد عرفت كيف تبدأ الأمر، ولربما لم تكن لتبدأ على الإطلاق لو لم ينفجر توم المسكين بالبكاء والتوسل إليها أن تُعلّمه كيف يكون صالحًا وتساعدته على علاج الأشواك العالقة على جسده. حينها، انفطر قلب الفتاة على توم لدرجة أنها بدأت تُعلّمه ببراعة وتهذيب أكثر من أي طفلٍ تولّت تعليمه في العالم.

ماذا علّمت الفتاة الصغيرة توم؟ لقد علّمته أولاً، ما تعلّمته منذ أن تلّوت أولى صلواتك وأنت محنيٌّ عند ركبتك والدتك، غير أنّها علّمته بشكلٍ أبسط بكثير. لأن الدروس في ذلك العالم يا صغيري، لا تحوي كلماتٍ يصعب فهمها مثل الدروس في عالمنا هذا، وبالتالي فإن أطفال المياه يحبون دروسهم أكثر مما تحبها أنت. ويتطلعون إلى تعلّمها أكثر فأكثر. وأمّا البالغون

منهم، فلن يختلفوا حول معانيها ولن يقعوا في حيرةٍ من أمرها كما يحدث هنا على اليابسة. فدروسهم تأتي جليّةً بسيطةً مثل الاختبار الناتج من بركة أوفرتون، من تحت الأرض الأبدية ومن الحياة والحقيقة برمتها.

وهكذا، دأبت الفتاة على تعليم توم كل يومٍ في الأسبوع ما عدا أيام الأحد حيث تعود إلى المنزل عادةً، فتحلّ الجنّية اللطيفة مكانها والتي قبل بدئها بتعليم توم بأحدٍ عديدة، اختفت الأشواك من على جسد توم تمامًا واستحال جلده ناعمًا ونظيفًا من جديد.

«يا إلهي! لقد عرفتك الآن! إنك مُنظف المداخن نفسه الذي دخل إلى غرفتي!».. قالت الفتاة الصغيرة.

«يا إلهي! لقد عرفتك أيضًا! إنك السيدة الصغيرة ناصعة البياض التي رأيتها نائمةً في السرير.»

وقفز نحوها تواقًا لمعانقتها وتقبيّلها لكنه لم يفعل، واضعًا نصبَ عينيه أنها أنثى، لذا أخذ ينطّ وينطّ حولها ويقفز من الفرح حتى تمكّن التعب منه. ثم بدأ كلُّ منهما يُخبر الآخر بقصّته كاملة. كيف وصل هو إلى المياه وكيف سقطت هي فوق الصخور وارتطم رأسها، وكيف ترك الجدول وتوجّه صوب البحر وكيف حلّقث من نافذة غرفتها، وكيف حصل هذا الشيء وكيف حصل ذاك، وغيرها، حتى فرغوا من الحديث كله وكرروا القصة من جديد. ولا يسعني تحديد أيّ من الاثنين تحدّث أسرع من الآخر. وبعد ذلك شرعوا في العمل على دروسهم مرةً أخرى، وأحبّ كلاهما الآخر للغاية لدرجة أنهما واصلا العمل على أحسن ما يكون حتى مرّت سبع سنواتٍ كاملة.

لعلك تعتقد أن توم قضى كل تلك السنوات السبع مبتهجًا وفي غاية الرضا. لكن الحقيقة هي عكس ذلك. حيث كان ثمة أمر واحد يشغل تفكيره على الدوام، وهو: أين تذهب إيلي الصغيرة عندما تعود إلى البيت أيام الآحاد.

«إلى مكان جميل جدًا».. كما تقول.

ولكن كيف يبدو ذلك المكان الجميل؟ وأين يقع؟ هذا ما لم تستطع الفتاة البوح به. وهذا ما يثير الغرابة. ولكنها الحقيقة، بأن أحدًا لا يمكنه البوح! وأن أولئك الذين يعيشون في ظل غرابة هذه الأمكنة أو قريبين منها في معظم الوقت، لا يُفصِّحون عن مثل هذه الأمور بطريقة واضحة، ولا يساعدون الناس على فهم الأمور، ولا كيف تكون. وثمة العديد من الناس على الطرف الآخر من اللامكان – حيث ذهب توم فيما بعد – ممن يدعون معرفة مثل هذه الأمكنة من الشمال إلى الجنوب بشكلٍ جيدٍ كما لو أنهم عملوا هناك سعاةً بريديًا مقابل بنسٍ واحدٍ من المال. لكن، وبما أنهم يعيشون بمأمنٍ على الطرف الآخر من اللامكان على بعد تسعمئةٍ وتسعةٍ وتسعين مليون ميل، فإن ما يقولونه لن يعيننا بشيء.

لكن الأحبة المحبين من الناس اللطفاء الصالحين الأذكىء ممن يؤثرون على أنفسهم، الذين ذهبوا بالفعل إلى هناك، لا يمكنهم إخباركم بشيءٍ عن ذلك المكان إطلاقًا، إلا أنه أجمل مكانٍ في العالم كله، وإن سألتهم المزيد عنه، يلزمون الصمت حَجَلين، خوفًا من أن يسخر الآخرون منهم، ومعهم كل الحق في ذلك.

لذلك، فإنَّ كل ما استطاعت إيلي الصغيرة الطيبة قَوْلُهُ، هو أن ذلك المكان يعادل بقية بقاع العالم بِرُمَّتِهِ. مما جعل توم في حالةٍ من اللهفة للذهاب إليه كذلك.

«آنسة إيلي».. قال توم أخيرًا «سأعرف لماذا لا يُسمح لي بالذهاب معك أيام الأحد عندما تعودين إلى البيت. وإلا لن يهدأ لي بال، ولن أكفَّ عن سؤالك أيضًا».

«اسأل الجنِّيَّات».. أجابته الصغيرة إيلي.

لذلك، ما إن وصلت الجنِّيَّة السيدة بدايِّد، حتى سألتها توم:

«الأولاد الصغار ممن لا يصلح لهم إلا اللعب مع المخلوقات البحرية، لا يمكنهم الذهاب إلى هناك. أولئك الذين يذهبون إلى ذلك المكان ينبغي عليهم أن يذهبوا أولًا إلى أماكن لا

يرغبون بالذهاب إليها، وأن يؤديوا مهامًا لا تُعجبهم. أن يساعدوا شخصًا يكرهونه».. أجابت الجنيّة.

«عجبًا! وهل فعلت إيلي كل ذلك؟»

«اسألها».. قالت الجنيّة.

فاحمرّت إيلي الصغيرة خجلًا، وقالت:

«نعم يا توم، لم أرغب بالمجيء إلى هنا بادئ الأمر. كنتُ أسعدُ بكثيرٍ في مكاني. وكنتُ في البداية، خائفةً منك يا توم، لأنك... لأنك...».

«لأن جسدي كان مليئًا بالأشواك؟ لكنني لم أعد كذلك الآن، أهذا صحيحٌ يا آنسة إيلي؟!»

«لا.. إنك تروقني الآن أكثر. وكذلك يروقني المجيء إلى هذا المكان».. أجابت إيلي الصغيرة.

«ولربما، تتعلّم كيف تحب الذهاب للأماكن التي لا تروقك، وتقديم يد العون لشخصٍ لا يروقك، كما فعلتُ إيلي».. جاء ردُّ الجنيّة.

إلا أنّ توم وضع إصبعه في فمه، ومال برأسه جانبًا لأنه لم يُصدّق ذلك على الإطلاق. لذلك، عندما جاءت السيدة دايو، سألتها توم عن المكان الذي تذهب إليه إيلي مرةً أخرى، لأنه اعتقد بعقله الصغير أنها ليست سيّدة صارمةً مثل أختها، ولعلها تسمح له بالذهاب، بسهولة أكبر. آه يا توم، آه أيها الصغير الساذج! مع ذلك لا أدري لِمَ عليّ أن ألومك، بينما هناك الكثير من الأناس البالغين ممن زرّعوا نفس الاعتقاد في عقولهم. إلا أنهم عندما يجربون السؤال مرةً أخرى، يحصلون على نفس الإجابة التي حصل عليها توم حينما سأل الجنيّة الثانية، حيث أجابته كجواب الأولى وبنفس الكلمات. لذا، اغتمّ توم بسبب ذلك.

وعندما عادت إيلي إلى موطنها يوم الأحد، ثار غضبه وراح يصرخ ويبيكي طوال اليوم، ولم يكثرث بالإصغاء لقصص الجنية عن الأطفال الطيبين، مع أن القصص كانت أجمل من سابقاتها. وفي الواقع، كلما استمع توم إليها، كلما قلَّ شغفه بما تروييه، لأن القصص كلها تدور حول مجرد أطفال يفعلون ما لا يحبونه، ويتكبدون العناء في سبيل الآخرين، ويكدون في العمل من أجل إطعام إخوتهم وأخواتهم الصغار عوضاً عن الانغماس باللعب وحسب.

وعندما بدأت تروي قصةً عن طفلٍ مقدسٍ من العصور العتيقة، استشهد على يد الوثنيين لأنه لم يكن يعبد الأصنام، لم يستطع توم تحمُّل المزيد، فهرب واختبأ بين الصخور. ولما عادت إيلي شعر توم بالخجل منها، فقد خيَّل له أنها نظرت إليه بازدراء، واعتبرته جباناً. ثم بدأ شعورٌ بالغضب منها، يتمكن منه، لأنها كانت متفوقه عليه. ولأنها فعلت ما لم يستطع توم فعله. بينما فوجئت إيلي المسكينة تماماً من تصرف توم، وحزنت. وفي النهاية انفجر توم باكياً بيِّد أنه لم يخبرها بما يدور في خاطره.

وطوال ذلك الوقت، كان الفضول يتملّكه ليعرف المكان الذي تقصده إيلي بحيث بدأ لا يأبه برفقائه في اللعب ولا بالأماكن البحرية ولا بأيّ شيءٍ آخر. ولعل هذا ما جعل الأمور أسهل بالنسبة له، لأنه بات مستاءً من كل شيءٍ حوله لدرجة أنه لم يعد أبهاً بالبقاء، وغير مكترث لوجهته التالية.

«حسنًا...».. تحدّث في النهاية «إنني مغتمٌ للغاية هنا، سأرحل لو رافقتني؟!»

«ليتني أستطيع، لكن أسوأ ما في الأمر هو أن الجنية تقول: يجب أن ترحل بمفردك إن قررت الرحيل بالفعل. لا تلكز ذلك السلطعون المسكين يا توم!».. قالت الصغيرة إيلي، لأن توم أخذ يتصرف بسوءٍ وخبثٍ بالعين. ثم أردفت «وإلا ستضطر الجنية لمعاقتك».

وكان توم على وشك أن يقول:

«لستُ أبهاً إن عاقبتني».

إلا أنه أمسك لسانه في الوقت المناسب.

«أعرف ما تريد مني فعله».. قال توم، وهو ينتحب بحزنٍ شديدٍ. «إنها تريدني أن أبحث عن ذلك العجوز البشع غرايمز، إنني أكرهه كرهًا شديدًا. إن عثرث عليه، سوف يعيدني إلى العمل في تنظيف المداخن مجددًا وأجزم بذلك. هذا ما كنتُ أخشاه طوال الوقت».

«كلا. لن يفعل ذلك! أعرف ذلك كما أعرفك. فما من أحدٍ يمكنه تحويل صغار المياه إلى منظّفي مداخن وما من أحدٍ يمكنه إيذاؤهم على الإطلاق، ما داموا قد تحلّوا بالصلاح والطيبة».

«أها..».. أجاب توم الشقي. «فهمتُ ما تريدنّه. كنتِ تستدرجينني طوال هذا الوقت وتحثّينني على الرحيل، لأنك سئمتِ من رفقتي، وتريدين التخلص مني!».

فاتسعتُ عينا إيلي للغاية، مذهولةٌ مما قاله توم، ثم بدأت تذرّف الدموع.

«أوه يا توم! أوه يا توم!».. قالت إيلي بنبرةٍ يشوبها حزنٌ بليغٌ. ثم راحت تصرخ: «أوه يا توم! أين أنت؟»

«إيلي؟ أين أنتِ يا إيلي؟» أجاب توم وهو يصيح.

وهكذا، لم يستطع أيًا منهما رؤية الآخر بعد ذلك. حيث اختفت إيلي الصغيرة، وبقي توم يسمع صوتها تُناديه، صوتها الذي أخذ يبتعدُ شيئًا فشيئًا حتى تلاشى تمامًا وخيّم الصمت.

من ظلّ في حالة خوفٍ حينها سوى توم؟ الذي أخذ يسبح صعودًا ونزولًا بين الصخور والشقوق والجحور كلها أسرع من أيّ وقتٍ مضى عليه من قبل بحثًا عن إيلي، دون أن يتمكن من العثور عليها. نادى عليها لكنها لم تردّ. سأل كلّ الصغار الآخرين، لكنهم لم يروها. وفي النهاية صعد إلى سطح المياه، وبدأ بالبكاء والنداء على السيدة بدايد - ولعل ذلك كان أفضل ما يفعله - لأنها لبث النداء وجاءته خلال لحظات.

«أوه يا إلهي! لقد عاملتُ إيلي بقسوةٍ وقتلتُها - أعلم أنني قتلتها!».. قال توم.

«ليس تمامًا. بل أرسلتها إلى الوطن، ولن تعود مرةً أخرى لفترةٍ أجهل مدَّتها».. قالت الجنيّة.

عندئذٍ، بكى توم بمرارةٍ لدرجة أن البحر المالح قد تماوَجَ وارتفع مع دموعه، حيث كان المدُّ أعلى بـ 3.954.620.819 بوصة مما كان عليه في اليوم السابق. ولكن، لعل سبب حدوث ذلك هو ظاهرة القمر المتزايد(35). ولكن في الفلسفة الجديدة - كما تعلمون - يُعتبر من الصواب إعطاء أسباب روحية للظواهر المادية لا سيّما على طاولات غرف الاستقبال الداخلية(36). وإعطاء أسبابٍ ماديةٍ للظواهر الروحية بالطبع، مثل التفكير، والصلاة، ومعرفة الصواب من الخطأ. وهكذا، فإنهم يستغربون حدوث الأمور الغرائبية حتى تحدث بالفعل كما يقول الناس في بيركشاير.

(35) 35 أو كما يُعرف بالشهر القمري lunar cycle ويساوي 29.5 يوم. خلالها يصبح القمر أكثر إشراقًا أو أكثر خفوتًا اعتمادًا على موقعه مع الشمس والأرض. عندما يكون القمر بين الأرض والشمس يكون الوجه المقابل للشمس مضيئًا بالكامل والوجه المقابل للأرض يكون مظلمًا.

(36) في أوروبا المسيحية في العصور الوسطى، كانت «الردهة الخارجية» هي الغرفة التي يقوم فيها الرهبان أو الراهبات بأعمال تجارية مع أولئك الموجودين خارج الدير وكانت «الردهة الداخلية» تستخدم لإجراء المحادثات الضرورية بين الأعضاء المقيمين.

«كم أنت قاسية القلب لثرسلي إيلي بعيدًا عن هنا!».. ردَّ توم وهو يجهد بالبكاء، «على أيِّ حال، سأجدها ثانيةً، ولو اضطررتي العثور عليها، للذهاب إلى نهاية العالم».

لم تصفع الجنية توم، ولم تأمره بأن يضبط لسانه، وإنما أخذته لحضنها بلطفٍ بالغٍ، كما كانت شقيقتها لتفعل. وذكرته كيف أن رحيل إيلي لم يكن ذنبها. ولكن لأنها شعرت بالأسى

من صميم قلبها، انتهى عملها هنا، مثلها مثل الساعات، ولا يسعها فُعلٌ شيءٍ سواء أعجبها الأمر أم لا. ثم أخبرته كيف أنه مكث في مكان رعاية الأطفال هذا مدةً طويلةً، وأنه لا بد أن ينطلق الآن ليرى العالم إن كان ينوي أن يُصبح رجلاً. وكيف أنه يتوجب عليه المُضي بمفرده كما مضى أيُّ فردٍ آخر بالفطرة من قبل، وأن يرى بأُمَّ عينيه ويشمُّ بأنفه، وأن يُرتب سريرَه بنفسه وينام عليه، وأن يُحرق أصابعه إن قرر اللعب بالنارا! ثم أخبرته عن عدد الأمور الجميلة التي يمكنه رؤيتها في العالم، وعن مدى غرابة هذا النوع من الأمكنة، وطرافتها وسحرها وجلالها وتناسقها ونجاحها بصفةٍ عامة - كما هو متوقَّعٌ في حقيقة الأمر - لو أن من يعيشون فيه من البشر يتحلَّون بالشجاعة والصدق والخير على قدر المستطاع. ثم طلبت منه ألا يخشى من أيِّ شيءٍ يصادفه، لأنه ما من شيءٍ سيؤذيه إن وُضِعَ نُصَبَ عينيه كل الدروس التي تعلَّمها والعِبَر، وأن يفعل الصواب ما دام متأكِّدًا منه. حتى صبرته في النهاية، وبثت في الصغير روح الشجاعة لدرجة أنه غدا تَوَاقًا للذهاب، وأراد أن ينطلق في تلك اللحظة.

«ليتني أستطيع رؤية إيلي مرةً واحدةً فحسب، قبل أن أنطلق!».. قال توم.

«ولمَ ترغبُ بذلك؟».. سألته الجنيَّة.

«لأنني.. لأنني سامضي في رحلتي برضا أعظم لو علَّمتُ بأنها سامحتني».

وفي غمضة عين، ظهرت إيلي، ووقفت وهي تبتسم، وبدت في غاية البهجة لدرجة أن الرغبة حَدَّت بتوم لتقبيلها، لكنه ما يزال خائفًا من أن يظلَّ تصرُّفه هذا غير لائقٍ، لأنها كانت أنثى.

«إنني ذاهبٌ يا إيلي..».. قال توم. «إنني ذاهبٌ، ولو كان لنهاية العالم. مع إنني أبغضُ فكرة الذهاب برُمَّتِها، وهذه هي الحقيقة».

«أوووف! ستحب ذلك في الحقيقة، أيها المخادع الصغير، وسوف يعجبك الأمر كثيرًا وأنت تعرف ذلك في أعماق قلبك. وإن لم يرقُ لك، سأجعلك تحبّه. تعال هنا، وانظر ماذا يحدث للناس ممن يفعلون فقط ما يحبّونه» .. قالت السيدة.

وأخرجت من إحدى خزائنها - حيث كانت تملك شتى أنواع الخزائن الغامضة بين شقوق الصخور - أجمل كتابٍ سميكٍ عن سدود المياه، ممتلئٍ بصورٍ لم يرها مخلوقٌ من قبل.

لأن الجنيّة كانت قد عثرت على صورٍ قبل أكثر من 13,598,000 سنةٍ، حتى قبل ولادة أيِّ مخلوقٍ على وجه البسيطة - وهذه حقيقةٌ واقعةٌ - والأهم من ذلك أن صورهِ لم تُصوّر الضوء والظلال فحسب، كما هي صورنا، بل اللون أيضًا. الألوان كلها، كما قد ترون إن ألقيتُم نظرةً على ذيل الديك الأسود، أو جناح فراشة، أو معظم الأشياء الموجودة في الواقع أو تلك التي يمكن أن توجد، إن جازَ القول.

لذلك كانت صورُها غريبةً للغاية، فأبدى الأطفال بهجةً عظيمةً لفتح الكتاب. حيث كُتِبَ على صفحة العنوان، «تاريخ الأمة العظيمة المعروفة بـ: من يفعلون ما يحلو لهم». فشعب هذي الأمة العظيمة، تركوا بلاد الأعمال الشاقة وخرجوا منها، لأنهم أرادوا العزف على القيثارة اليهودي (37) طوال اليوم. في الصورة الأولى شاهد هؤلاء «من يفعلون ما يحلو لهم» يعيشون في بلاد الأشياء جاهزة الصنع، عند سفح جبال السعداء المحظوظين حيث يدور الكلام الفارغ ويستفحل حتى يصير متطرفًا، وإن كنتَ راغبًا بمعرفة معنى ذلك، عليك بقراءة رواية بيتر السانج لفريدريك ماريات.

(37) القيثارة اليهودي: آلة موسيقية تُستخدم أساسًا في الموسيقى الشعبية، ويستخدمها الأطفال أيضًا. تتكوّن من مزمار معدني مرّن على طرف واحد من الإطار المعدني المقوس. والطرف الثاني مستدقّ منحني إلى الأمام على زوايا قائمة.

حيث عاش هؤلاء حياةً شبيهةً بحياة أولئك اليونانيين المسنين في صقلية الذين قد تراهم مرسومين على المزهريات القديمة، وكان واضحًا أنهم يتذرّعون بأعذار عظيمة لهم، حيث

ما من حاجةٍ لأحدٍ منهم تدفعُهُ للعمل.

فأَتَّخَذُوا من كهوف توبا الجميلة مأوىً لهم بدلاً من العيش في المنازل. وكانوا يستحمّون بمياه الينابيع الدافئة ثلاث مرات يومياً. أمّا فيما يتعلّق بالملابس، فقد كان الجو دافئاً جداً هناك لدرجة أن الرجال يتجولون قليلاً وهم يعتمرون قبّعات ذات حافةٍ مطويةٍ لأعلى مزودةٍ بزوجٍ من الأربطة، وبعض الملابس الصيفية الخفيفة الخاصة. بينما يتجمّع السيدات كلهنّ في الخريف - حينما يشعُرْنَ ببعض النشاط والخِفّة - ليصنَعْنَ فساتين الشتاء.

كانوا مغرمين بالموسيقى لأبعد الحدود، إلا أن تعلّم البيانو أو الكمان بدا أمراً شاقّاً عليهم؛ أمّا بالنسبة للرقص، فكان يُكَبِّدُهُم جهداً كبيراً للغاية. لذا، اعتادوا الجلوس على تلال النمل طوال اليوم، والعزف على القيثارة اليهودي. وإن عضّتهم نملة، فإن كل ما يفعلونه هو النهوض والانتقال إلى التلّة المجاورة، حتى يعضّهم النمل هناك بالمثل.

كانوا يجلسون تحت سدّل الأشجار ويتبادلون فيما بينهم كلاماً فارغاً في ظلّ كروم العنب وهم يعصرون عصير العنب في حلوقهم. وإن ظهر أيّ خنزيرٍ صغيرٍ محمّص جاهز يعدو أمامهم كأنه ينادي على كل فردٍ منهم: «تعال وكُلّني!»، فإنهم ينتظرون أن تجد الخنازير أفواههم ليأخذوا منها قضمَةً واحدةً كما يفعل المَحَار، ويُسْبِعُوا رغبتهم كما جرت عادتهم! لم يكونوا بحاجةٍ إلى أسلحة، لأنه لم يسبق لأيّ عدوٍ أن اقتربَ من أرضهم. ولم يحتاجوا لأدوات، لأن كل شيء كان جاهزاً في متناول أيديهم، ولم تقترب منهم جنيّة «الواجب» الصارمة العجوز للإمساك بهم وإرغامهم إمّا على أعمال عقولهم أو الموت. وهلمّ جرا على هذا المنوال، حتى لم يعد هناك أناس يعيشون بمثل الرغد الذي يعيشونه، ولا بمثل سعادتهم أو راحة بالهم في العالم بأكمله.

«حسنًا، يا لها من حياةٍ بهيجة».. قال توم.

«أتظنّ ذلك؟».. أجابت الجنيّة، «هل ترى ذلك الجبل العظيم الذي يبلغ قمته هناك في الخلف والدخان يصّاعد من قمته؟»

«بلى».. أجاب توم.

«وهل ترى كل ذلك الرماد، وخبثَ البراكين والجمر المتناثر حوله؟»

«نعم».. ردَّ توم.

«إذن، اقلب الصفحات لخمسة سنةٍ قادمةٍ وسترى ما حدث بعد ذلك.»

أطاع توم وقلَّب الصفحات، فرأى الجبل قد انفجر كأنه برميلٌ من البارود، ثم راح يغلي ويغلي مثلما يغلي الماء في الغلاية. ورأى أن ثلثَ هؤلاء آل «الكسالى»، طاروا في الهواء من شدة العصف، وقد اختنق الثلث الآخر من الرماد بحيث لم يتبقَّ منهم سوى الثلث.

«وكما ترى، هذه نتيجة العيش فوق جبلٍ متَّقِدٍ».. علَّقَت الجنيَّة.

«أوه! ولكن لِمَ لم تقومي بتحذيرهم!».. سألت إيلي الصغيرة.

«لقد فعلتُ كل ما بوسعي لتحذيرهم. جعلتُ الدخان يصاعد من الجبل، وحيثما يوجد دخانٌ توجَدُ نار. وثرثُ الرماد والجمر في كل مكانٍ، وأينما ينتشر الرماد والجمر قد يظهر وينتشر مرةً أخرى. لكنهم يا أعزائي، لم يرغبوا بمواجهة الحقيقة كما يفعل قلةٌ قليلةٌ من الناس. وهكذا اختلقوا قصةً سخيفةً مفبركةً، والتي مما لا شك فيه، لم أقصّها عليهم أبدًا، ومفادها: أن الدخان هو أنفاس مخلوقٍ عملاقٍ دفنته بعض الآلهة أو قوَى أخرى، أسفل الجبل. وأن الرماد والجمر ليس سوى ما يشويه الأقرام من الخنازير الصغيرة، وثرهات أخرى من هذا القبيل. وعندما يكون الناس بمثل هذا المستوى المثير للسخرية من التفكير، فلن أتمكن من إعادتهم لرشدهم وتوجيههم، اللهم إلا إذا استخدمتُ عصا البتولا القديمة خاصتي.»

ثم قلبت صفحات الكتاب على مدار السنوات الخمسة التالية، حيث ظلَّ ما تبقى منهم هناك وهم «يفعلون ما يحلو لهم كسابق عهدهم». بل أمسوا في غاية الكسل، ليبتعدوا عن

الجبل المتقد فقالوا:

«بما أنّ الجبل قد ثار مرةً، فهذا سببٌ يعزّز عدم انفجاره مرةً أخرى!»

كانوا ثلّةً قليلين، وكل ما قالوه: «كلما قلّ عددنا، كلما صارت بهجتنا أعظم وفاض المزيد من الطعام». غير أن ذلك لم يكن صحيحًا تمامًا، لأن البركان نسفَ معه كل الأشجار ولم يتبقّ منها شيئًا. وقد أكلوا الخنازير المشويّة كلها، وبالتالي لم تتبقّ خنازير لنتوقّع منها إنجاب المزيد من الخنازير الصغار. وهكذا، تحوّل رغد عيشهم إلى شقاء، وراحوا يأكلون الجوز والجذور التي يقتلعونها من الثراب ممزوجةً بالعصي. تحدّث بعضهم عن زراعة الذرة، كما كان أسلافهم يفعلون، قبل مجيئهم إلى بلاد الأشياء جاهزة الصنع. ولكنهم نسوا كيفية صنع المحاريت! بل نسوا حتى كيفية صنع قيثارات اليهود في ذلك الوقت. وكانوا قد أكلوا كل بذور الذرة التي جلبوها معهم من بلاد الأعمال الشاقّة منذ سنوات خلّت؛ وبطبيعة الحال كان من الصعوبة بمكان أن يغادروا للبحث عن المزيد منها. وهكذا، عاشوا حياةً بائسةً على الجذور والجوز، وبالتالي، انتفخت معدة كل الصغار من ذوي البنية الجسدية الضعيفة، ومن ثم ماتوا.

«يا إلهي! لم يكن حالهم بأفضل من حال البدائيين المتوحّشين!».. علّق توم.

«وانظر كيف أضحى كل فردٍ منهم قبيحًا!».. قالت إيلي.

«نعم، عندما يعيش الناس على الخضروات الرديئة بدلًا من لحم البقر المشوي وحلوى البرقوق، فإن فكوكهم تصير ضخمة وتصبح شفاههم غليظة، مثل الفقراء الذين يعتاشون على البطاطس فقط.»

وقلبت الصفحات على الخمسمئة سنة التي تلتها. وهناك رأوا جميع آل «الكسل» بدؤوا يعيشون فوق الأشجار حيث بنوا مساكنهم لتجنّب الأمطار. وأسفل الأشجار كان ثمة أسودٌ تطوف حولهم.

«ياللهول! يبدو وكأن الأسود التهمت الكثير منهم، لأنه لم يبق سوى القليل في هذه اللوحة».. قالت إيلي.

«بلى.. فقط أقواهم وأوفرهم نشاطًا، استطاع تسلُّق الأشجار والهروب، مثلما ترون».. جاء رد الجنِّيَّة.

«ولكن يا لهم من شبان أقوياء ضخام بمنكبين عريضين! إن في مظهرهم خشونة لم أرها من قبل!»

«نعم، ازدادوا قوةً بمرور الوقت، كون السيدات لم يرضين بالزواج إلا من أقواهم وأشرسهم ممن يُمكنه أن يُساعدهن على تسلُّق الأشجار هربًا من الأسود».. أجابت الجنِّيَّة.

ثم قلبت صفحات الكتاب على الخمسة سنة أخرى. حيث لم يتبق منهم سوى عددٍ قليلٍ: الأقوى والأشرس. ولكن شكل أقدامهم تغيَّر على نحوٍ مريبٍ، لأنهم كانوا يجاهدون لإمساك فروع الأغصان بالإصبع الكبير لأقدامهم كما لو كان إبهامًا، تمامًا كما يستخدم خياطٌ هندوسِيٌّ أصابع قدميه ليولج الخيط في سُم الخياط.

فبدت الدهشة واضحةً على ملامح الطفلين، وسألا الجنِّيَّة عما إذا كان ذلك من فعلٍ يديها.

«نعم ولا!».. قالت الجنِّيَّة مبتسمةً. «فأولئك الذين يعملون بأقدامهم وأيديهم هم وحدهم القادرون على الحصول على حياةٍ رغيدةٍ. أو بالأحرى: الزواج. حتى يتمكنوا من الحصول على الأفضل من كل شيء، وبالتالي الفرصة الأمثل، واضطهاد البقية. أما البقية، فتبقى سلالتهن عادية، من البشر ذوي الأصابع المُتَعَجِّرة الشبيهة بإصبع القدم الكبير، كما استمرت سلالتهن الماشية ذات القرون القصيرة، أو كلبٌ من سلالة السكاي تزيّر، أو حَمَام الزينة».

«ولكن ثمة شخص بينهم مُشعرٌ للغاية».. علَّقت إيلي.

«أها، وهذا في زمنه يعتبرونه رجلاً مرغوباً وعظيماً، وزعيماً للقبيلة كلها».. أو وَصَحَتْ الجنيّة.

وحيثما قلبت الصفحات على الخمسمئة سنة التالية، اتَّصَحَ معنى قولها أكثر.

«لأن هذا الزعيم المُشْعِر أنجب أطفالاً مشعرين. وبدأت الرغبة تحدو كل امرأة بالحصول على أزواج مُشعرين وإنجاب أطفالٍ مُشعرين كذلك. لأنَّ الجو بدأ يستحيل رطباً خانقاً، لدرجة أن المُشعرين وحدهم من صمدوا في وجه تلك الظروف وتمكَّنوا من العيش والبقاء. وأما الآخرون غيرهم فكانوا يسعلون ويعطسون، وبدأت معاناتهم من التهاب الحنجرة تظهر، إلى أن دخلوا في حالة من الهزال التدريجي، وقبل أن يكبروا ليصبحوا رجالاً ونساءً، يقضون نحبهم».

ثم تحولت الجنية على مدى السنوات الخمسمئة التالية. وفي تلك الفترة تناقص عددهم أكثر من ذي قبل.

«عجباً. أحدهم على الأرض وهو يقتلع الجذور، وهو لا يستطيع المشي باستقامة!».. صاحت إيلي.

لم يعد باستطاعته المشي بشكلٍ سليم، لأنه وبنفس الطريقة التي تغيرت بها أشكال أقدامهم، تغير شكل ظهورهم أيضاً.

«يا للهول!».. صاح توم. «أجزمُ بأنهم أصبحوا قِرْدَة».

«شيء من هذا القبيل، يا لهذه المخلوقات الحمقاء المسكينة، لقد أصبحوا أغبياء إلى الحد الذي يجعلهم عاجزين عن التفكير: ذلك أن أيًّا منهم لم يستغلَّ ذكائه لمئات السنين. وكادوا أن ينسوا أيضاً كيف يتحدثون. حيث نسي كل صغيرٍ مغفلٍ منهم، معظم الكلمات التي سمعها من والديه الأحمقين، وأحدهم لم يكن على قدرٍ كافٍ من سرعة البديهة لتكوين مفردات جديدة بنفسه. إلى جانب ذلك، ترعرعوا شرسيين مرتابين تغلبت على طباعهم

القسوة والوحشية لدرجة أنهم كانوا يبقون بعبيدين عن طريق بعضهم، فغرق كل واحد منهم في تفكير غريب يتسكعون كمن لا يعرف وجهة له، ويختلي كل واحد منهم في الغابات المعتمة دون أن يسمع بعضهم صوت الآخر، حتى نسوا تقريبًا كيف يكون الكلام. وأخشى أنهم عمًا قريب، سيتحولون لقردة تمامًا وكل ذلك بسبب أنهم: فعلوا ما يروق لهم فقط».

وبعد خمسمئة سنة أخرى، صار الجميع في عداد الموتى، من أثر الغذاء السيئ أو على يد الصيادين أو المخلوقات البرية. جميعهم باستثناء غوريلا واحد طاعن في السن، ضخم بفكين كأنهما رافعة، حيث بلغت قامته سبعة أقدام حتى اكتشفه عالم الحيوانات بيلوني دو شايو وقام بإطلاق النار عليه بينما كان واقفًا يزار ويدق على صدره. ثم تذكر أن أسلافه كانوا ذات مرة بشرًا لذلك حاول أن يتحدث مع دو شايو - من باب العتب - ليقول له: «ألم أكن صديقًا وأخًا؟!». لكنه نسي كيف يتحدث، ثم حاول التواصل مع العالم دو شايو غير أنه لم يعرف الكلمة التي تصف ذلك. لذا فإن كل ما قاله كان «أوبوبووو!»، ومات.

وتلك كانت نهاية عظمة الأمة المبتهجة لال (الكسالى) أو (من يفعلون ما يحلو لهم). وعندما وصل توم وإيلي إلى نهاية الكتاب، بدا عليهما حزن شديد ورهبة. وكان لحزنهما سبب وجيه، فقد تخيلا أن البشر ينحدرون من القرده بالفعل، ولم يخطر على بالهما أبدًا - لبساطة تفكيرهما - السؤال عمًا إذا كانت هذه المخلوقات تملك الحُصين الكبير في أدمغتهم أم لا. وبهذه الحالة، يستحيل أن يكونوا قردهً كما أخبرتك سابقًا، مع أن البشر، قلدوا القرده أكثر من القرده كلها.

«ولكن ألم يكن بمقدورك منعهم من أن يصيروا كالقرده؟» .. سألت إيلي في نهاية المطاف.

«في بادئ الأمر يا عزيزتي، لو أنهم تصرفوا كالbشر، وشرعوا بالعمل في مجالات يبغضون العمل فيها، لمنعتُ حدوث ذلك. إلا أنهم كلما طال انتظارهم، وراحوا يسلكون سلوك الوحوش الغبية ممن يفعلون ما يحلو لهم فقط، كلما أصبحوا أشد غباءً وتخلُّفًا حتى صار أمرهم ميؤوسًا منه في نهاية المطاف لكونهم استغنوا عن قدراتهم وذكاء عقولهم. إنها

أسبابٌ مثل هذه التي لها يدٌ في إبقائي قبيحةً لدرجة أنني لا أعرف متى سأصير جميلة الملامح».

«وأين هم جميعًا الآن؟».. طرحت إيلي السؤال،

«حيث ينبغي أن يكونوا بالضبط يا عزيزتي».. ثم أضافت الجنيّة بمهابة كما لو أنها تُحدّث نفسها، وهي تغلق ذلك الكتاب الساحر:

«بمرور الوقت، تناقل الناس أخبارًا من قبيل إنني أملك القدرة على تحويل الحيوانات إلى بشر بفعل الظروف، الانتخاب، والمنافسة وما إلى ذلك. حسنًا، ربما كانوا على حق، ولعلمهم مخطئون أيضًا. ويبقى هذا أمرًا من أصل سبعة من الأمور التي مُنعت من الحديث عنها حتى مجيء كوكتسيغرو. وفي جميع الأحوال، فإنها ليست من شأنهم.

وأيا كان أسلافهم، فإن البشري يظل بشريًا. لذلك، أنصح البشر بأن يسلكوا سلوك البشر وأن يتصرّفوا وفقًا لذلك. ولكن فليتذكّروا أن لكل مسألة وجهين وأحدهما يؤدي إلى الآخر. فإن ملكت القدرة لأن أصيّر الحيوانات بشرًا، فهذا يعني أنني قادرةٌ على تحويل البشر إلى حيوانات بنفس قوانين الظروف والانتقاء والمنافسة. كنت يا صغيري توم، على وشك أن تتحوّل إلى حيوان مرّةً أو مرتين في الواقع، لو لم تكن قد عزمّت أمرك على خوض هذه الرحلة ورؤية العالم كأبي صبيّ إنكليزيّ، لست واثقةٌ ولكن لو مكثت في ذلك الجدول، لكان قد انتهى بك المطاف لأن تصير سمندل مياه!».

«يا إلهي!».. علّق توم. «وأملًا الوحل بأكمله بسماذل ماء صغار عاجلاً؟! سأنطلق هذه اللحظة وإن تطلّب مني الأمر الذهاب حتى نهاية العالم».

الفصل السابع

«وأخذت الطبيعة

– راعيتنا الأزليّة –

الصغيرَ في أحضانها

وضعتهُ على ركبتهِ قائلةً:

هذا كتابٌ قصصيّ

كتبهُ والدك من أجلك.

وقالت أيضًا:

تعالَ معي في جولةٍ

لبقاعٍ لم تطأها قدمٌ بعد

لتقرأ ما لم يُقرأ بعد

في مصاحف الربِّ.

وراح يهيم بعيدًا ويرتحل،

برفقة راعيتنا الأزليّة

وكانت تُغني له ليلَ نهار

بكل ترانيم الكون»

لونغفيلو.

«والآن..».. قال توم. «إنني مستعدٌ للانطلاق، ولو كلفني الأمر الرحيل حتى نهاية الكون».

«إنك فتىٌ طيبٌ شجاعٌ. لكن يتعيّن عليك الذهاب لأبعد من نهاية العالم فيما لو أردت العثور على السيد غرايمز. لأنه موجودٌ عند الطرف الآخر من اللامكان. يجب أن تتوجّه إلى السور اللامع ثم الولوج عبر البوابة البيضاء التي لم تُفتح مسبقًا. عندئذٍ، ستصل إلى مَعين السلام الذي يَحُدّه فردوس الأم كاري حيث تذهب الحيتان الصالحة عندما تموت. وهناك، ستدُلُّك الأم كاري على الطريق إلى الطرف الآخر من اللامكان حيث ستعثر على السيد غرايمز».

«يا إلهي! لكني أجهل الطريق الذي يقودني إلى السور اللامع، ولا أعرف أين يقع أصلًا».

«على الأولاد الصغار أن يُكلّفوا أنفسهم عناء اكتشاف الأمور بمفردهم، وإلا فإنهم لن يكبروا أبدًا ليصبحوا رجالًا. لذلك، عليك بسؤال كل المخلوقات في البحر وكل الطيور في الهواء، وإن أحسنت معاملتهم، سوف يَدُلُّك بعضهم على الطريق إلى السور اللامع».

«حسنًا.. ستكون رحلةٌ طويلةٌ. لذا من الأفضل أن أنطلق حاليًا. وداعًا يا آنسة إيلي. أصبحت صبيًا كبيرًا وينبغي أن أخرج وأكتشف العالم». قال توم

«أعلم ذلك يا توم. لكن لا تنسني. سأنتظرك هنا حتى تعود».. أجابت إيلي.

فصافحته وودّعته. إلا أن توم كان يتحرّق شوقًا لأن يُقبّلها من جديد، لكن ذلك لن يكون تصرفًا لائقًا منه على اعتبار أنها أنثى. وهكذا، وعدَ بالآ ينساها. غير أن دوامة عقله الصغير كانت مشغولةً بفكرة الخروج لرؤية العالم واستكشافه، لدرجة أنه نسي إيلي في غضون خمس دقائق. لكن، مع أنها غابت عن عقله، يسرّني إخباركم: أنّ قلبه لم ينسها.

وهكذا، بدأ توم بسؤال كل المخلوقات البحرية، وجميع الطيور في السماء، ولكنَّ أحدًا منهم لم يعرف الطريق المؤدِّي إلى السور اللامع. ولماذا؟ لأنه كان لا يزال بعيدًا عن الجنوب. ثم تقاطع طريقه مع سفينة كبيرة جدًا. أكبر من أي سفينة رآها سابقًا. كانت باخرة عالية تمخر عباب البحر عبر المحيط مُخَلَّفَةً وراءها سحابة ممتدة من الدخان. استغرب توم من كيفية إبحارها بلا أشرعة! فتوجَّه إليها لينظرَ عن كثب. بينما كان هناك سربٌ من الدلافين تجري مسرعةً حولها، تبعد الواحدة عن الأخرى ثلاثة أقدام. فبادرهم توم بالسؤال عن الطريق إلى السور اللامع لكنهم لم يعرفوا الجواب. عندئذٍ، حاول أن يكتشف كيف تتحرك تلك السفينة من دون أشرعة. وفي النهاية رأى مدسرة السفينة، الأمر الذي أسعده للغاية لدرجة أنه راح يلهو أسفل أحد أركانها طوال اليوم، حتى كاد أن يؤدي أنفه بمراوحها. فقرر أن الوقت قد حان للمُضي في طريقه. ثم رأى البحارة على سطح السفينة، ورأى سيداتٍ يعتمرن قبعاتهن ويحملن المظلات، ولكنَّ أحدًا منهم لم يتمكن من رؤيته، لأن بصائرهم لم تكن مُنارةً، كما هو حال معظم الناس في الواقع.

بعد ذلك، خرجت سيدة باهرة الجمال إلى المنصة الربعية (38) مشتملةً بثياب حدادٍ حالكة السواد، وتحمل بين ذراعيها طفلًا صغيرًا. اتكأت السيدة الأرملة إلى المنصة الربعية وهي تُطيل النظر إلى الوراء صوب إنكلترا التي صارت بعيدة خلفها، وما انفكت تنظر حتى بدأت تُنشد:

(38) المنصات الربعية هي نوع من الشرفات، والتي كانت عادةً على جوانب مؤخرة السفينة، وهي جزء مرتفع من السفينة يشبه البرج.

من الجنوب الحبيب

تهبّ النسائم العليلة

وتنبعث رائحة عطرة

في سحائبك الفضية

عبر بحار الصيف

من المحيط إلى المحيط

بينما تلتف على أصابعي الندية

خيوط رقيقة من ضباب البحر

فيحيك وشاحاً من الحرير المرقش

ليظللني أنا وصغيري.

من غياهب معتكفك البعيد

أسكب من عظيم حبك يا رب

على الأرض والبحر وفي السماء

نختبئ بقلوبنا المتعبة

في محرابك المقدس

كُن لي ولصغيري درعاً

يقينا الحزن والخطايا

ويباعد بيننا وبين الخزي والعار.

كان صوتها رخيماً ومنخفضاً. وكانت ألحان نشيدها تنساب في الهواء وتملأ الجو بعذوبة بالغة للحدّ الذي كان بإمكان توم الإنصات إليها طوال اليوم. ولكن بينما كانت تحمل صغيرها لتُطَلَّ به من فوق درابزين المنصة لثريه الدلافين وهي تقفز حول الباخرة، وخرخرة المياه في أعقاب السفينة، فجأةً، لاحظ الطفل الصغير توم الذي كان واثقاً تماماً من رؤيته له، لأن الطفل الصغير أخذ يبتسم في وجهه ويمدُّ يديه نحو توم. ولما تلاقت أعينهما، ابتسم توم بوجه الصغير ومدَّ يديه نحوه كذلك. فبدأ الطفل يركل برجليه ويرفس كما لو أنه يريد القفز من على متن السفينة إلى توم.

«ما الذي تراه يا عزيزي؟».. سألت السيدة.

وتتبَّعت بنظرها إلى حيث يُبَصِّرُ صغيرها، حتى لمحت توم وهو يعوم وسط فقاعات زبد البحر في الأسفل. فنَدَّت عن المرأة صرخةً مقتضبةً وبعد أن هدأت، قالت:

«صغارُ في المياه؟! لعلَّه المكان الأنسب بالنسبة إليهم» ثم لَوَّحَتْ بيديها لتوم، ونادت: «اصبر قليلاً يا عزيزي، قليلاً فقط، ولربما سنلتحق بك لنعيش في سلام».

حينها، ظهرت مربيّة عجوز متشحةً بالسواد، تحدّثت إلى المرأة وأخذتها للداخل، فاستدار توم مستغرباً وتوجّه صوب الشمال وقد ارتسم على ملامحه الحزن لرؤيته الباخرة وهي تنساب بعيداً صوب الشمس الغاربة ووهج الغروب يلتصق على أسطحها الواحد تلو الآخر، ثم يتبدّد مرةً أخرى. وشريط الدخان الطويل ينقشع ويختفي مع ضباب المساء حتى غاب كل شيء وأصبح خارج مرمى البصر. فتوجّه توم مرةً أخرى شمالاً. وتعاقبت الأيام، حتى التقى أخيراً بزعيم أسماك الرنجة، من أنفه تنبث المِحَسَّة (39)، وفي فمه سمكة رنجة صغيرة، وضعها هناك بمثابة سيجار. فطلب منه توم أن يدلّه على الطريق إلى السور اللامع. فثبَّت الزعيم رأس سمكته أولاً، ثم أجاب قائلاً: لو كنتُ مكانك أيها الصغير، لقصدتُ الصخرة الوحيدة وسألتُ آخر فردٍ من طيور الأوك العظيمة – وهي من قبيلة ضاربة في القَدَم مثل قبيلتي تقريباً – فهي تعرفُ الكثير مما لا يعرفه هؤلاء المُحدِّثون، كما تفعل سيدات البيوت العتيقة».

(39) المَحَسَّة: وتسمى أيضًا فِرْجُون: وهي فرشاة لتنظيف جلد الحيوان.

طلب توم منه أن يَدلَّهُ على الطريقِ إليها، فدَلَّهُ زعيم أسماك الرنجة بلطفٍ، فقد كان مخلوقًا مسنًا ينتمي لسربٍ عتيقٍ يفيضُ خُلُقًا وتهذيبيًا، على الرغم من بشاعةِ شكلِهِ وزينتهِ الغريبةِ أيضًا، حيث كان يرتدي مثل كبار السن المتأقنين ممن يجلسون متكاسلين عند شبابيك النوادي. لكن، ما إن شكَّرَهُ توم واستعدَّ للانطلاق حتى نادى عليه وقال: «هيهيه! هل تستطيع الطيران؟»

«لم أُجرب ذلك أبدًا.. لماذا؟».. أجاب توم.

«لأنك إن كنت قادرًا، فمن واجبي إبلاغك ألا تقول شيئًا للسيدة أوك العجوز بشأن هذا الأمر. أمل أنك فهمت.. وداعًا.»

فمضى توم في سبيله لمدة سبعة أيام وسبع ليالٍ باتجاه الشمال الغربي، حتى وصل إلى ضفةٍ واسعةٍ مليئةٍ بأسماك القَدِّ، لم يَرَ لها مثيلًا من قبل، حيث يغصُّ قاعها بأسماك القَدِّ، عشرات الآلاف منها تلتهم المحار طوال اليوم. بينما تحوم فوقهم أسماك القرش الزرقاء بالقرب من سطح الضفَّة بالمئات، وهي تصطادهم وتلتهمهم حالما يرتفعون.

وهكذا، كان يأكل بعضهم بعضًا منذ خلق الخليقة. لأنَّهُ ما من بشريٍّ وصل لتلك البقعة حتى الآن لكي يقوم باصطيادهم والتعرُّف على مدى ثراء الأم كاري العجوز(40).

(40) الأم كاري العجوز: يعتبرها البحارة الأوربيون إله البحر الأسطورية وهي تجسيدًا للعواصف والبحر الخطير وكان البحارة يخشونها. كانت معروفة بجلب العواصف والتسبب في غرق السفن وإرسال البحارة إلى زوجها الغريق دافي جونز الذي يرقد في أعماق البحر. ولهذا يُشير الراوي في هذا النص إلى عدم وصول أيِّ مخلوق بشري لتلك البقعة.

وهناك، عثر توم على آخر طائر من طيور الأوك العظيمة، تقف فوق الصخرة الوحيدة بمفردها. كانت سيدهً مسنَّةً ضخمةً يبلغ طولها ثلاثة أقدام كاملة، وكانت تقف بهيئةٍ

منتصبةً كأنها زعيمٌ من زعماء المرتفعات القديمة. ترتدي رداءً مخمليًا أسود، وقبعةً نسائيةً بيضاء اللون ذات حاشيتين مشبوكتين بالدبابيس من كل جانب، وتضع مئزرًا. وكان لها أنفٌ يُشبهُ الأنوف الإغريقية الشامخة، وهذه علامةٌ مؤكدةٌ تدلُّ على التنشئة الرفيعة. وكانت تضع زوجًا كبيرًا من النظارات البيضاء عليه، مما جعلها تبدو غريبةً نوعًا ما، غير أن ذلك كان تقليدًا قديمًا مُتبعًا في أسرتها.

وبدلاً من الأجنحة، كانت تملك ذراعين صغيرين يكسوهما الريش، وبهما كانت تُهَوِّي لنفسها متذمّرةً من حرارة الجو القائظ المروّع، وهي تندن مع نفسها أنشودةً قديمةً تعلّمتها منذ زمنٍ بعيدٍ وقت كانت طائرًا أوك صغير:

وقف طائران صغيران على الصخرة

سبح أحدهما بعيدًا

بقي الآخر وحيدًا

يترنّم بترنيمة عيد الميلاد

ثم سبح الآخر في إثره

حتى لم يتبقَّ أحدٌ

وهكذا عافوا الصخرة

وحيدةً فريدةً

مع أصداء ترانيم عيد الميلاد

وعلى وجه الدقة، كانت تعني أنثى الأوك العظيمة «حلق بعيدًا» وليس «سبح بعيدًا» ولكن، وبما أنها كانت عاجزةً عن الطيران فليدبرها الحق باستبدال الفعل. على أي حال، كانت أنشودةً لطيفةً تلائم سيدهً مثلها.

اقترب توم منها وانحنى لها بكل تواضع. وكان أول سؤالٍ تطرحه عليه هو:

«ألديك أجنحة؟ هل تستطيع الطيران؟»

«يا للعجب! كلا يا سيديتي! ولم أفكر بالأمر».. أجاب الماكر الصغير توم.

«إدًا، سيكون من دواعي سروري التحدث معك يا عزيزي. إنه لأمرٌ مريحٌ جدًّا في أيامنا هذه أن نرى مخلوقاتٍ بلا أجنحة. ففي الحقيقة، كل نوعٍ جديدٍ من الطيور المُحدثة في هذا العصر، تحدوها رغبةٌ شديدةٌ في أن تحظى بأجنحةٍ لكي تطير. ماذا الذي سيجنونه من الطيران وتعليق أنفسهم وأجسادهم فوق مكانتهم الصحيحة في الحياة؟ في أيام أسلافي، لم يفكر أيُّ طائرٍ بامتلاك أجنحة، وكان كل فردٍ منهم يُبلي بلاءً حسنًا من دونها. والآن، يسخر الجميع مني لأنني ما زلتُ على عهد أسلافي. تملك طيور الأوك الصغيرة والماروكي أجنحةً إلا أنها مخلوقاتٌ فظةٌ وتافهةٌ جدًّا، وكذلك أبناء عمومتي من طيور أبي موسى ممن يُعتبرون نبلاء المولد والتنشئة. عليهم أن يفهموا أنهم مخلوقاتٌ أكثر حكمةً وتعقلًا من مجرد محاكاة من هم أدنى منهم».

وهكذا بدأت حديثها واستمرت. بينما حاول توم أن يقحم نفسه وسط المحادثة، حتى تمكن في النهاية من التحدث وقت بدأت السيدة تلتقط أنفاسها، وطفقت تُهوي لنفسها من جديد. عندئذٍ سألتها إن كانت تعرف الطريق إلى السور اللامع.

«السور اللامع؟ ومن عساه أن يعرف الطريق إلى هناك أفضل مني؟ لقد انحدرنا جميعًا من السور اللامع منذ آلاف السنين عندما كانت برودة الجو معقولةً، والمناخ مناسبًا للكثير من الأشرف. أمّا الآن، فما بال هذا الجو القائل الحرارة، وما بال هذه المخلوقات الفوضوية

المجنّحة التي تطير صعودًا وهبوطًا وتأكل كل شيء، حتى نهبوا طرائد الأشراف ولم يَعدُ بإمكان أحدٍ أن يضمن لقمة عيشه، أو بالكاد يمكنه المغامرة بالابتعاد عن الصخرة خوفًا من الاصطدام بمخلوقٍ ما، ما كان ليتجرأً على الاقتراب منا مياً واحداً قبل ألف سنة - ما الذي كنتُ أقوله؟ لقد أفلتُ شمسُ قيمتنا في هذا العالم يا عزيزي، ولم يتبقَّ لنا غير شرفنا ونزاهتنا. وأنا، آخر فردٍ بقيتُ في هذا العالم من عائلتي. جئتُ أنا ورفيقي إلى هنا واستقررنا على هذه الصخرة وقت كنا صغارًا لنبتعد عن المخلوقات الوضيعة. ذات مرة، كنا نُشكّلُ أمةً عظيمةً تسود أنحاء الجُزر الشمالية كلها. إلا أنّ البشر أخذوا يطلقون النار علينا ويصيبوننا في رؤوسنا وينهبون بيوضنا. يقولون، إن البحارة المنتشرين على ساحل لابرادور، اعتادوا فرش لوحٍ خشبيٍّ كمعبرٍ من الصخرة حتى متن ما يسمّى سفينتهم، وأخذوا يطوحون بنا على طول اللوح الصخري بالمئات، حتى نتكدّس في وسط السفينة على هيئة أكوام؛ وبعد ذلك، أخالهم يأكلوننا، يا لتلك المخلوقات البغيضة! طيب.. ولكن ما الذي كنتُ أودُّ قوله؟ آه، وفي النهاية، لم يتبقَّ أيُّ منا، ما عدا أولئك الساكنين عند صخرة الأوك العظيم قبالة ساحل آيسلندا والذي لا يستطيع أيُّ بشريٍّ أن يصل إليها. إلا أننا لم يهنا لنا بالٍ حتى في تلك البقعة. فذات يوم عندما كنتُ صغيرةً، تزلزت الأرض وماج البحر واستحالت السماء لظلام دامس، وعجَّ الهواء برائحة الدخان والغبار، وانهارت صخرة أوك العظيم وغاصت في البحر. لاذت الطيور الأقل شأنًا منّا بالفرار طبعًا، وحلقتُ بعيدًا جماعات جماعات. لكن كبرياءنا منعنا من الهرب. فتمزّق بعضنا إلى أشلاء، وغرق آخرون، وأولئك الذين لاذوا بالفرار اتجهوا إلى الدّأي. أخبرني الحمايم بأنهم قضاوا نحبهم جميعًا، وأن ثمة صخرة أوك عظيمة أخرى قد طلعت من البحر بالقرب من الصخرة القديمة، غير أنها مكانٌ سيئٌ مسطحٌ ليس آمنًا للعيش فوقه: وهكذا. ها أنا ذا أعيش هنا، وحيدةً فريدةً».

وهذه هي قصة طائر الأوك العظيم، ورغم ما قد تبدو عليه من غرابة، فإن كل كلمة منها صحيحة وواقعية.

«ليتكم تملكون أجنحة، لطار الجميع كذلك».. قال توم.

«نعم أيها الصغير، ولو لم ينس النبلاء من السيدات والسادة أن للنباله مقتضياتها، أي أن واجب من يدعي الثبل أن يتصرف بشكل مشرف، لأدركوا مدى سهولة المضي في هذا العالم كما يمضي غيرهم من الناس ممن لا يكثرثون لتصرفاتهم. ولو لم أكن رابطة الجأش حينها وأضع في الحسبان بأن النبالة واجب، ما كنت لأعيش بمفردى اليوم». قالت السيدة أوك العظيمة، ثم تنهدت.

«ماذا تقصدين يا سيدتي؟».. سأل توم.

«جاء معي إلى هنا، طائر نبيل المحدث، وبعد أن مكثنا هنا لبعض الوقت، أراد أن يتزوج، فتقدم لخطبتي في الحقيقة. حسناً، لا يسعني لومه، كنت صغيرة ساحرة الجمال آنذاك، ولا أنكر ذلك، ولكن كما ترى، لم أحتمل سماع شيء من هذا القبيل، لأنه كان زوج أختي المتوفاة، أفهمت؟»

«بالطبع يا سيدتي».. أجاب توم، مع أنه لم يفهم المغزى من وراء قصة السيدة أوك العظيمة، ثم أضاف «أعتقد بأنها كانت مريضة؟»

«لم تفهم ما أعنيه يا عزيزي. أعني، كوني سيدة ذات إحساس مرهف شريف، وهذا ما أنشأني عليه والداي وتعلمته من عائلتي، شعرت أنه من واجبي أن أزدريه وأزجره، وأن أشن عليه الحرب، وأهجم عليه باستمرار لكي لا يتعدى حدوده؛ ولأصدقك القول.. لقد ضربته مرةً بقسوةٍ بالغة، فتعثرت وسقط من الصخرة إلى البحر وكان ثمة قرش ماراً بالجوار، رآه يصفق المياه بيديه القصيرتين فأمسك به. لقد كان أمراً مؤسفاً، إلا أنه لم يكن ذنبى. ومنذ ذلك الحين وأنا أعيش وحيدة... برفقة أنشودة عيد الميلاد، وعماً قريب سارحلاً كذلك يا صغيري العزيز، ولن يفتقدني أحد، وستبقى هذه الصخرة وحيدةً فريدةً مرةً أخرى».

«ولكن، من فضلك. دليني على الطريق إلى السور اللامع».. علّق توم.

«أوه، ينبغي أن تواصل طريقك يا عزيزي الصغير. عليك بالمضي. دعني أرى... إنه... وأنا واثقة من ذلك.. تمامًا... أوه... إن عقلي العجوز المسكين مشوّش إلى حدّ ما! أتعلم يا صغيري؟ أخشى، أنه إن أردت معرفة الطريق، عليك أن تسأل بعض هذه الطيور الفظة التي تجوب السماء. لأنني نسيتُ الطريق تمامًا».

وهكذا، بدأت السيدة أوك العظيمة تذرف دموعًا من الزيت الخالص، فشعر توم بالأسى عليها، وعلى نفسه أيضًا، لأنه بدا شديد الحيرة فيمن يسأله عن الطريق.

ثم مرّ سربٌ من طيور النوء، وهي طيور تابعة للأم كاري. وقد حُيِّل لتوم أنهم أجمل بكثير من السيدة أوك العظيمة، ولعلمهم كانوا أجمل بالفعل بعد أن اكتسبت الأم كاري خبرةً عاليةً بين الفترة التي شكّلت فيها طيور أوك العظيمة والوقت الذي خلقت فيه طيور النوء. كانوا يرفرفون على امتداد البحر مثل سربٍ من السنونوات السوداء، وينطون من موجةٍ لموجةٍ وهم يرفعون أقدامهم الصغيرة خلفهم برقّةٍ بالغّة، ويصفّرون لبعضهم بعضًا حتى وقع توم في حبهم على الفور، وناداهم لكي يسألهم عن الطريق إلى السور اللامع.

«السور اللامع؟ هل تريد السور اللامع؟ إذا تعال معنا وسُربك الطريق نحن فراخ الأم كاري. إنها ترسلنا عبر البحار، لثري الطيور الصالحة طريق العودة إلى الوطن».

فابتهج توم، وطفق يسبح باتجاههم بعد أن انحنى احترامًا للسيدة أوك العظيمة غير أنها لم تبادله الانحناء، وإنما سيطرت على نفسها وبقيت منتصبّة وذرفت دموعًا من الزيت وراحت تغني:

وهكذا عافوا الصخرة وحيدةً فريدةً

مع أصداء ترانيم عيد الميلاد.

لكنها كانت مخطئةً هنا، لأن الصخرة الوحيدة لم تُترك لوحدها. وفي المرة القادمة التي يمرّ توم بها سيرى مشهدًا يستحق الرؤية. فالسيدة أوك العجوز رحلت بالفعل. ولكن ثمة أمورٌ

أجمل ستحلّ محلّها. وعندما يعود توم سيرى مراكب الصيد راسيةً هناك بالمئات، من إسكتلندا، ومن أيرلندا، ومن جزر أوركاد، وأرخبيل شتلاندرز، ومن جميع الموانئ الشمالية، وكلها تعجُّ بأطفال الفايكنج الإسكندنافيةين القدامى، أسياد البحر. وسيرى الرجال وهم يصطادون أسماك القدّ الهائلة بالآلاف، حتى تؤلمهم أيديهم من خيوط الشباك؛ وسيصنعون زيت كبد سمك القدّ والسماد، وسوف يملّحون الأسماك. وسيكون ثمة بارجة كبيرة لحمايتهم، ومنارة لتدلّهم على الطريق. ولربما، سنذهب أنا وأنت معًا يومًا ما إلى صخرة الأوك الوحيدة عبر بحر الصيف الواسع الرقراق، ونلتقط بشباكنا، مخلوقاتٍ غريبةً عجيبةً لم يسبق لأي بشرٍ رؤيةٍ مثيلٍ لها من قبل. وسنسمع البحارة يتبجّحون بأن ما اصطدناه ليس أسوأ من جوهرةٍ في تاج الملكة فيكتوريا، لأن هناك ثمانين ميلاً من الضفاف العامرة بأسماك القدّ وبالطعام، لجميع الفقراء في الجزيرة.

هذا ما سيراه توم، وما سنراه أنا وأنت على الأرجح كذلك. وبعد ذلك لن نأسف لأننا لم نتمكّن من الحصول على طيور أوك العظيمة لنملأ الجزيرة بها – فما بالك بالعثور على طيور أوك العظيمة بعددٍ كافٍ وأخذهم إلى الصخرة وذبحهم، كما فعل النورمان القدامى، أو قتلهم على متن سفينةٍ بعد جلبهم على طول لوحٍ حتى تموّن السفينة بهم، كما فعل القراصنة الإنكليز والفرنسيون القدامى الذين أوردتهم العزيز هاكلويت في قصاده مع أننا سنستذكر ما قاله السيد تينيسون:

«يتغير النظام القديم ليفسح المجال

لنظامٍ جديدٍ،

ليحقّق الربُّ ربوبيّتهُ بشتّى الطرق»

عندها، بدأ توم يتّقد حماسًا لشروعه بالرحلة إلى السور اللامع لكن طيور النوء رفضوا إخباره، لأنه عليهم أولاً الذهاب إلى «رأس الطيور كلها»، وانتظار التجمع الكبير هناك لطيور البحر، قبل أن تبدأ بالهجرة من أجل التزاوج في أماكن صيفيةٍ نائيةٍ في الجزر الشمالية.

وهناك، قد يعثرون على بعض الطيور ممن يتوجّهون إلى السور اللامع. ولكنهم جعلوا توم يقطع وعدًا أبدياً، بالأخبار أحداً عن موقع «رأس الطيور كلها» خشية أن يستدل البشر عليه ويأتوا لإطلاق النار على الطيور وقتلها ثم أخذها ليقوموا بتحنيطها، ووضعها في المتاحف التافهة بدلاً من تركها للهو والتكاثر والعمل في البستان المائي للأم كاري، حيث ينبغي أن تعيش.

لذا، ما كان ينبغي لأحد أن يعرف مكان «رأس الطيور كلها» وكل ما يمكن قوله هو، أن توم انتظر هناك عدة أيام، وأثناء انتظاره شهد حدثاً بغاية الغرابة والهول. حيث تجمعت على جحور الأرناب بمحاذاة الساحل، المئات والمئات من الغربان المقتنعة، مثل تلك التي ترونها في مقاطعة كامبردج، مثيرين ضجة هائلة، الأمر الذي دفع توم للاقتراب من الساحل ورؤية ما يجري. وهناك، رأهم يعقدون اجتماعاً ضخماً خاصاً كالذي يعقدونه كل عام في الشمال؛ وكان جميع مسؤوليهم يُلقون خُطبهم من فوق منصة على هيئة جمجمة خروف مُسِن.

كانوا ينعمون وينعمون متبجحين بكل ما أنجزوه من مهام عبقرية: عن عدد أعين الحملان التي فقؤها، وعدد الثيران الميتة التي أكلوها، وعدد طيور الطيهوج الصغيرة التي ابتلعوها كاملة، وعن أعداد بيوض الطيهوج التي سرقوها وحلقوا بها بعيداً وهي معلقة على أطراف مناقيرهم، وهذا العمل البطولي الذي تخوضه الغربان المقتنعة يعتبرونه مفخرة لهم على وجه الخصوص، تماماً كما يشعر الغجري بالفخر وهو يقوم بخدعة الهوكاني پارو.. وما هو الهوكاني پارو؟ هذا ما لن أخبركم عنه!

وفي نهاية المطاف، أحضروا أجمل وأطف أنثى غراب رآها توم من قبل، ووضعها في وسطهم ثم بدأ الجميع بالإساءة إليها وشتمها وتوبيخها والتنمر عليها، فقط لأنها لم تسرق ولا بيضة من بيوض دجاج الطيهوج. وفي حقيقة الأمر، تجرأت أنثى الغراب على القول بأنها لم ولن تسرق أي بيضة. لذا فقد كان من المفترض أن تُحاكم علناً بموجب قوانينهم، ذلك أن الغربان المقتنعة يُقدّمون دوماً على محاكمة معظم الجناة المذنبين في برلمانهم

السنويّ الهائل. وهناك وقفت في المنتصف بثوبها الأسود وقلنسوتها الرمادية، وهي تبدو بغاية الوداعة والهدوء كما لو أنها فردٌ ينتمي لجماعة الكويكرز الأصحاب. كان الجميع يصرخون عليها في آنٍ واحدٍ، إلا أنّ جهود دفاعها عن نفسها أمامهم، ضاعت سدى:

ذلك أن بيوض دجاج الطهبوج، لا يروقه

وأنها يمكنها عيش حياةٍ قانعةٍ من دون أكلها

وأنها تخشى أكلها خوفاً من حُرّاس الطرائد في المحميّات

أنها لا تملك الجرأة الكافية لأكلها،

لأن الطهبوج طيورٌ جميلةٌ لطيفةٌ، وذات طباعٍ مريحةٍ.

وعدة أسبابٍ أخرى.

فهجمت عليها الغربان كلّها، وأخذوا يضربونها وينقرّون جسدها حتى الموت، لولا أن هرع توم لمساعدتها، فحلّقوا بعيداً والفخر يملؤهم مما قاموا بفعله.

والآن، ألم تكن معاملتهم هذه مشينةً ومُخجلةً؟! إنّ أفعالهم شبيهةٌ بأفعال الجمهوريين الفَحّ! هؤلاء الغربان المقتنعون ممن يفعل كل فردٍ منهم ما يحلو له، ويكرهون الآخرين على ذلك أيضاً، بحيث، في مقابل أيّ حرية تعبيرٍ أو فكرٍ، أو فعلٍ مسموحٍ به فيما بينهم، يُحوّلهم لمواطنين أمريكيين في هذا المذهب الجديد. لكن الجنيّات احتصنّ أنثى الغراب الصالحة، وعمِلنَ على منحها تسع مجموعات جديدة من ريش الدوران، وحوّلنها في النهاية إلى أجمل طائر في الجنة بلونٍ أخضرٍ مُخميٍّ وذيلٍ طويلٍ، وأطلقنها لتناول الفاكهة في أرخبيل جزر التوابل، حيث يكثر القرنفل وجوز الطيب.

ثم قامت السيدة بدايد بتصفية حساب أنثى الغراب مع الغربان المقنعين الأشرار. فعندما حلّقوا بعيداً بعد فعلتهم تلك، ما الذي عساهم أن يعثروا عليه في طريقهم سوى كلبٍ نافقٍ

بغِيضٍ ليكون موضع اهتمامهم؟ حيث بدؤوا يسترقون النظر حول المكان، ثم هجموا عليه وراحوا يلتهمون ما يحلو لهم منه وهم ينعمون ويدخلون في مشاداتٍ ونزاعاتٍ بقدر ما يطيب لهم. لكن في اللحظة التي تلت ذلك، تقيؤوا ما قاموا بالتهامه دفعةً واحدةً، وندت عنهم صرخٌ حادةٌ في الوقت ذاته، ثم أخذوا يتقهقرون في الهواء إلى الخلف رأسًا على عقب، وسقطوا ميّتين الواحد تلو الآخر. مئة وثلاثة وعشرون غرابًا في نفس الوقت. لماذا برأيك؟ لأن الجنيّة أملت على حارس الطرائد في حلمه، بأن يملأ الكلب الميت بمادة الإستركنين القاتلة، وهكذا فعل.

بعد فترةٍ من تلك الحادثة، بدأت الطيور تحتشد في «رأس الطيور كُلّها» بعشرات الآلاف، حتى صارت السماء حالكة، من طيور البجع والإوز الأسود والبطّات المبرقشة، طيور العيدر والشّزير الصيفية وبجعات البلقشة البيضاء والبطّ الغواص والغمّاس، الغطاسيات وطائر الأوك الصغير والأوك العظيم وأبي موس، طيور الأطيش والنوء والكركر والخرشناوات، ترافقهم طيور النورس التي تُعدُّ فوق كل تسمية وحسبان. بين من يجدف وآخر ينظّف جسده وثنانٍ يطرطش في المياه وآخر يمرّغ جسده على الرمل، حتى ابيضّ الساحل بالريش وهم يببطون ويقوقون وينقون ويثرثرون ويصيحون أثناء حديثهم مع رفاقهم ليقرروا إلى أين سيتجهون أثناء فترة التزاوج في ذلك الموسم الصيفي، حتى أن صخبهم لربما وصل أسماعكم من على بُعد عشرة أميال. ومن حسن حظهم أنه لم يكن هناك من يسمعهم سوى الحارس المُسيّن، الذي يعيش بمفرده على نهر نيس في كوخ خشبي مسقّف بالقش والخُلنج ويحدّه من الأعلى أحجار كبيرة متدلّية عبر السقف بحبال، خشية أن تنسف العواصف الشتوية الكوخ سريعًا. لكنه لم يُبالِ بالطيور ولم يؤذها، لأنها كانت في موسم التزاوج. وفي الواقع، لم يفكر إلا في أمرين في العالم كله، وهما: كتابه المقدس وطهبوجه. فقد كان عجوزًا اسكتلنديًا بارعًا كعادته في حياكة الجوارب في ليالي الشتاء. وعندما تهاجر الطيور كلها، فإنه يخرج وراءهم يمشي الهوينى، يخلع قَبَعَتَهُ ويتمنى لهم رحلةً سعيدةً وعودةً آمنةً. ثم يجمّع كل الريش الذي خلّفوه وراءهم ويمحو الأوساخ العالقة

فيه لبيبعه لأهل الجنوب لكي يصنعوا أسرةً من الريش حتى يستلقي عليه المتغطرسون منهم.

عندئذٍ، راحت طيور النوء تسأل هذا الطير أو ذاك عما إذا كانوا سيرافقون نوم إلى السور اللامع. غير أن مجموعةً من الطيور ستهاجر إلى ساذرلاند، ومجموعةً أخرى إلى جُزُر شيتلاند، وأخرى إلى النرويج، وآخرين إلى سبيتسبيرجين، وأخرى إلى آيسلندا، وأخرى إلى غرينلاند، ولكنَّ أحدًا منهم لن يتوجّه إلى السور اللامع. لذلك قررت طيور النوء الودودة مرافقة نوم لنصف الطريق، وبعد ذلك، عليه أن يتدبّر أمره بنفسه. لأنهم سيهاجرون بعيدًا إلى جزيرة يانماين النرويجية.

فحلقت الطيور كلها وأخذت تتدفق أسرابًا أسرابًا في شكل صفوفٍ سوداءٍ طويلةٍ ممتدة إلى الشمال والشمال الشرقي والشمال الغربي عبر سماء الصيف الزرقاء المشرقة، حيث بدا صخبهم وكأنه صادرٌ من قطعانٍ كلاب الصيد بعشرات الآلاف وجلجلة عشرات الآلاف من الأجراس. ما عدا طيور البوقن تخلّفوا عنهم ولم يهاجروا مع البقية، وإنما ظلوا ليقتلوا صغار الأرانب، ويضعوا بيوضهم في جحور الأرانب! وهذه بالتأكيد، تُعدُّ ممارساتٍ مجردةً من الرحمة، لكن، على ربّ الأسرة أن يتولّى أمر العناية بعائلته.

وبينما كان نوم وطيور النوء يتجهون نحو الشمال الشرقي، بدأت الرياح تهبُّ بشدةٍ من أقصى اليمين، لكون العملاق العجوز ذا المعطف الرمادي الفضفاض، والذي يُعنى بالمرجل النحاسي الهائل في خليج المكسيك، كان قد تأخر عن عمله. لذلك بعثت الأم كاري ببرقية له من أجل المزيد من البخار، وفي تلك اللحظات كان البخار يتدفق صوب السماء بقدر ما ينبغي أن يتدفق خلال ساعةٍ واحدةٍ أسبوعيًا على هيئة سُحبٍ متحرّكةٍ هائلةٍ من الدخان التي أخذت تحفّ وتدور في دوامةٍ حتى لم يعد بإمكانك رؤية أين تنتهي السماء ومن أين يبدأ البحر. لكنّ نوم وطيور النوء لم يكتروا بذلك قطّ، لأن الرياح الشديدة هبّت من أقصى اليمين، فتجاوزوها بالتحليق من فوق قمم سحب الدخان مبتهجين كالعديد من الأسماك الطائرة. وأخيرًا، صادفهم منظرٌ مروّعٌ. حيث رأوا جانبًا مطلقًا باللون الأسود لسفينة هائلة،

مغمورة بالمياه في قاع البحر. مدختها وسواريتها تتأرجح بين موجات البحر وتندفع أسفل ميمنتها. كانت أسطحها نظيفة لامعة كما لو أنها أرضية حظيرة، وما من أحد على قيد الحياة هناك، على متنها.

هرعت طيور النوء باتجاه السفينة وأخذت تدور حولها منتحبةً بأسى شديد لمرأى الحطام. ثم حدا بهم الأمل لأن يعثروا على بعض لحم الخنزير المملح بين حطامها. بينما تسلق توم على متنها وراح يجول بنظره في أنحاء السفينة، وجلاً مغتماً. وهناك، في مهد صغير مربوط بإحكام أسفل كتف السفينة العلوي، رأى طفلاً صغيراً مستغرقاً في النوم، وقد عرفه توم من فوره! كان الطفل الذي رآه توم بين ذراعي تلك السيدة المنشدة، بشحمه ولحمه.

ذهب توم إليه وأراد إيقاظه، ولكن قفز من أسفل المهد كلب من سلالة تيرير مانشستر، وبدأ ينبح ويكشر عن أنيابه بوجه توم، ولم يسمح له بلمس المهد. إلا أن توم علم أن أسنان الكلب لا يمكن أن تؤذيه: ولكن بمقدوره أن يصدّه بدفعه وإبعاده على أقل تقدير، وهكذا خاض توم والكلب شجاراً عنيفاً، وصارع توم لأنه أراد إنقاذ الطفل، ولم يكن في نيته إلقاء الكلب المسكين من على متن السفينة الى البحر. لكن، وأثناء اقتتالهما، علث أمواج بحرية خضراء، وضربت الجانب الأيمن من السفينة، وجرفتهم جميعاً نحو الأمواج.

«يا إلهي! الطفل! الطفل!».. انبرى توم صارخاً، غير أنه توقّف عن الصراخ خلال لحظات لأنه رأى مهد الطفل يستقر عبر المياه المخضرة وبداخله الطفل الصغير، نائماً ومبتسماً، وقد هرعت الجنّيات إليه من بعيدٍ وحملن الطفل. وبدأن يهدئنه بكل رقة بين أذرعهن الناعمة. عندئذٍ علم توم أن كل شيء على ما يُرام، وأنه سيكون هناك طفلٌ مائيٌ جديدٌ في جزيرة القديس بريندان.

لكن، ماذا عن الكلب المسكين؟ يا للعجب مما حصل معه! فبعد أن نبح وركل توم وسعل قليلاً، أخذ يعطس بقوة، حتى أنه عطس نفسه وخرج من جلده وتحول إلى كلبٍ مائيٍّ وراح يئنّ ويرقص حول توم، ويسابق قمم الأمواج، وينقض على قناديل البحر وأسماك الإسقمري. ثم تعقب توم طوال رحلته إلى الطرف الآخر من اللامكان. ومضى الجميع في

سبيلهم مرةً أخرى، حتى بدأت قمة جزيرة يانماين تلوح لهم من بعيد، شامخةً مثل مثل قالب سكر أبيض مخروطي الشكل، على بعد ميلين فوق الغيوم. وهناك شاهدوا سرّياً كاملاً من طيور القطرس الذين كانوا مجتمعين على حوت ميتٍ يأكلونه.

«هؤلاء الرفاق سيدلونك الطريق. لم يعد بإمكاننا الابتعاد صوب الشمال أكثر من ذلك لأننا نكره أن نطير بين الكتل الجليدية الطافية خشيةً أن يلسع البرد القارس أطراف أصابعنا. ولكن بإمكان طيور القطرس الطيران إلى أي مكان».. قالت طيور النوء.

فنادت طيور النوء على طيور القطرس، غير أنهم كانوا مشغولين جداً، فقد تكالب الجميع على جثة الحوت بين من يلتهم بشرهةٍ وآخر يختلس النظر، بين من يثرثر بغير وضوح وآخر يتعارك بشأن الشحوم، حتى أن طيراً منهم لم يُلقِ بالأعلى الإطلاق!

«هلمّوا.. هلمّوا».. صاحت طيور النوء. «تعالوا أيتها المخلوقات الكسولة الجشعة الخرقاء، هذا الصبيّ النبيل ذاهبٌ إلى الأم كاري، وإن لم تعتنوا به، فلن تطلق سراحكم».

«صحيحٌ أننا جشعين».. قال أكبرهم، وكان بديناً للغاية. «لكننا لسنا كُسالى. أمّا فيما يتعلّق بكوننا مخلوقاتٍ خرقاء، فلستُم بأفضل حالاً منّا. لثلقي نظرةً على الصبيّ».

فحلّق باتجاه توم، وأخذ يحملق في وجهه مباشرةً بنظراتٍ ملؤها الصفاقة والجسارة، فطيور القطرس مخلوقات جريئة للغاية، كما يعرف كل صائدي الحيتان. ثم طفق، يسأل توم أسئلةً من قبيل: من أين أتى، وأي بلادٍ رآها آخر مرةً.

وعندما أخبره توم، بدت عليه أمارات الرضا والسرور، وأشاد بتوم، وأخبره بأنه صبيٌّ ذو بأسٍ وشجاعةٍ منقطعي النظر، كونه وصل إلى هذا الحدّ من العالم.

«هلمّوا يارفاق».. قال للبقية. «وامنحوا لهذا الصغير نظرةً فوق الكتل الجليدية من أجل الأم كاري. لقد تناولنا كفايتنا من اللحم اليوم، دعونا نخصّص قليلاً من وقتنا لمساعدة الفتى».

وهكذا، حملوا توم على ظهر أحدهم، وحلّقوا في الأعالي وهم يضحكون ويمزحون. أووه!
يا إلهي! كم كانت نفوح منهم رائحةً تُشبهُ وقود القاطرات!

«من أنتم أيتها الطيور المرحّة؟».. تساءل توم.

«إننا - وكما يدري أيُّ بحّار - أرواح قباطنة جُزر غرينلاند القدامى ممن كانوا يصطادون هنا
الحيّتان بأنواعها منذ مئات السنين. لكن، لأننا كنا شرهين للغاية، ونثسّم بطباع بذيئة
وألسنةٍ حادّة، تحوّلنا جميعًا إلى طيور القطرس، ليصير دهن الحوت طعامنا كل يوم. غير
أنه ما من أحدٍ بيننا أخرج عديم الخبرة! بل نستطيع أن نُبحر بسفينةٍ الآن بوجهٍ أيّ بشريّ
في البحار الشماليّة، مع أن الباخرات المبتكرة حديثًا تلك، لم تنل استحساننا. لذلك، فإنه
لمن العار أن تدعونا عفاريت سوداء مثل طيور النوء بذلك. ولكن لأنهم الحيوانات المدللة
بالنسبة لسموّها، يظنون أنه بإمكانهم الحديث عنا كما يحلو لهم».

«ومن تكون أنت؟».. سأله توم، لأنه لاحظ أن هذا الطائر هو زعيم طيور القطرس كلها.

«أُدعى هندريك هدسون. كنتُ ربّان سفينةٍ فطِنًا بارعًا، والأثر الذي تركه اسمي، سيدوم
حتى يفنى العالم بغض النظر عن كل الأخطاء التي اقترفتها. لأنني اكتشفتُ نهر هدسون،
وأطلقتُ عليه اسمَ خليج هدسون، وقد جاء الكثيرون في أعقابي ممن لم يجرؤوا على
إرشادي إلى السبيل. فقد كنتُ رجلًا ظالمًا في زمني، وهذه هي الحقيقة. حيث سرقتُ
الهنود المساكين من ساحل ماين، وقمّتُ ببيعهم في فرجينيا لكي يتمّ استعبادهم. وكنتُ
أُعامل البحّارة بوحشيةٍ بالغةٍ، هنا في هذه البحار نفسها لدرجة أنهم وضعوني في قاربٍ
مكشوفٍ وتركوني للبحر لكي يجرفني على غير هدئٍ، ولم أعرف ما حصل بعد ذلك. وهكذا،
إنني الآن، زعيم طيور القطرس جميعها، حتى أفنى».

ولما وصلوا إلى أطراف الكتل الجليدية، صار بإمكانهم رؤية السور اللامع يلوخُ في الأفق
من خلفها من خلال الضباب والثلج والعواصف. غير أن الكتل الجليدية الطافية بدأت تندكُ
على الأمواج العالية بشكلٍ مُروّعٍ، وأخذت الكتل الجليدية الهائلة تعتلج وتُدوّي، ومارت

على بعضها بعضًا حتى طحنت بعضها بعضًا وتحولت إلى ذرورٍ ناعمٍ، الأمر الذي جعل توم متخوفًا من المجازفة فيما بينهم خشيةً أن يُطحن هو الآخر إلى ذرور كذلك! ومما زاد من خوفه، رؤية حُطام العديد من السفن الفخمة، ملقاةً بين الكُتل الجليدية، بعضها مع الصواري وعارضاتها، وقسمٌ منها ببهارتها المتجمدين على مثنىها.

واحسرتاه، يا للأسف عليهم!

كانوا رجالًا إنكليزيين قلبًا وقالبًا، وقد لقوا حتفهم كالفرسان المتجولين الأصلاء بحثًا عن السور اللامع الذي لم يُكتشف بعد. ولكن طيور القطرس الطيبة تداركت الأمر وحلقت بتوم وكنبه بأمان بعيدًا عن الكُتل الجليدية المائجة، ثم هبطوا بهما أسفل السور اللامع.

«وأين هو السور؟».. سأل توم.

«لا يوجد سور!».. أجاب طائر القطرس.

«لا يوجد سور؟!».. صاح توم مشدوهاً.

«أبدًا، ولا حتى شقٍّ واحدٍ. وهنا يكمن السرُّ الأعظم برمته. حيث وصل إلى هنا رجالٌ أشدَّ منك قاصدين العثور عليه مهما كلّفهم الأمر، ولو عثر أحدهم على هذا المكان، لقتلوا كل حوتٍ يسبح في البحر الآن.»

«وماذا عساي أن أفعل إذن؟».. تساءل توم.

«غُض تحت الطرف الجليدي، لتتأكد من شجاعتك.»

«لم أقطع كل هذه المسافة لأتأكد من شجاعتي الآن. وعليه، ها أنا ذا، هيا بنا لنغوص.».. أجاب توم.

«نتمنى لك رحلةً موفقةً أيها الصبي. لقد علمنا أنك الفتى المناسب، لذا وداعًا.»

«لِمَ لا تَأْتون معي أيضًا؟».. سأل توم.

إلا أن طيور القطرس صاحت بنبرةٍ مشوبةٍ بالحزن: «لا يمكننا الآن..»، وحلّقوا بعيدًا فوق الكتل الجليدية.

لذلك، غطس توم أسفل السور الفصّي العظيم الذي لم ينكشف بعد، وتابع طريقه غوصًا في مدج الحالكات في عمق البحر، لسبعة أيام بلياليها. ومع ذلك لم يساوره الخوف ولو قيد أنملة. ولم عساه أن يخاف؟ كان فتىً إنكليزيًا شجاعًا واضعًا نصبَ عينيه مهمة الانطلاق لاستكشاف العالم برُمته.

وفي النهاية لاح له النور. ورأى من فوقه المياه تجري صافيةً رقراقةً. فتوجّه توم للأعلى بالآف القامات التي يتخللها عثيات البحر وهي تخفق بأجنحتها الرقيقة من فوق رأسه. كانت هناك عثيات برؤوس وأجنحةٍ زهرية اللون وأجسادٍ كحجر الأوبال المتلألئ، راحت تخفق بالجوار على نحوٍ بطيء، وكان ثمة عددٌ من الروبيان ينط متجاوزًا الجميع بأقصى سرعة. وقناديل بحر من شتى الألوان في العالم، لا تنط ولا تتخطى أحدًا، وإنما تبدد الوقت بالتسكّع والتثاؤب فحسب، ولم تكن لتبتعد عن طريقه وتفسح المجال للآخرين لولا أن انقضّ الكلب عليهم حتى تعبَ فكّه. غير أنّ توم لم يُوليهم اهتمامًا بالمرّة. فقد كان تواقًا للوصول إلى سطح المياه، ورؤية المعين حيث تقبع الحيتان الطيبة.

كان معينًا مائيًا واسعًا للغاية، له غورٌ عميقٌ جدًا مع أن الجو كان يحمل دلالات واضحة أن هناك جروفًا جليديةً قريبةً على الجانب الآخر من المعين، حتى بدت كما لو أنها على مرمى حجرٍ منه. وحول كل ذلك، انتصبت المنحدرات الجليدية على هيئة أسوارٍ وقممٍ وأبراجٍ مُحصّنة، وكهوفٍ وقناطرٍ وطبقاتٍ ودهاليزٍ تسكنُ فيها جنّيات الجليد، لتصدّ العواصف والسحب عن معين الأم كاري حتى تظلّ مستقرةً آمنةً من بداية العام لنهايته. فيما سلكت الشمس سلوك رجال الأمن، حيث اعتادت الشروق كل يومٍ وأخذت جولةً حول المكان واختلاس النظر من أعلى الجدار الجليدي للتأكد من أن كل شيء يسير على ما يرام. ومن وقتٍ لآخر، كانت تقوم بحيلٍ سحريةٍ أو تعقد مهرجاناتًا للألعاب النارية لتسلي جنّيات

الجليد. وكانت قادرةً على التحوّل لأربعةٍ أو خمسةٍ شمويسٍ في آنٍ واحدٍ، أو أن تملأ السماء بلهيبٍ فضيّ على هيئة حلقاتٍ وخطوطٍ وأهليلجٍ، ثم تتموضع فيما بينهم وتغمز بعينها للجنيّات. وأجزمُ القول أنهم كانوا مبتهجين للغاية، أكثر بهجةً من أي أمرٍ مُبهجٍ في البلاد كلها.

وهناك ترقد الحيتان الطيبة الهادئة السعيدة بين أمواج البحر الذي لا يزال زيتيّاً. ولا بد أن تعرف، بأن معظمهم من الحيتان الصائبة، من الحيتان المزعنفة والحيتان الأخدودية الشائعة وقارورية الأنوف وحيتان التأمور المرقطة بنابٍ عاجيٍ حلزونيٍ طويلٍ يمتد من فكّه الأيسر. أمّا حيتان العنبر فتعدُّ مخلوقاتٍ جامحةً جعجاعةً فظّة، وإن سمحت لهم الأم كاري بالدخول فلن يعمّ السُّلمُ في مَعين السلام. وهكذا جمعتهم كلهم ووضعتهم في بركةٍ واسعةٍ بمفردهم في القطب الجنوبي على بعد مئتين وثلاثين وستين ميلاً جنوباً في جنوب شرق جبل إريباص - ثاني أعلى بركان في القارة القطبية الجنوبية - حيث ينطح بعضهم بعضاً بخطومهم القبيحة ليلاً ونهاراً منذ بداية العام وحتى نهايته.

أما هنا في مَعين السلام، لا يوجد سوى مخلوقاتٍ طيبةٍ هادئةٍ ترقد متثاقلةً مثل هيكلٍ داكن لسفينةٍ شراعيةٍ، ينفثون من حينٍ إلى آخر انبعاثاتٍ من البخار الأبيض، أو يطوفون حول أنفسهم فاغرين أفواههم الضخمة حتى تنزلق عثيّات البحر في حلوقهم. ما كان هناك مداريس لتطحن ظهورهم العجوز المسكينة، ولم يوجد أسماك سيّاف البحر ليقوموا بطعنهم في بطونهم، ولا سمكات أبي منشار المتوسّط ليقوموا بتمزيقهم، ولا أسماك القرش الجليدية لينهشوا كتلاً من جوانبهم، ولا حتى صيادي الحيتان ليقوموا بطعنهم بالرمح ورميهم. لقد كانوا آمنين وفي غاية البهجة هناك، وكل ما كان عليهم فعله هو أن يظلّوا هادئين في مَعين السلام والانتظار حتى تستدعيهم الأم كاري لتقوم بتحويلهم من مخلوقاتٍ مُسِنَّةٍ إلى أخرى يافعة.

سبح توم باتجاه أقرب حوت، وطلب منه أن يدرّه على الطريق إلى الأم كاري.

«ها هي هناك تجلس في المنتصف».. أجاب الحوت.

فنظر توم، غير أنه لم يستطع رؤية أي شيء في منتصف المَعِين المائي، ما عدا قمة وحيدة لجبلٍ جليدي.

«تلك هي الأم كاري».. قال الحوت. «كما ستجدها عندما تصل إليها، وهي تجلس هناك وتحوّل المخلوقات المسنّة إلى مخلوقاتٍ يافعة على مدار السنة».

«وكيف تفعل ذلك؟».. سأل توم.

«هذا شأنٌ يخصّها وحدها. ولا يخصّني».. جاء رد الحوت المُسِنّ الذي أخذ يتشاءب بقَمٍ ما برَحَ أَخْذاً بالاتساع، فقد كان يملك فَمًا كبيرًا جدًّا بحيث انزلقت في فَمِهِ ما يقارب تسعمئةٍ وثلاثٍ وأربعون عثة بحرية ونحو ثلاثة عشر ألفًا وثمانمئة وستٍ وأربعين قنديلاً بحريًا لا يتعدّى حجم الواحد منها حجم رأس دُبوس، وصَفٌّ من الهلاميات البرميلية يبلغ طولها تسعَ يارداتٍ وثلاثٍ وأربعين سلطعونًا جليديًا صغيرًا ممن كانوا يقرصون بعضهم بعضًا قرصة الوداع، وطوى كل سلطعونٍ منهم رِجْلَيْهِ أسفل بطنه عازمين على الموت بكرامةٍ مثلهم مثل يوليوس قيصر.

«أخالها صيرت حوتًا هائلًا مثلك إلى سربٍ كاملٍ من خنازير البحر؟»

عندئذٍ، انفجر الحوت ضاحكًا بحيث قذف من حلقه كل المخلوقات التي انزلقت، بعيدًا مرّةً أخرى، ممتنّةً لهروبها من فَكِّ الحوت الرهيب ذاك الذي يُشبهُ قَبْرًا لا يردُّ ميتًا أبدًا. فتوجّه توم قاصدًا إلى الجبل الجليدي، والعُجْبُ يسيطر عليه.

وعندما اقترب من الجبل الجليدي، تجسّدَ الجبل على هيئةٍ أعظم سيدةٍ مسنّةٍ رأتها عين توم من قبل، سيدةٍ من الرخام الأبيض تعتلي عرشًا من الرخام الأبيض. ومن أسفل العرش ثمة الملايين من المخلوقات المولودة حديثًا تسبح جيئةً وذهابًا في البحر، من شتّى الأشكال والألوان، أكثر مما يخطر على بال الإنسان بالمرّة. وهؤلاء هم أبناء الأم كاري، الذين تصنعهم من مياه البحر طوال اليوم، بعد أن ظنّ توم – كمعظم البالغين الذين من المفترض

أن يكونوا على دراية أكثر - بأنهم سيجدونها تقصُّ وتُقَطَّع، وتحسب المقاسات، وتُدرز وتُرَقَّع وتُشمرج وتحفظ وتُصَلح وتُدقُّ وتطرز وتُلَمَّع وتُقَوِّلب وتُقَيِّس وتُنحِت وتُقَلِّم وهَلِّم جراً؛ كما يفعل البشر عندما يبدوون العمل ليبتكروا شيئاً ما.

لكن، بدلاً من ذلك، لَزِمَتْ مكانها بهدوءٍ تامٍ وذقنها على يدها، ناظرةً إلى أسفل في البحر بعينين واسعتين زرقاوين كزرقة البحر نفسه. وكان شعرها أبيض كالثلج، لأنها كانت سيدهً طاعنةً في السن، وفي حقيقة الأمر، أكبر سنًا من أي موجودٍ قد تصادفُهُ عرضةً باستثناء الفرق بين الصواب والخطأ.

ولما وقع بصرها على توم، نظرت إليه بلطفٍ ورقّةٍ بالغتين.

«ماذا تريد يا صديقي الصغير؟ لقد مرَّ وقتٌ طويلٌ منذ أن رأيتُ طفلاً مائياً هنا».. سألتُ الأمَّ كاري.

فأخبرها توم عن مهمته، وطلب منها أن تدلَّهُ على الطريق نحو «الطرف الآخر من اللامكان».

«ينبغي لك أن تعرف بأنك كُنْتَ هناك بالفعل».

«حقاً يا سيدتي؟ أوكد لك بأنني لم أنتبه للأمر برُمَّتِهِ!»

«إذن، أنظر إليّ».. قالت له السيدة.

وعندما نظر توم في عينيها الزرقاوين الواسعتين، تذكّر الطريق تماماً.

والآن.. ألم يكن هذا أمراً يبعث على العجب؟!

«ممتنٌ لك سيديتي. وهكذا، لن أزجج سيادتِك بعد الآن، فقد سمعتُ بأنك مشغولةٌ جداً».

«لن أكون أكثر انشغالاً مما أنا عليه الآن».. قالت الأم كاري دون أن تُحرِّك إصبعًا.

«بَلِّغني يا سيدتي، أنكِ تُحوِّلين المخلوقات المُسِنَّة إلى مخلوقات يافعة على الدوام».

«هكذا يتوهَّم الآخرون. إلا أنني لا أرهق نفسي في مثل تلك الأمور يا عزيزي الصغير، كل ما أفعلُهُ هو الجلوس هنا وأقوم بتحضيرهم ليُحوَّلوا أنفسهم بأنفسهم».

«إنكِ فعلاً جنيّة ذكيّة».. قال توم، وقد كان على حقِّ في قوله.

وهذه كانت حيلةً عظيمةً تقوم بها الأم كاري الطيبة، وإجابة أعظم سنحت لها الفرصة أن تقدِّمها عدة مراتٍ للمخلوقات الوقحة.

فعلى سبيل المثال، ذات مرة كان هناك جنيّة بغاية الذكاء، حتى أنها ابتكرت كيفية صنْع الفراشات. ولا أقصدُ فراشاتٍ وهميةً. لا، بل مخلوقات حيّة حقيقيةً تطير وتُأكل، وتضع البيض وتُفعل كل ما يجب عليها فِعْلُهُ. وكانت فخورةً جدًّا بمهارتها، لدرجة أنها طارت مباشرةً إلى القطب الشمالي، لتتباهى أمام الأم كاري بخصوص قدرتها على صنع الفراشات.

لكن الأم كاري طفقت تضحك، ثم قالت: تعرف أيها الصغير أن أيّ شخصٍ يمكنه أن يبتكر أشياء، لو تكبّد العناء كما ينبغي، وأخذ وقتًا كافيًا، ولكن ما من أحدٍ يملك القدرة - مثلي - على تهيئة المخلوقات لخلق أنفسها بأنفسها».

بيدَ أن الناس لم يصدّقوا بعد أن الأم كاري ذكيّة مثل كل من يجيء إليها، ولن يتعاضم ذكاؤهم ذلك حتى يخوضوا هم أيضًا في رحلةٍ صوبَ الطرف الآخر من اللامكان.

«والآن يا صغيري اللطيف، أنتَ متأكّد من أنك تعرف الطريق إلى الطرف الآخر من اللامكان؟»

فحاول توم أن يتذكّر ولكنه نسي الطريق تمامًا..

«ذلك لأنك أزحت ناظريك عني».. قالت الجنيّة.

نظر توم إليها مرةً أخرى، فتذكّر الطريق. ثم أشاح بناظريه فنسي بلمح البصر.

«لكن ماذا أفعل يا سيدتي؟ لأنني لا أستطيع أن أستمر في النظر إليك وأنا في مكانٍ آخر»..
تساءل توم.

«عليك أن تتذكّر الطريق بدوني، كما فعل معظم الناس على مدى تسعمئة وتسعة وتسعين ألف سنة من حياتهم. وأبقِ عينك على الكلب بدلاً مني، لأنه يعرف الطريق جيداً ولن ينساه. بالإضافة إلى أنك قد تُقابل بعض غريبي الأطوار هناك، ممن لن يسمحوا لك بالمضي من دون تذكرتي هذه التي عليك أن تعلقها حول عنقك، وتعتني بها، وبطبيعة الحال بما أن الكلب سيمضي خلفك على الدوام، عليك أن تسلك الطريق بأكمله وأنت تنظر خلفك».

«أنظر خلفي؟!».. صاح توم، «عندها لن أكون قادراً على رؤية طريقي والمضي قدماً».

«بل بالعكس، إن مضيت قدماً وأنت تتطلّع للأمام فلن تشهد الخطوة التي أمامك، وكُن واثقاً من أنك ستتّجه اتجاهًا خاطئاً. ولكن، إن نظرت خلفك، وراقبت بعناية كل ما مررت به، ولا سيّما إبقاء عينيك على الكلب، الذي يمضي على فطرتيه، وبالتالي لن يتّجه اتجاهًا خاطئاً، حينها ستري ما هو آتٍ وبكل وضوح، كما لو أنك تراه في مرآة».

أصيب توم بالذهول مما قالته الجنيّة، لكنه امتثل لها، لأنه تعلّم دائماً أن يُصدّق ما تقوله الجنيّات.

«هكذا هو الحال يا طفلي العزيز. سأروي لك قصةً. وهذه القصة ستثبّت لك أنني على حقّ تماماً، كما هي شيمي:

«كان ياما كان.. في قديم الزمان، كان هناك أخوان اثنان. يُدعى أحدهما بروميثيوس، وكان بروميثيوس يمضي قدماً على الدوام، ويتباهى بكونه حكيماً منذ سالف الأزمان. بينما كان

يُدعى الآخر إبيميثيوس، وكان إبيميثيوس حذرًا وينظر خلفه على الدوام، ولم يتباهَ بالمرّة وإنما يقول بكل تواضع كأي رجلٍ إيرلنديٍّ، ما تتبأً به بعد وقوع الحادث.

كان بروميثيوس فطِنًا للغاية نافذ البصيرة، حيث ابتكرَ عدة أشياء عظيمة، ولكن، ولسوء الحظ، عندما هيأ ابتكاراته للعمل، لم يعمل أيٌّ منها سوى بقدرٍ ضئيلٍ، ولم يُذكر منها شيءٌ سوى النزر اليسير. وليومنا هذا، ما من أحدٍ يعرف حقيقة أعماله باستثناء بعض السادة من علماء الآثار القدامى، ممن حفروا وبحثوا في الزوايا المثيرة للريبة دون أن يظفر أحدهم بأثرٍ سوى بعض الأنواع من بتينوم فورم، بلاتم مورتسكام، آكرم هوريدم. (41)

(41) خُربشت بكلمات لاتينية غير مفهومة.

لكن إبيميثيوس كان يتّسم بالبطء الشديد في عمله. وفي نظر الرجال الآخرين، يُعدُّ فتىً بليدًا يفتقر للجرأة، وذا أفكارٍ باليةٍ... إلخ، وأنه لم ينجز من عمله سوى القليل، ولم يُقدّم شيئًا طوال سنوات. لكن كلُّ ما أنجزه إبيميثيوس لاحقًا، لم يضطر للعمل عليه مرةً أخرى بعد إنجازه.

وماذا حدث خلال ذلك؟ أقبلت على الأخوين مخلوقةٌ هي آيةٌ في الحُسن، أجمل من أيِّ مخلوقٍ سبق وأن رأيتُه على الإطلاق، وكان اسمها باندورا، والذي يعني «كل عطايا الآلهة»، لكن لأنها كانت تحملُ بين يديها جرّةً غريبةً منقوشٌ عليها: (لا تفتح)، لم يأبه بروميثيوس غريب الأطوار، كثير التوهم، واسع الخيال، الاستدلالي الذي داوَمَ على التنبؤ والبت فيما سيحدث، بأمر هذه الحسناء باندورا ولا بجرّتها.

غير أنها حَلَبَتْ لُبَّ إبيميثيوس، فأخذها هي وجرّتها، مثلما استولى على كل ما وُجدَ، وأخذها زوجًا له في السراء والضراء كما يجدر بكل رجلٍ متى ما سنحت له فرصةٌ لأن يتزوَّج زوجةً سالحةً. ثم اتفقا سرًّا على فتح الصندوق لرؤية ما كان بداخله طبعًا، وإلا ما الفائدة التي يمكن أن تعود عليهما من كونه صندوقهما؟

وما إن فتحا الصندوق، حتى خرجت منه كلّ الشرور التي تُصيب الجسد، كلّ أبناء الغيلان
العمالقة الأربعة: العناد، الدنس، الجهل، والخوف، ونشروا معهم:

الحصبة والمجاعات

الرهبان والدجالين

الحمى القرمزية والفواتير غير المدفوعة

عبادة الأوثان

السعال الديكي

الباباوات

النببذ الفاسد

الحروب

الطغاة

دعاة السلام والغوغائيين

والأسوأ من ذلك كله أولاد وبنات أشقياء! لكن، ثمّة أمرٌ واحدٌ ظلّ قابلاً في قاع الجرّة وهو:
الأمل.

وهكذا، فقد واجه إبيميثيوس قدراً كبيراً من الصّعب، كما هو حال معظم البشر في هذا
العالم: غير أنه حظي بأعظم ثلاثة أشياء في العالم: زوجة حسناء سالحة والتجربة والأمل.
في حين أن بروميثيوس واجه نفس القدر من الصّعب، بل واجه الأصعب لقاء أفعاله دون

أن يكسب شيئاً، ما خلا الأوهام التي ينسجها في دماغه كما تنسج العنكبوت شبكتها من بطنها!

وظل بروميثيوس ينظرُ أمامه متقدِّماً على أخيه بفارقٍ كبيرٍ. وبينما كان يركض سارقاً شعلة النار، والتي كانت الشيء الوحيد النافع الذي أقدمَ على فعله - مع أن ضررها كان بقدرِ نفعِها - تعثرَ وهوى على وجهه - كما هو حال معظم الفلاسفة الاستنتاجيين - ومن خلال ذلك أضرَمَ النيران حول نهر التايمز، وبالكاد تمكّنوا من إطفائها مرةً أخرى. فكان لا بُدَّ من تقييده بالسلاسل إلى قمة جبل، ووضعوا نسرًا فوق رأسه لكي ينقر كبده كلما فكَّر بالتحرك، مخافةً أن يقلب العالم كله رأسًا على عقب، بسبب نبوءاته ونظرياته.

إلا أن إبيميثيوس مضى يعمل ويحفر بكدحٍ بمساعدة زوجته باندورا، وداوم على الالتفات للنظر خلفه ليفهم ما حدث، حتى تعلَّم بالفعل ما سيجري لاحقًا من حينٍ لآخر. وبات يعرف جيدًا أيّ جانبٍ من خبزه مدهونٌ بالزبدة، ولأيّ اتجاهٍ قفزت القطة. وبدأ يصنع آلات تُجدي نفعًا، وواصل عمله أيضًا في حراثة وتصريف الأرض، وصناعة أذرع المجاديف والسفن والسكك الحديدية، ومحاريت البخار والتلغراف الكهربائي وجُلّ الأمور التي ترونها في معرض قصر الكريستال الكبير، وحتى التنبؤ بالمجاعة والأحوال الجوية السيئة وأسعار الأسهم، والأدهى من كل ذلك هو التنبؤ بالتقلُّبات التالية للغول الكبير ويرليج، الذي يدعوهُ البعض - بالرأي العام - إلى أن أصبح أخيرًا غنيًا كأنه يهودي، وسميًّا كأنه مزارعٌ. وبات الناس يفكِّرون مليًّا قبل أن يتورطوا معه، ولا يفكرون أبدًا قبل أن يطلبوا منه مساعدتهم؛ لأنه كان يكسب أمواله كما يجب، وباستطاعته أن يُنفقها كما يجب بالمثل. وأمّا ذريته فقد أصبحوا رجالِ عِلْمٍ ينجزون عملاً عظيمًا على الدوام في هذا العالم. بينما أصبحت ذرية بروميثيوس مُنظرين يغلب على شخصياتهم التطرف والتعصب، يتَّسمون بثقلِ الدم والتفاهة، مهذارين يخبرون السخفاء بما سيحدث، عوضًا عن البحث لمعرفة حقيقة ما حدث بالفعل.»

حسنًا، ألم تكن قصة الأم كاري، قصةً رائعةً؟ ويسرُّني القول أن توم صدَّق كل كلمةٍ فيها.

وهذا ما حدث لتوم بالمثل. حيث مرَّ بتجارب قاسية. وعلى الرغم من ذلك، ومن خلال جعل الكلب يسير في إثره – أو بالأحرى أن يمشي على رؤوس أصابعه، فقد صار لزامًا عليه أن يسير وهو ينظر خلفه – وصار بوسعه أن يرى بصورة أفضل الاتجاه الذي يبحث عنه الكلب غير أن مهمته صارت أبطأ بكثيرٍ بسبب السَّير رجوعًا بدلًا من المُضي قُدُمًا إلى الأمام.

يَبْدُ أن الأمر الأشد غرابة هو أنه ما إن خرج من «مَعين السلام» حتى هرع صوبه كُلُّ السَّحرة والمشعوذين والعرافين والمنجمين، والمتنبئين، والكشافين، والمهابين، بقدر ما كانوا موجودين في تلك الأفاصي – وثمة الكثير منهم في كل مكان – والأم العجوز شيبتون على مكنستها برفقة ميرلين وتوماس الشاعر، وغيربرتوس، ورابانوس موروس، ونوستراداموس، وزادقييل، ورافائيل، ومور، ونيكسون العجوز، والعديد العديد ممن يرتدون معاطف داكنة اللون وأربطة عنق بيضاء، ممن يعرفون الكثير بالنظر إلى القرن الذي وُلدوا فيه، وكانوا جميعهم يصيحون ويصرخون على توم:

«انظر إلى الأمام. انظر إلى الأمام فحسب. وسوف نُريك ما لم يَرَهُ أيُّ بشريٍّ من قبل، صوب حدود العالم».

ولكن، من دواعي فخري القول، بأنَّ توم، وبالرغم من أنه لم ينشأ في كامبريدج، لأنه لو كان قد نشأ هناك، لكان بالتأكيد من أول المشاكسين! إلا أنه كان صبيًّا إنكليزيًّا رائعًا، عنيدًا صلبًا، وبات صبيًّا طيبًا جديرًا بالثقة والأمانة لدرجة أنه لم ينظر أمامه ولو لمرةٍ واحدةٍ طوال الطريق من معين السلام إلى الطرف الآخر من اللامكان وحتى النهاية، وإنما أبقى ناظره على الكلب وحثه على اقتفاء أثر الرائحة، سواء كانت الوجهة لبقعةٍ حارةٍ أو مثلجَةٍ، وسواء كان الطريق إليها مستقيمًا أو ملتويًا، نديًا أو جافًا، منحدرًا أو واديًا منبسطنًا! ولم يرتكب ولو خطأً واحدًا بأي وسيلةٍ من الوسائل، حتى رأى العجب العجاب، كل ما لا يخطر على بال أيِّ بشريٍّ فإن حتى الآن، والتي من واجبي أن أفصِّها عليكم في الفصل التالي.

الفصل الثامن والأخير

هلموا إليّ يا صغار

فقد سمعتكم أثناء لعبكم

والأسئلة التي حيرتني

تبدّث وتلاشت تمامًا.

وشرعوا نوافذكم الشرقية

التي تطلُّ على اتجاه الشمس

حيث الأفكار تغني مع السنونوات،

وجداول الصباح تجري.

ماذا تساوي كل ابتكاراتنا

والحكم المستقاة من كتبنا،

قياسًا بملاطفاتكم

وبهجة نظراتكم البريئة؟

أنتم أجمل القصائد كلها

أجمل مما تغنوا به من قبل

لأنكم قصائدُ خالدةٌ لا تموت

وكلُّ ما عداكم يموت ويفنى

لونغفيللو.

وهنا، تبدأ القصة التي لن تُبالغ كثيرًا في روايتها أحداثها التسعمئة وتسع وتسعين من العجب العُجاب الذي رآه توم في رحلته صوب الطرف الآخر من اللامكان. وهذا الجزء الذي نوّد من الصغار الطيبين قراءته في حال قرروا السفر إلى الطرف الآخر من اللامكان - وهم على الأرجح قرروا السفر إلى هناك منذ حديثنا عنه - كي لا ينفجروا ضاحكين أو يُحاولوا الهروب أو الإقدام على أيّ تصرّفٍ بذيءٍ آخر قد يُسيء إلى السيدة الجنيّة بدايد.

بعد أن غادر توم مَعين السلام، وصل إلى الكنف الأبيض لأمّ البحار العظيمة على عمق عشرة آلاف قامة. حيث تُطبخ أغذية أطفال العالم طوال اليوم على يد عمالقة البخار المكلفين بمهمة عجن العجين وعمالقة النار المكلفين بالخَبز والتحميص. فخبزوا الأغذية كلها حتى تكدست وارتفعت إلى جبلٍ من الأرغفة وجزيرة كاملة من الكعك. وكان توم على وشك أن يُعجن مع أغذية صغار العالم، ويتحوّل إلى طفلٍ مائيٍّ أحفوريٍّ وكان سيثير دهشة الجمعية الجيولوجية لنيوزيلندا بعد مئات الآلاف من السنين.

وبينما راح يسبح في الصمت المطبق في ظلمات البحر فوق قاع المحيط الناعم المبيض، سمع صوت هسهسةٍ وزمجرةٍ وخبطٍ وضخٍ كأنما ينبعث من كل الماكينات البخارية بالعالم في آنٍ واحدٍ. وعندما اقترب أكثر، أصبَحَت المياه شديدة السخونة، ولكن ليست سخونة المياه ما أزعجه على الإطلاق، وإنما رائحة المياه التي صارت كريهةً مثل رائحة العصيدة. وكان في كل لحظةٍ يتقدّم فيها يتعثّر بالمحار الميت، والأسماك، وأسماك القرش، والفقمات، والحيتان، التي قُتلت كلها بسبب المياه الساخنة.

وفي نهاية المطاف، وصل توم إلى تينين بحر هائل ملقى ميتًا في القاع، وبما أنه كان تنيئًا ضخمًا للغاية، لم يتمكن توم من العبور من فوقه، لذلك كان على توم أن ينعطف حوله ويدور ثلاثة أرباع ميل وأكثر، مما أبعدته عن مساره للأسف، وحينما عبر التينين، وصل إلى مكانٍ منقوشٍ على لافتةٍ بقربهِ «توقّف». وهناك توقّف توم في الوقت المناسب.

لأنه كان على حافة تجويفٍ صخريٍّ واسعٍ يمتدّ إلى قاع البحر، يصّاعد منه بخارٌ صافٍ ومدوّ بقدرٍ يكفي لتشغيل كلِّ محركات العالم في نفس الوقت. كان البخار في غاية النقاوة، وفي الواقع، كان بخفة الضوء غالبًا، حتى إن توم تمكن من رؤية ما يصل إلى قمة المياه في الأعلى، وما يصل إلى القاع في هوةٍ ما من أحدٍ يعرف عمق مداها.

ولكن، بمجرد أن مال توم برأسه من على الحافة، حتى تلقى ضربةً على أنفه من حصيات جعلته يرتد للخلف من جديد. فإثناء تدفّق البخار مندفعًا للأعلى، فإنه يقتلع الحصى من على جانبيّ التجويف ويقذفه إلى البحر أكوامًا من الطين والحصى والرّماد ومن ثم تنطير في كل مكانٍ حتى تغوص مرةً أخرى لتختفي أسفل الأسماك النافقة بسرعةٍ كبيرة، وقبل أن يتمكن توم من الوقوف منتصبًا خلال دقائق، دُفِنَ في الطمي حتى كاحله، وبدأ الذعر يسري في أوصاله خوفًا من أن يتمّ دفنُه حيًّا. ولربما كان سيُدْفَنُ حيًّا بالفعل غير أنه وأثناء انغماسه بهذه الفكرة، تزلزلت البقعة المرمي فوقها وتفجّرت عاليًا ومعها، طار توم بعيدًا على ارتفاع ميلٍ عبر البحر، متسائلًا عمّا سيحصل بعد ذلك! حتى توقّف أخيرًا مصحوبًا بصوت ارتطامٍ، ووجد نفسه ممسكًا بساقي أجمل عربيةٍ رآها في حياته. وكان لهذه العربية دواليبٌ أجهلٌ عددها. كل واحدٍ منها بحجم دواليب طاحونةٍ هوائيةٍ، وكانت منبسطةً على هيئة حلقاتٍ مثلها. وبواسطة هذه الدواليب، أخذت العربية تحوم فوق تيار البخار الذي يفور مندفعًا للأعلى، كما تتحرّك الكرة فوق نافورة.

ومن كل دولاب علويّ، تظهر ساقٌ ممتدةٌ للأسفل، في طرفها كَفٌ تُشبهُ المشط، ومن قاعدته يبرز منخار. أما وسط الدولاب، فليس ثمة بطن واضحة، فقط عين واحدة. وفيما يتعلّق

بَفَمِهِ، فكان ممتدًا كله على جانبٍ واحدٍ كما هو الحال في نجم البحر. حسناً، لقد بدا مخلوقاً غريباً للغاية، ولكن ليس بأغرب من عشرات المخلوقات التي قد تراها.

«ما الذي تفعله هنا؟» صاح المخلوق بنبرةٍ حادةٍ جداً. «أتعترض طريقك؟»، وأراد أن يُلقي بتوم، إلا أن توم ظل متمسكاً بكفّي المخلوق، معتقداً أنه أكثر أماناً هناك.

فأخبره توم من هو، وما هي مهمته، عندها، طَرَفَ له ذلك المخلوق بعينه الوحيدة وقال ساخرًا:

«إنني أذكى من أن يتم خداعي بأحاييلك هذه. أجزمُ أنك تسعى وراء الذهب.».

«ذهب؟ أيُّ ذهب؟!».. قال توم. وفي الحقيقة لم يكن يعرف شيئًا، لكن العربة المرتابة لم تصدِّقهُ.

ولكن بعد دقائق، بدأ توم يستوعب الأمر شيئًا فشيئًا. لأنه، وخلال تصاعد الأبخرة من ذلك التجويف، بدأت العربة باستنشاق الأبخرة من خلال أنفها، ثم تفحصتها وقامت بتصنيفها باستخدام كَفِّها الشبيهة بالمشط. وعندما تندفع الأبخرة من خلالها باتجاه دواليبها، تحوَّلت لوابلٍ وسيولٍ من المعادن. حيث سقط من أحد الدواليب مسحوق الذهب، ومن الأخرى سقط الفضة ومن الدولاب المجاور النحاس، والقصدير من الآخر، والرصاص من الأخير وهلمَّ جرا، وغاصت كلها في الطين الرخو وفيما بين الشقوق وتصلَّبَتْ هناك. ومن هناك، جاءت فكرة الصخور المليئة بالمعادن التي تأتي منها. ثم، قام شخصٌ ما بإيقاف تدفق الأبخرة من الأسفل على نحوٍ مباغتٍ. وصار التجويف فارغًا بلمح البصر. ثم تدفَّقت المياه إلى التجويف في دوامةٍ من التيارات السريعة، حتى دارت معها العربة ودارت بسرعةٍ عاليةٍ كما يدور خُذروف الحظ (42). وهذا كل ما كان عليه إنجازُه من عمله اليومي، كما لو أنه يخوض مطاردةً برفقة كلاب الصيد. لذا كل ما فعله هو أن يقول لتوم:

(42) لعبة أطفال وهي بيضة خشبية أعلاها رأس مستدير وفي أسفلها مسمار يُدار عليه خيط يُمسك نصفها ويظل طرفه عالقا بأحد أصابع اليد عندما تُرمى أرضًا لتدور على نفسها دورات سريعة جدًا.

«الآن، إنها فرصتك أيها الصغير، لتنزل، إن كانت نيتك صادقة، وهذا ما أشك فيه!».

«سترى ذلك قريبًا».. أجاب توم، ومضى بعزيمة وجرأة كالبارون مانشهاوزن (43) منطلقًا عبر الشلال المنبجس كأنه سلمون يعبر مدينة باليساداري. ولما بلغ القاع، أبحر وأبحر حتى جرفته المياه إلى الساحل المحاذي لـ «الطرف الآخر من اللامكان» آمنًا. ففوجئ توم – كآخرين غيره – عندما رآه شبيهًا بهذا «الطرف من المكان» أكثر مما كان متوقعًا.

(43) شخصية في رواية نشرت عام 1785 عن نبيل ألماني خيالي كتبها الكاتب الألماني رودولف إريك راسبي.

فتوجّه في البداية إلى أرض النفايات الورقية، حيث رأى الكثير من الكتب العادية مكدّسة في أكوامٍ من أعالي التلال وحتى قاع الوادي، كأنها أوراقٌ متساقطة من غاباتٍ شتوية. وهناك، رأى أناسًا يُفتّشون وينكشون فيما بين الكتب، ليصنعوا كتبًا أسوأ من الكتب السيئة، وآخرين يفصلون العصافة – قشر الحنطة – ويحفظونها من الأتربة. حتى جعلوا منها حرفةً ناجحةً لا سيّما بين الأطفال.

ثم توجّه إلى بلاد تفيض بمختلف أنواع الأطعمة، تحدّها مرتفعات تعيث فيها الفوضى. حيث الأرض دبقّة جدًا لأنها مصنوعةٌ كلّها من حلوى التوفي الفاسدة – التي لا تشبه حلوى إيفرتون توفي طبعًا – ومليئةٌ بالشقوق العميقة. الجحور تغصُّ بالفاكهة التي تذروها الرياح، المشمش الأخضر الشائك والخوخ والسلطعون والتوت البري والزعرور وكل الأطعمة البغيضة التي يحبها الصغار ويقبلون على أكلها كلما استطاعوا الحصول عليها.

غير أنّ الجنّيّات يقيمّن بإخفائها من الطريق في ذلك البلد بأسرع ما يمكنهنّ بعد عملٍ شاقّ، مع أنّ جهودهن تذهب سدى على الدوام! فما إن يجرفن كل تلك الأطعمة، حتى يتسبّب الحمقى والأشرار بالمزيد من التفاهات المليئة بالليمون الأخضر الحامض وأصباغ الطعام السامة. وفي الواقع، يتجرّؤون على سرقة وصفات الطهي من كتاب مدام ساينس الكبير القديم، ليبتكروا السموم للصغار، وبيعها في المخازن والمعارض والمتاجر!

حسنًا جدًّا. دعهم يستمرون في ذلك.

صحيحٌ أنّ الدكتور هنري ليثبي والدكتور آرثر هاسال قد عجزا عن النيل منهم، مع أنّهما ينصبان الفخاخ لهم طوال اليوم. بيّد أنّ الجنّيّة التي تحمل عصا البتولا ستقبض عليهم جميعًا في الوقت المناسب، وتجبرهم على تناول وصفات أطعمتهم من أحد أركان محالّهم التجارية، وتناول كل ما في طريقهم وصولًا إلى الأركان الأخرى حتى يُصابوا بآلام المعدة، بقدرٍ كافٍ ليتوبوا عن تسميم الأطفال الصغار.

بعد ذلك رأى توم، كل الأقسام الموجودين في العالم يؤلفون الكثير من الكتب الصغيرة في العالم عن الأقسام الآخرين في العالم، لكونهم لا يملكون أناسًا عظماء كي يؤلّفوا كتبًا عنهم في أغلب الظن. وإن لم تحمل قصصهم عناوين من قبيل «صريير الباب»، «عامل المضخة»، «مضيق العالم الضيق»، «هضاب القيل والقال»، «عيد الأطفال الثرثارين»، فما الذي عساها أن تحمله؟ فقرأ بقيّة الأقسام الموجودون في العالم هذه الكتب، وأخذ كل فردٍ منهم يعتقد بأنه شخصية لا مثيل لها كما يرى رئيس الجمهورية نفسه. ولعلمهم كانوا على حقّ، فكلُّ امرئٍ أدري بما يعنيه على نحوٍ أفضل من غيره. لكن توم حَسِبَ أنّه سيسمع عمّا قريبٍ، قصةً خياليّة تحبس الأنفاس عن «جاك قاتل العمالقة» أو عن «الحسناء والوحش» التي لَقَّنْتُهُ درسًا، لم يكن يعرفه من قبل.

وصل توم بعد ذلك إلى مركز الخلق، كما يدعونه، والذي يقع على خط العرض 42.21 درجة جنوبًا، وخط الطول 108.56 درجة شرقًا.

وهناك رأى حكماء العالم كلهم، من همكين بتعليم البشرية علم التواصل الروحاني مع الأموات، فيما كانت منازلهم تحترق على رؤوسهم. وعندما أخبرهم توم عن النيران لتحذيرهم، عقدوا اجتماعاً على الفور، يئنم على امتعاضهم وغضبهم، وأزمعوا أمرهم بالإجماع على شنق كلب توم لدخوله بلادهم وهو يحمل البارود في فمه بالإضافة لمضايقتهم. فلم يسع توم إلا أن يقول لهم:

«مع أنكم تخالون أنكم أخذتم معكم كل سيمّة من سمات الذكاء والحنكة إبان خروجكم من ريف لينكولنشاير منذ مئتي عام، لكن لو يوجد بينكم رجل نبيل واحد تسري بعروقه دماء لينكولنشاير أمثال لورد ياربورو العجوز الطيب، لكان قد استدعى سيارات الإطفاء قبل أن يشنق كلاب الآخرين.»

لكن ما قاله توم لم يجد نفعاً. فشنعوا الكلب، ولم يسمحوا لتوم بالحصول على جثة كلبه حتى. لأنهم أبطلوا قانون «استرداد جثة الحيوان» في ذلك البلد، لكي لا يتصرف الناس الطيبون من تلقاء أنفسهم وقت انصراف الأوغاد. وبهذه الطريقة كانوا سينجحون في مسعاهم على أتم وجه - كما ينجحون دومًا - لكنهم أخفقوا في أمر واحد بسيط - كما يخفقون دومًا - ألا وهو أن الكلب لم يمُت، لكونه كلبًا مائيًا! وإنما انقضّ على أصابع أيديهم بطريقة عدائية مخيفة، مما أرغمهم على إطلاق سراحه وتوم كذلك، بصفته من الرعايا البريطانيين. ثم استأنفوا من جديد، طقوس استدعاء أرواح أسلافهم. ولما حضرت أرواح الأسلاف ذهلوا أيما ذهول عندما رأوا كيف وهنت أجساد ذريتهم بسبب الحياة المعيشية الصعبة بحسب قانون السيدة بدايد.

ثم بلغ توم جزيرة پولوبراغ موسين والتي يدعوها البعض ميناء المحتالين، مع أنهم غير محققين بهذه التسمية لأن تلك الجزيرة تقع في وسط أحراش أبرشية برامشيل، وأن شرطة هذه المقاطعة قد مشطت المكان من الأوغاد منذ زمن بعيد.

حيث نرى هناك، أن كل فرد ملّم بشؤون جاره أكثر من شؤونه الخاصة. وكما هو متوقع، يُعدّ هذا المكان، مكانًا حافلًا بالصخب بالنظر إلى أن جميع السكان بحكم مناصبهم على

الجانب الخاطئ من الأبرشية في «برلمان الإنسان، واتحاد العالم» حيث يصنعون ابتساماتٍ ساخرةً على الدوام، ويشتكون من كون عنب الجنيات حامضًا.

ورأى توم هناك المحارث تسحبُ خيولًا، والمسامير تدقُّ المطارق وأعشاش الطيور تسرق الصبية، والكتب تؤلّف المؤلفين، والثيران تدير دكاكين الخزف، والقردة تهاجم القطط، والكلاب الميتة تروّض الأسود الحيّة، والعمداء المكفوفين يُعلّقون كمديرين للكليات، والممثلين لا يؤدّون أدوارًا أقلّ من مبشّرين شعبيين. وباختصار، كل فردٍ منهم مستعدٌّ للقيام بما لم يختبره، لأنه فشل فشلًا ذريعًا فيما خبّره، أو فيما ادّعى معرفته.

وهناك ينتصب معبدٌ للفاشليين العظام، من بُناة برج بابل إلى بُناة نوافير ميدان ترافلغار، حيث يُلقى السياسيون محاضرات عن الدساتير التي ينبغي أن تُكتب، وعن المتآمرين على الثورات التي كُتِب لها الانتصار، وعن خبراء الاقتصاد في خططهم التي من شأنها أن تصنع ثروة كل فرد، وعن آلات تسليط الضوء على الاكتشافات التي من شأنها إضرام الحرائق في نهر التايمز.

ويحاضر الإسكافيون في موضوع تقويم التشوّهات الجسمانية - أيًا كان ذلك - لأنهم لا يستطيعون بيعَ أحذيتهم. ويحاضر الشعراء عن فلسفة الجمال - مهما يكن معناه - لأنهم يعجزون عن بيع قصائدهم. ويعلن الفلاسفة أن إنكلترا ستكون أغنى وأكثر البلدان حريةً في العالم فيما لو عادت إلى الكاثوليكية مرّةً أخرى. وحيث يسيئ الصحفيون المأجورون لصحيفة التايمز، لأنهم لا يمتلكون الدهاء الكافي للانضمام إلى موظفيها. وحيث تنزّه السيدات الشابات وهنّ يرتدين قلاداتٍ مدلاةً تضمُّ بداخلها شعرةً من ملك إنكلترا تشارلز الأول - أو شعرةً شخصٍ آخر حين يتمّ استنزاف سلالة اليهود الحقيقية - منقوش بداخلها أسطورة عظيمة مثيرة للاهتمام، أسطورة شهيرة بين سكان تلك البلاد، والتي كما أمل، سوف تتعلّم ترجمتها في الوقت المناسب وأن تفكر بها مليًا كذلك:

«مسألة الانتصار قد تُرضي الآلهة، لكنّ الشابات يتحيّزن للمغلوب» (44).

(44) مقطع من القصيدة الملحمية الرومانية «فارساليا» التي كتبها الشاعر لوكان. تتحدث بالتفصيل عن الحرب الأهلية بين يوليوس قيصر وقوات مجلس الشيوخ الروماني بقيادة بومبيوس الكبير.

وعندما بلغ وسط المدينة، هرع الجميع نحوه في الحال ليرشدوه إلى الطريق، أو بالأحرى ليُظهروا له أنه يجهل طريقه. أما بالنسبة لسؤاله عن وجهته، فما من أحدٍ فكَّرَ بهذا السؤال قط! وإنما راح أحدهم يشدهُ إلى هنا، وآخر يجذبهُ إلى هناك وثالثٌ يصيح:

«احذر من التوجُّه غربًا، التوجُّه غربًا يؤدِّي بك إلى الهلاك.. اللهم إني بلَّغت!»

«لكّني لن أذهب غربًا».. أجابه توم.

فيما ردَّ عليه شخصٌ رابعٌ:

«يقع الشرق من هنا يا عزيزي، أجزم لك».

«لكّني لا أنوي الذهاب شرقًا».. قال توم.

«حسنًا، إذن على أيِّ حال، أيًّا كان الطريق الذي ستسلكه، فإنك تسير بشكلٍ خاطئ».. صاح الجميع بصوت واحد! وهذا هو الأمر الوحيد الذي اتَّفَقوا عليه! وأشاروا كلهم في وقتٍ واحدٍ إلى الاثنين وثلاثين نقطة كلها في اتجاهات البوصلة، حتى حُيِّل لتوم أن كل العلامات الإرشادية في إنكلترا قد التَّقَّتْ، وانهارت!

وما كان لأحدٍ أن يعرف ما إذا كان سيخرج توم يومًا من وسط تلك المدينة لو لم ينتبه الكلب إلى أنهم سيمزقون سيدهُ إلى أشلاء. فانقضَّ بعنفٍ بالغٍ على عضلات سيقانهم، الأمر الذي جعلهم يتركون توم وشأنه، وينشغلون بإصابات سيقانهم. وبينما راحوا يدلِّكون سيقانهم المعضوضه، تمكَّن توم والكلب من الفرار بأمان.

وعند حدود تلك الجزيرة عثر توم على مدينة غوثام، حيث يعيش بشرٌ حكماء، أولئك الذين جرّوا البركة من مكانها لأن القمر قد سقط فيها، وحاصروا طيور الوقواق بسياج من الشجيرات للحفاظ على ملامح فصل الربيع طوال العام. حيث وجدهم توم يطوّقون بوابة المدينة، لأنها كانت واسعةً جدًا بحيث يخجل الأقرام من العبور خلالها. وعندما سألهم توم عن السبب أخبروه؛ لكي يوسعوا طقوسهم الدينية. فمضى في طريقه لأن ذلك لم يكن من شأنه، إلا أنه لم يسعه إلا أن يقول إن في بلده، إن لم تتمكّن الهرة من الدخول من نفس الجحر الذي يدخل منه القط، فإنها ستبقى خارج مأواها وتظل تموء!

لكنه رأى نهاية هؤلاء الناس، عندما وصل إلى جزيرة الحمير الذهبية، حيث ما من شيء ينمو هناك سوى الأشواك. وحيث استحالوا جميعًا إلى حمير ذات آذان بطول مترٍ. لأنهم يحشرون أنوفهم في أمور لا يفقهون منها شيئًا مثلما فعل لوشيوس في قصة الحمار الذهبي (45). ومثل لوشيوس، لا بدّ أن يظّلوا حميرًا. اللهم إلا إذا صارت الأشواك وروداً وفقاً لقوانين التطور. وحتى ذلك الحين، يجدر بهم تسرية الهَمّ عن قلوبهم بفكرة أنه كلما طالت آذانهم، كلما غلّظت جلودهم وهكذا لن يضرّهم الضرب المبرّح.

(45) قصة الحمار الذهبي أو التحولات رواية كوميدية للكاتب اللاتيني لوشيوس أفولاي تدور القصة حول فضول بطل الرواية والرغبة الجشعة في رؤية وممارسة السحر. بينما كان يحاول تنفيذ تعويذة للتحويل إلى طائر، تحول بالصدفة إلى حمار، وهذا يقود إلى رحلة طويلة، حرفية ومجازية، مليئة بالحكايات الصغيرة.

ثم وصل توم إلى أرض الشائعات الشهيرة حيث لا يقلّ عدد الملوك الذين يحكمونها عن ثلاثين ملكًا وتيف بالإضافة إلى ستّ جمهوريات، وربما أكثر في البريد التالي.

وصادف هناك حربًا ماكرةً مميتةً مدمرةً ومظلمةً، شنها أمراء وملوك تلك الأصقاع لأسباب دينية وديوية على حدّ سواء. وعلامَ برأيك؟ على أمرٍ واحدٍ مُتأكّدٍ منه، ولن تعرفه أبدًا، ولن تعرف كيف شنّوا تلك الحرب أيضًا ما لم أخبرك أنا عن ذلك. ورغم كل استراتيجياتهم

وفنونهم الحربية التي توقفت على إجراءات يسيرة وآمنة، فإنهم يغلغون آذانهم ويصرخون:

«أوه، لا تخبرونا!» ومن ثم يلوذون بالفرار.

لذلك، وعندما دخل توم إلى تلك الأرض، وجد كل من فيها رجالاً ونساءً وصغاراً في كل مكان يواصلون الليل بالنهار هرباً في محاولة منهم للنجاة بحياتهم، يتوسلون ألا يُخبرهم أحد بما لا يعرفونه، ما عدا أن هذه الأرض هي مجرد جزيرة، وأنهم يكتنون الكراهية للمياه. ولكون الجزيرة جزءاً كبيراً من هذه الأرض الضاربة في القدم غالباً، أخذوا يلقون ويدورون حول الساحل إلى الأبد، وكان ذلك عملاً شاقاً، نظراً لأن الجزيرة كانت على نفس محيط الكوكب الذي نتشرف بالعيش عليه، لا سيما بالنسبة لأولئك الذين لديهم أعمال يتعين عليهم رعايتها.

وكان يتقدمهم رجلٌ بصفته مايسترو يُحتذى به، وكان يجزُّ خنزيراً – من السلالات التي ساقتها الحيوانات على الدوام، إن لم يكن للغزو، للفرار – ومما ساعد على رفع معنوياتهم، فكرة أنهم سيحصلون على جلد الخنزير مقابل ما يكابدونه من ألم.

وبعد الركض وراءهم ليلاً ونهاراً، ظهر عملاق عجوز هزيل وطيب، يغلب على مظهره الرثاثة والقذارة والبؤس، وكان يبدو كما لو أنه راضٍ بعد أن تناول طعاماً شهياً من يد زوجته الطيبة التي تعتني به، ولعب مع صغاره. لذلك، بدا عجوزاً حسن الطلعة رغم كل شيء، فقد كان يملك قلباً رحيماً مع أن قلبه يتسيّد على عقله إلى حدٍّ بعيد.

كان يتزيّن بعظام الأسماك وورق البرشمان المصنوع من جلد الحيوانات بالدرجة الأولى ملمومةً معاً بخيطٍ ولاصقٍ بلسم كندا(46) وكانت تفوح منه رائحة كحول شديدة مع أنه لا يتناول شراباً غير الماء! غير أنه كان يوظف المشروبات الكحولية بطريقةٍ أو بأخرى ولا سبيل لإنكار ذلك.

(46) ويعرف أيضًا باسم بلسم التنوب أو تربنتين كندا وهو راتنج زيتي يُحصَل عليه من البلسم الذي يفرز من لحاء شجرة التنوب على شكل سائل أصفر لزج او مائل للاخضرار إذ يشبه في ذلك لزوجة عسل النحل ولكنه يصبح صلبًا وشفافًا خلال مراحل جفافه ويستعمل بصورة أساسية كلاصق لتثبيت العينات المجهرية وفي بعض المجالات الصناعية.

كان يصعُ زوجًا من النظارات الكبيرة على أنفه، ويحمل في يد شبكة خاصة لاصطياد الفراشات، ويحمل في اليد الأخرى مطرقة صخور. وكان يتسكع في كل مكانٍ ومعه أجرية مليئة بصناديق التخزين كالزجاجات والمجاهر، والتلسكوبات والبارومترات وخرائط تفصيلية ومباضع وملاقط، وأجهزة تصوير، وجميع الأدوات الأخرى الخاصة بمعرفة كل شيءٍ حول كل شيءٍ، وأكثر أحيانًا. والأغرب من كل ذلك، أنه لم يكن يركض وهو ينظر أمامه وإنما ينظر خلفه وبأسرع ما يمكن. حتى فرَّ كل الناس هربًا منه، باستثناء توم الذي صمد متمسكًا بموقفه. ثم تملَّص من بين ساقيه، وعندما اجتازهُ نظر العملاق إلى الأسفل مدرِّكًا ما حدث، وصاح، كما لوأنه لقي المواساة مبهتجًا.

«ماذا؟ من أنت؟ إنك لا تهرب مثل البقية! يا للواقع المثير للدهشة!».. قال العملاق لتوم الذي اضطرَّ لخلع نظارته لكي يراه بوضوح، كما لاحظ توم.

حدّثه توم عن نفسه. فأخرج العملاق زجاجةً وسدادةً فلينيةً لأخذ توم ووضعها بداخلها. إلا أن توم كان أذكى من ذلك بكثير، فتحايل عليه وراوغه حتى تملَّص من بين ساقيه وعلى مرأى منه، حتى تعدَّر على العملاق رؤية توم بالمرّة.

«لا، لا، لا! لم أجب أنحاء العالم وما حول العالم، وصولاً إلى مملكة الأم كاري، ولم أشهد حادثة اصطيادي في شباك البروفيسور الذي دعاني بخيار البحر وأبتر الذيل، ليقوم عملاق عجوزٌ مثلك بتعبئتي داخل زجاجة واحتجازي!».. علّق توم.

وعندما أدرك العملاق كم كان توم رَحَّالًا عظيمًا عقد معه هدنةً في الحال، وكان سيبقيه هناك حتى يومنا هذا ليستقصيه ويطلب مشورته، فقد سُرَّ للغاية بعثوره على شخص يروي له ما لم يكن يعرفه من قبل.

«أوه يا لك من صغيرٍ محظوظ!».. قال العملاق في نهاية المطاف بنبرة بسيطة للغاية، لأنه كان عملاقًا متواضعًا لطيف المعشر، نزيهاً ومحسناً كما لو أنه ذو صلةٍ بدمويني سامبسون (47) الذي قلب العالم رأسًا على عقب دون أن يقصد ذلك.

(47) عالم فقير ومتواضع، كان قد شق طريقه خلال الأدب الكلاسيكي، لكنه سقط في رحلة الحياة.

«أوه أيها الصغير كم أنت محظوظ. ليتني كنتُ مكانك لأرى ما رأيته».. قال العملاق

«طيب، إن أردت القيام بذلك، فمن الأفضل أن تضع رأسك تحت المياه لبضع ساعات كما فعلت، والتحوُّل إلى طفلٍ مائيٍّ أو لهيئةٍ أخرى. عندها، قد تحظى بفرصةٍ».. أجاب توم.

«أتحوُّل إلى طفل؟ لو أستطيع فعل ذلك ومعرفة ما كان يحدث لي لمدة ساعةٍ واحدةٍ فقط، لفهمت كل شيء حينها وعشتُ خليّ البال! لكنني لا أستطيع. لا يمكنني العودة إلى طفلٍ صغيرٍ مرةً أخرى، ولنفترض أنني تمكنتُ من ذلك فلن يُجدي الأمر نفعًا، لأنني حينها لن أكون ملِمًا بما حدث لي. يا لك من صغيرٍ محظوظ..».. أجاب العملاق العجوز البائس.

«لكن لِمَ تطارد هؤلاء الناس المساكين؟».. سأل توم، الذي أحبَّ العملاق كثيرًا.

«إنهم هم من يلاحقونني يا صغيري العزيز، الآباء والأبناء منذ مئات السنين. ويرشقونني بالحجارة لدرجة أنهم أوقعوا نظارتي خمسين مرة، إنهم ينعنونني بالتركي الخبيث المُعمَّم – الذي هزم البندقية وشوّه سمعة الدولة – (48) والرَّبُّ وحده من يعرف ما يقصدونه. فلم يسبق لي أن قرأتُ الشعر. إنهم يطاردونني في كل مكانٍ مع إنهم يعجزون عن الإمساك بي في كل مرةٍ أجتاز فيها الأرض ذاتها، وكلما مضيتُ أسرع كلما ازداد حجمي! في حين أن كل

ما أريده هو أن أكون صديقًا لهم، وأن أخبرهم أمورًا فيها مصلحتهم، مثل السيد جوزيف آدي. إلا أنهم بطريقة ما يخشون من سماع ذلك على نحوٍ يثير العجب. ولكن، أعتقد أنني لستُ خبيرًا بأمور الحياة، ولا حصيفًا».

(48) هذه العبارة يقتبسها الراوي من مسرحية عطيل لشكسبير حيث تدور أحداثها بين البندقية وقبرص.

«لكن، لِمَ لا تلتفت وتخبرهم بذلك؟».. سألت توم.

«لأنني لا أستطيع كما ترى، أنا واحدٌ من ذرية إبيميثيوس، ويتعين عليّ السير وأنا أنظر خلفي إن أردتُ المضيّ أبدًا».

«إذن.. لِمَ لا تتوقف وتدعهم يقتربون منك؟»

«عجبًا يا عزيزي! فقط فكّر بالأمر. إن توقفتُ للحظةٍ واحدةٍ فإن كل الفراشات والطيور الصغيرة ستطير وتهرب وعندها لن أتمكن من اصطاد أيّ أنواع جديدة، وسوف أغدو كائنًا واهنًا مهجورًا وأموت. وأنا لا أنوي فعل ذلك يا عزيزي، لأن قضائي وقدري أمامي كما يقولون، مع أنني لا أعرف ما هو القضاء والقدر، ولا أبالي بمعرفتهما!».

«لا تبالي؟».. سألت توم.

«لا.. إنني أؤدي أقرب واجبٍ عليّ. وأمسكُ بأول خنفساءٍ أعثرُ عليها. هذا هو شعاري في الحياة. وقد جُبلتُ عليه لمئات السنين. والآن يجدر بي المضيّ، فقد أفلتتُ من قبضتي تسعة أنواع جديدة على أقل تقدير، بينما كنا نتجاذب أطراف الحديث».

فمضى العملاق في سبيله وهو ينظر وراءه على نحوٍ متهورٍ، حتى اصطدم ببرج معبد المعبود الكبير – فكل من في تلك الأصقاع كانوا من عبدة الأوثان، وإلا فإنهم لن يهابوا العمالقة – وأطاح بالنصف العلوي، وأذى نفسه شديد الأذى في ناحية الظهر السفلى.

لكنه لم يأبه كثيرًا، لأنه بمجرد أن أصبحت خرائب برج المعبد بين ساقيه، أخذ يبحث بفضولٍ وينعم النظر فيما بين الحجارة المنهارة، فعدّل نظارته، وسحب عدسةً مكبرةً من جيبه، وصاح:

«إنه نوعٌ جديدٌ تمامًا من الطرموط، وهناك ثلاثة أنواعٍ مجهولةٍ من ذوات الذنب الشعري! فضلًا عن العثة من أمثلة ملك الفراشات - على الرغم من أنها، مثل جميع الفرنسيين تمنح استنتاجاتٍ متسرعةً - تقتصر على حدود الانجراف الجليدي.. وهذا هو الأهم!».

وأقعى العملاق جالسًا فوق ممشى المعبد لعدم كونه خبيرًا في الحياة، لفحص حشرته من ذوات الذنب الشعري. فانهار السقف بالكامل كما هو متوقَّعٌ، وهدمَ معه الأوثان حتى تطايرَ القساوسة عبر الأبواب والنوافذ كما تتطاير الأرانب هربًا من جحورها عندما يداهما الثعلب. ولكن العملاق، لم يُلقِ بالأل لكل ذلك، بل اصطاد خفاشًا انطلق من بين الغبار خلال لحظات.

«يا إلهي! إن لهذا النوع أهميةً أعظم! إنه مشابهٌ للنوع الذي يُصرُّ ماجيليواكي براون أن وجوده محصورًا على المعابد البوذية في مناطق التبت الصغرى. وهذا الذي أنظر إليه الآن، قد يكون مجرد ضرب من الأصناف ناتج عن اختلاف المناخ!».

وبعد أن حزمَ خفاشه في كيس، نهض من مكانه ومضى في سبيله ونظَّره للوراء، في الوقت الذي واصل الناس هروبهم، دون أن يصبحوا في مزاجٍ أفضل، بعد أن قوَّض العملاق معبدهم من أجل ثلاثة أنواع غامضة من حشرات ذوات الذنب الشعري وخفاشٍ بوذي!

«يا لها من فوضى، وقيل وقال من كلا الطرفين! لكن هذا ليس من شأني..» قال توم محادثًا نفسه.

ولم يعد كذلك، لأنه كان طفلًا مائيًا يعرف الموقف حق المعرفة كما لن تعرفه أنت أبدًا ما لم تكن طفلًا سواء طفلًا مائيًا أو بريًا أو جويًا. غير مهم.. شريطة أن تبقى طفلًا على الدوام.

وهكذا، ركض العملاق وراء الناس، ولا حَقَّ الناسُ العملاق بدورهم، وما زال الطرفان يركضان وراء بعض حتى يومنا هذا لغايةٍ أعرفها ولا أعرفها. وسيظلّون يركضون إلى أن يتحوّل هو أو هم أو كلاهما إلى أطفالٍ صغار. وكما يقول شكسبير في هاملت «وبالتالي لا بُدَّ أن يكون المرء صادقًا مع نفسه»:

«لن يحدث ما يُفسدُ ودًا

وسيسعد كلهم أبدًا» (49).

(49) من مسرحية حلم ليلة منتصف الصيف. الفصل الثالث، المشهد الثاني. بترجمة د. محمد عناني.

ثم وصل توم إلى جزيرة شهيرة للغاية، وكان اسمها جزيرة لاپوتا في عهد الرخالة العظيم الكابتن غوليقر. لكن السيدة بيدايّد أطلقت عليها تسمية أخرى «جزيرة تومتوديز». وكان كل من في الجزيرة عبارة عن رؤوس بلا أجساد. وعندما اقترب توم منها، تناهت إلى سمعه أصواتٌ من قبيل تبرّم وشخيرٍ ثم دندنةٍ تلتها أصواتٌ مشوبةٌ بالعويل والصراخ والأنين، فظنَّ توم أن الناس هناك يقومون بتقييد الخنازير الصغيرة، أو أنهم يقصّون آذان الجراء، أو أنهم يقتلون القطط الصغيرة غرقًا بلا شك. وعندما دخل إليها، بدأتْ أذنه تلتقط كلماتٍ في غمرة ذلك الصخب، والتي تبين أنها أنشودة يغنيها سُكان جزيرة تومتوديز في الصباح والمساء وطوال الليل كذلك، لمعبودهم العظيم المدعو بـ «امتحان» تقول:

«عاجزون عن فهم دروسنا، والمُعَلِّمُ آتٍ»

وكانت تلك هي الأنشودة الوحيدة التي يعرفونها.. وعندما بلغ توم الساحل، كان أول شيء لفت انتباهه دعامةٌ تحمل لوحةً هائلةً منقوشةً على أحد وجهيها:

«اللعب هنا ممنوع».

فُضِدَ توم لدرجة أنه لم يمكث ليرى ما كُتِبَ على الجانب الآخر من اللوحة. بل أخذ يجول بنظره بحثًا عن سُكَّان الجزيرة ولكن، عوضًا عن رؤية الرجال والنساء والأطفال، فإنه لم يجد سوى اللفت والفجل والشمندر والبنجر ومن دون أي ورقة خضراء، معظمها متفسخ وقد انبثق منها فطر عيش الغراب ونما.

وأما من بقي سليمًا منهم فقد شرعوا في البكاء والاستنجاد بتوم، من خلال التكلم بست لغاتٍ مختلفة في آنٍ واحدٍ وبلهجة سيئة:

«لا أستطيع فهمَ درسي؛ تعال وساعدني!»

وصرخ أحدهم: «هل يمكنك أن تعلمني كيف أستخرج هذا الجذر التربيعي؟»

وصاح آخر: «أيمكنك أن تخبرني ما هي المسافة بين نجم ألفا الأثافي ونجم بيتا الزرافة(50)؟»

(50) ألفا الأثافي α Lyrae: ويدعى أيضا التَّسْر الواقع وهو نجم يُرى في كوكبة القيثارة وخامس ألمع نجوم السماء كلها.

بيتا الزرافة β Camelopardis: من أهم النجوم اللامعة الموجودة في كوكبة الزرافة الذي يعد من أبراج نصف الكرة الأرضية الشمالي.

بينما سأل آخر: «ما هو خط الطول وخط العرض لسنوكسقل في مقاطعة نومان، أوريغون، الولايات المتحدة؟»

وصاح آخر: «ماذا كان اسم قطة الوصيعة التابعة لجدة ابن العم الثالث عشر للباسل المغوار موتيوس سكيغولا؟»

وآخر قال: «كم من الوقت قد يستغرق مشرفٌ تربويُّ ذو حركةٍ متوسطةٍ حتى ينقلب رأسًا على عقب من لندن إلى يورك؟»

وآخر: «هل يمكنك أن تخبرني اسمَ مكانٍ لم يسمع به أحدٌ من قبل، حيث لم يشهد أحدًا في بلدٍ لم يتم اكتشافه بعد؟»

بينما جاء سؤال الآخر: «هل تستطيع أن تعلمني كيف أصبح هذا المرور الفاسد الميئوس منه لاحتجاز وتخزين ثاني أكسيد الكربون حول قضية عدم وجود السنة للتماسيح؟».

وهكذا حتى ليعتقد المرء أنهم جميعًا يتطلعون للظفرِ بمنصب مفتش جمارك في ميناءٍ بحري، أو منصب في فرقةٍ من سلاح الفرسان المشاة.

«وما نفعكم إن أجبتُ على أسئلتكم؟».. جاء ردُّ توم.

لم يكونوا على علمٍ بنفع ذلك، وكل ما يعرفونه هو أن المعلم الفاحص آتٍ ليمتحنهم.

عندئذٍ تعثَّرَ توم بأضخم وأطرى لفَتٍ نشِطٍ رآه في حياته. كان بملءٍ محصولِ كرنبٍ لفتي. فنادى توم:

«أيمكِئكَ إخباري أيّ شيءٍ - بأي شكلٍ من الأشكال - وعن أيّ شيءٍ تريد؟»

«حول؟».. أجاب توم.

«حول أيّ شيءٍ. لأنني بقدر ما أتعلم الأشياء بسرعة، أنساها بسرعةٍ مرةً أخرى. لذا تقول أُمي إن عقلي لم يتأقلم مع العلوم المنهجية، وتقول إنه يجب عليّ البحث عن معلومات عامة.»

فأخبره توم بأنه لا يعرف معلوماتٍ ذات طابعٍ عام، وليس له معرفةٌ بأي ضابطٍ في الجيش ما عدا معرفته بصديقي صار عازفٍ طبولٍ فيما مضى. لكن بمقدور توم أن يحكي له عن العجب العُجاب الذي صادفَهُ في أسفاره. وهكذا حكى توم بطلاوةٍ مبهرةٍ بينما أخذ اللفت الطيب يُصغي إليه مليًا مليًا. وكلما أصغى وزاد انتباهه، كلما نسي أكثر، وكلما نفدت المياه منه.

فخيل لتوم أنّ اللفت الطيب كان يذرف الدموع لكن ذهنه كان قد ندد عنه بسبب أعمال العقل. وبينما كان توم يتابع حديثه، انسابت عصارة اللفت التّعس في كل الأنحاء وأخذ ينشق وينكمش حتى لم يتبق منه شيء سوى القشرة والمياه، فولّى توم هارباً في حالة من الخوف، فقد ظنّ أنه قد يقبض عليه أحدهم بثهمة قتل اللفت. ولكن على العكس من ذلك، كان والدا اللفت مسرورين للغاية، حيث اعتبروا ابنهما قديساً وشهيداً، وزينا قبره بكتابات طويلة عن مواهبه المدهشة، وعن نموّه المبكر، وتطوره الذي لم يسبق له مثيل.

ألم يكونا زوجين مُضحكين؟!

لكن كان ثمة زوجان أكثر حماقة بجانبهما، وكانا يضربان فجلاً صغيراً بائس ليس أكبر حجماً من إبهامي، لمشاكسته وعناده وغبائه المتعمد! ولم يدريا أبداً أن مدعاة عجزه عن التعلّم أو حتى الكلام هو أن هناك دودة كبيرة في داخله تلتهم مخّه. ولكن حتى هؤلاء ليسوا أكثر حُمقاً من عشرات بل مئات الآباء والأمهات ممن يستعملون العصا لضرب صغارهم بدلاً من جلب لعبة جديدة لهم، أو أولئك الذين يحبسون أطفالهم في خزائنة مظلمة بدلاً من عرضهم على طبيب!

لزم توم مكانه في حيرة من أمره وقد تملكه الخوف من كل ما رآه، لدرجة أنه كان تواقاً للسؤال عن معنى ما يجري. لذلك تعثّر بعضى عتيقة ملقاة على الطريق، نصفها مغطى بالتراب. إلا أنها بدت عصا متينة وجديرة بالاهتمام، لأنها تعود للعالم الإنكليزي روجر أشام في الأزمنة القديمة، محفوراً على رأسها نقش الملك إدوارد السادس وهو يحمل الكتاب المقدس في يده.

«كما ترى..».. انبرت العصا قائلة، «ذات مرة، كان هناك أطفال صغار في غاية الجمال كما تشتهي عينك رؤية جمالهم. ولعلمهم كانوا سيظلّون كذلك لو أنهم تركوا ليكبروا مثل البشر، قبل أن يُسلموهم لرحمتي! غير أنه عوضاً عن أن يتركهم أولياء أمورهم الحمقى، ليقطفوا الأزهار ويلهون بالتراب والماء وصنع قلاعٍ من الطين والحصول على أعشاش الطيور والرقص حول شجيرة العنب كما ينبغي للأطفال الصغار أن يفعلوا، كانوا يرغمونهم على

الدروس والعمل المجهد من تعلّم دروس الأسبوع طوال أيام الأسبوع، ودروس الأحد طوال يوم الأحد، والامتحانات الأسبوعية كل سبت، والامتحانات الشهرية كل شهر، والامتحانات السنوية كل سنة، كل شيء يتكرر سبع مرات - وكأن مرة واحدة ليست كافية لكل ذلك - كما لو أنه احتفالٌ بعيدِ ديني! حتى تتضخم أدمغتهم وتصغر أجسادهم ويتحول الأطفال برُمَّتهم إلى لفتٍ ليس بداخله سوى القليل من المياه! وما زال آباؤهم الحمقى يتخلّصون من الأوراق المحيطة بهم بسرعة نموّها مخافةً أن يكسوهم اللون الأخضر ويصبحوا سُذجًا!.

«أها!».. أجاب توم، «لو علِمَتُ الجنيّة العريضة السيدة دايو بذلك، سترسل لهم الكثير من لعب الأطفال، من الكرات والدحلّ ولعبة القناني الخشبية وتحولهم لصغار في منتهى السعادة».

«لن يجدي هذا نفعًا».. أجابت العصا، «ليس بمقدورهم اللعب بعد الآن حتى وإن حاولوا. ألا ترى كيف استحالت أقدامهم إلى جذورٍ تمدّدت في الأرض لعدم خوضهم أيّ اختبارٍ غير الإنهاك والكآبة دائمًا في نفس المكان؟ وها قد وصل المعلّم المختبر للمعلمين كلهم. لذا من الأفضل أن تبتعد، ها أنا ذا أحذرك وإلا سوف يمتحنك أنت وكلبك كذلك، ويهيباً الكلب لامتحان كل الكلاب الأخرى، وأنت لامتحان أطفال المياه الآخرين كلهم حيث لا مفرّ من قبضته! فله أنفٌ يبلغ طوله تسعة آلاف ميل، وبإمكانه اختراق المداخن، والمرور من خلال ثقب المفاتيح، وإلى الطابق العلويّ نزولاً إلى الطابق السفلي وصولاً لحجرات السيدات لامتحان الصغار كلهم، وكذلك معلّمي الأولاد الصغار. ولكن إن تعرّض للضرب - كما وعدتني السيدة بدايد - فسوف أعرّض للعقاب من قبله، وسيكون أمرًا مخجلًا إن لم أشرح الأسباب بعزيمة».

فانطلق توم، برويةٍ ووجهٍ متجهّمٍ بعض الشيء، لأنه كان مصممًا إلى حدّ ما على مواجهة هذا المعلّم المختبر لجميع المعلمين، الذي جاء ماشيًا بخطى واسعةٍ فيما بين نبات اللفت المسكين، يحزمُ أعباءً ثقيلةً صعبة الحمل، ويلقيها على أكتاف الأطفال الصغار دونما رغبةٍ

منه بتحريك شيءٍ منها بإصبعه، مثله مثل الكتّبة والفريسيين القدماء المرأين. لأنه يملك مالا كثيرا ومنزلاً حسناً ليعيش فيه، وكان هذا أكثر مما تملكه نباتات اللفت الصغيرة المسكينة.

إلا أنه عندما اقترب المعلم المختبر، بدا ضخّم الجثة فظّاً ومستبداً. وطفق ينادي على توم بأعلى صوته ليأتي ويقوم باختباره، ففرّ توم بأقصى سرعته للنجاة بحياته، والكلب كذلك. حان الوقت حقاً. وعلى اللفت المساكين في غمرة خوفهم وعجلتهم، أن يرصوا الصفوف بسرعة حتى يكونوا مستعدين للمعلم المختبر حتى أنهم انشقوا واندفعوا بالعشرات من حوله، وبدا المكان مثل مدينة أدرشوت في يومٍ حافلٍ بالأخبار المثيرة. فحسب توم أنه سيطير مع الريح في الهواء، هو والكلب وكل ما يحيط به!

وعندما حظّ توم على الساحل، مرّ بالمقبرة الجديدة لنبات اللفت المساكين. بيّد أنّ السيدة بدايد، أزالّت المراثي القديمة - المنقوشة على الأضرحة - عن المواهب ومرحلة ما قبل الولادة والتطور، ووضعت مرثية من تعبيرها الخاص عوضاً عنها، والتي رآها توم منطويةً بدرجة أكبر، حيث جاء فيها:

«طال بنا الزمان ونحن نحتمل بلاء الدروس

وكانت حشوّ عقولٍ بلا طائل،

حتى راعت السماء متاعبي

للحدّ من تدفّق المياه

على أدمغتنا».

ولما قفز توم إلى البحر، شرع في الغناء، وهو يسبح:

«الوداع يا جزيرة التومتوديز

الوداع جميعًا

ممتنٌ للحظِّ

فذلك العدم الذي أعرّفهُ

أنقذ هذه المهارات الملكية الثلاث

القراءة والكتابة والحساب،

لتقود الفتيان إلى الصواب

في السَّرَاءِ وَالصَّرَاءِ».

قد تلاحظ من خلال ذلك أن توم ليس بشاعرٍ، كما لم يَعُدْ جون بنيان، مع أنه رجلٌ بلغَ من الحكمة ما يكفي لمن قد تراهم لدهرٍ بعيدٍ طويلٍ.

وبعد ذلك، وصلَ إلى جزيرة العجائز الأسطورية، حيث كان كلُّ سُكَّانها وثنيين يعبدون قردًا يولول. وهناك وجدَ طفلًا صغيرًا يجلس في منتصف الطريق، ويبكي بمرارة.

«لماذا تبكي؟».. سأل توم.

«لأنني لا أشعر بالخوف كما أرغب».. أجاب الصبي.

«لا تشعر بالخوف؟! يا لك من صغيرٍ غريب الأطوار! إن كنتَ راغبًا بالشعور بالخوف فهذا أنا ذا... يووووو..!».

«أها!».. انبرى الصغير قائلًا، «هذا لطفٌ كبيرٌ منك، لكنني لا أشعر أنّ ما فعلتُهُ قد بَثَّ الخوف بداخلي».

فعرض توم عليه أن يقوم بإزعاجه، كأن يلكمهُ ويركلهُ، وأن يُهشّم رأسهُ بحجر، أو أيّ شيءٍ آخر من شأنه أن يمنحهُ أدنى قدرٍ من المواسة.

لكنه شكر توم بلطفٍ بالغٍ لا غير، وبعباراتٍ جميلةٍ طويلةٍ كان قد سمعَ أشخاصًا آخرين يستخدمونها، وبالتالي أخذهُ الظن أنها مناسبة وصحيحة ليقولها بنفسه. ثم طفق يبكي حتى جاء والداه، اللذان أرسلوا في طلب رجلٍ هنديٍّ على الفور. حيث كانا سيّدين طبيّين مع كونهما وثنيين. وخاضت المرأة حديثًا سارًا مع توم عن أسفاره، حتى وصل الهنديّ وهو يحمل صندوق الأصوات الرعدية تحت ذراعه.

وكان الرجل بديئًا قبيح المظهر. قدّم خدماتٍ لجلالتهَا - الملكة - في بورتلاند. وعندما رآه توم في بادئ الأمر، خامرهُ شعورٌ بالخوف، فقد ظنَّ أن هذا الرجل ما هو إلا سيّده القديم غرايمز، إلا أنه، سرعان ما أدرك خطأه، لأن غرايمز كان يبدو بشريًا من ملامح وجهه على عكس هذا الرجل.

فعندما يتحدّث، كان يلفظ النيران والدخان من فمه، وعندما يعطس، تتطاير من فمه مفرقاتٌ وأصابع متفجّرة. وحينما يصيح - وهذا ما يقوم به كلما سنحت له الفرصة - فكان كأنما ينفت زفتًا يغلي، وكان من المؤكّد أن قدرًا منه سيبقى أثره حتى اليوم.

«ها نحن ذا!».. صاح الرجل كما لو أنه مهرجٌ في عرضٍ مسرحيٍّ إيمائيٍّ، «إذن، فإنك لا تشعر بالخوف يا عزيزي الصغير؟ سأفعل ذلك من أجلك. سوف أبثّ الرعب في أوصالك! نعم! بوووو!».

وبدأ يُصدِر أصواتٍ جلجلةٍ وخبيطٍ، وهو يلوّحُ بصندوقه ويزعق ويهتف ويهذي ويزأر، ويخبط قدميه بالأرض في هرجٍ ومرجٍ مثل أيّ هنديٍّ أسود البشرة. ثم سحب زنبرك صندوقه فخرجت منه على نحوٍ مباغتٍ بعابعٍ ويقطينات هالووين سحرية وعربات مصنوعة من الورق المقوّى وجاك ذو الكعب النطاط مصحوبٌ بصوت ضجيجٍ مروّعٍ وققععةٍ وزمجرةٍ، حتى انقلب بياض عيني الصغير، وأغشي عليه فورًا.

فسرَّ الوالدان الوثنيان أيّما سرور، كما لو أنهما عثرا على منجم ذهب. وسقطا على ركبتيهما وركعا أمام الهنديّ ومنحاه هودجًا بركائز من الفضة الخالصة وستائر من قماش الذهب. وحملا الهودج بمن فيه على ظهريهما، ولكن بمجرد أن رفعاه، التصقت دعامة الهودج بكتفيهما، ولم يعد بإمكانهما إنزاله! وحملا الهودج بمحض إرادتهما كما حمل السندباد البحار المُسِنَّ على ظهره حتى صار السندباد في حالٍ يُرثى لها. بينما كان والد الصبيّ ضابطًا في غاية الشجاعة، وكان يحمل سيفين ويتقلد الشارة الزرقاء، فيما كانت الأم آية في الجمال، ولها قدمان صغيرتان تشبهان اللوتس، كأقدام نساء الصين (51).

(51) أقدام اللوتس: إشارة لعادة ربط القدم أو طيها في الصين وهي عادة يعود تاريخها لبدايات القرن العاشر في الصين وكان يعتبر زينةً للمرأة وشرطًا أساسيًا لزواجها. كانت الأمهات تبدأ بربط أقدام بناتهن بضمادات منذ يبلغن سن الرابعة أو الخامسة.

وكما ترى، لقد فضّل هذان الأبوان أن يتصرّفا بمثل هذه الحماقة عدّة مرات. لذا، وبموجب قوانين السيدة بدايد، كان عليهما أن يحملا هودج الهنديّ على كتفيهما إلى الأبد، سواء شاء أم أبى، حتى مجيء كوكسيغرو. أه! ألا تتمنى أن يذهب أحدهم ليُقنّع هؤلاء الوثنيين ويحذّرهم من إخافة أطفالهم حدّ الذعر؟!

«والآن..».. انبرى الهنديّ لتوم قائلاً «ألا تريد أن تشعر بالخوف يا عزيزي الصغير؟ لأنني أرى بوضوح أنك صبيّ عفريت، في منتهى الشقاوة والوقاحة!».

«وأنت كذلك!».. أجابه توم بكل ثبات. وانطلق الرجل صوب توم وأخذ يصيح «بوووو!» في وجه توم الذي في المقابل قد ركض صوب الرجل وراح يصيح «بوووو!» كذلك، وفي وجهه مباشرةً، حتى أنه أطلق الكلب الصغير عليه. وانطلق الكلب صوب الرجل وتعلّق بساقيه. وأثناء ذلك - صدق أو لا تُصدّق - أطلق الرجل ساقيه للريح، وهرب مسرعًا لينجو بحياته دون أن يأخذ معه صندوقه أو أيّ شيءٍ آخر، وهو يعوي كما لو أنه خنزير يتجول في أرض مشاع، ويصيح:

«النجدة! هناك لصوص! هناك قتلة! أطلقوا النار! إنه ينوي قتلي! إنني رجلٌ محطَّمٌ سوف يقتلني ويحطم صندوقي الثمين ويحرقه، ومن ثم لن يكون هناك المزيد من المهرجانات المرعبة في البلاد. النجدة! النجدة! النجدة!».

الأمر الذي جعل الآباء والأمهات وكل سكان جزيرة العجائز الأسطورية يهرعون صوب توم ويصيحون:

«يا لك من فتىٍ شريرٍ وقحٍ قاسي القلب وعديم الرحمة! اضربوه، اضربوه، أغرقوه، اشنقوه، أحرقوا!».

وما إلى ذلك. ولكن لحسن الحظ لم يكن بمتناولهم ما يُطلقونه عليه أو يشنقونه ويحرقونه به، لأن الجنّيات أخفّين كل أدوات القتل من هناك قبل فترةٍ قصيرة، حتى لا يكون أمامهم سوى رشقه بالحجارة، وبعض الأحجار مرّت بطريقةٍ مباشرةٍ من خلاله، وخرجت من الجانب الآخر.

لم يأبه توم لما حصل مطلقًا، لأن الثقوب التي صنعتها الأحجار في جسده التأمّت وسدّت مرةً أخرى بنفس سرعة تكوّنها لكونه طفلًا مائيًا.

وعندما أصبح توم خارج تلك البلاد آمنًا، فرح فرحًا عظيمًا لأن الجلبة هناك جعلته أصمّ تمامًا.

بعد ذلك، وصل توم إلى بقعةٍ يعمُّ فيها هدوءٌ مطبقٌ، تُدعى «الجنّة المتروكة»، حيث الشمس المعلّقة في كبد السماء تجذب ذرّات المياه من البحر لتكوّن منها سلسلةً بخاريةً، فيما تتولّى الرياح أمر تحريكها وتشابكها لتصنع منها أشكالًا من الشُّب، إلى أن يُنسج منها ما يُشبه طرحةً عُرسٍ يحدُّ أطرافها دانتيل حريري في غاية التمام والكمال، ليُزيّنوا بها صروحهم الكريستالية وتكون متاحةً لكل من يملك القدرة على تحمّل ثمنها. أمّا البحر الطيب العتيق، فلا يحمل ضغينةً تجاه الشمس والرياح بالمرّة، فهو يعرف حق المعرفة،

أنهم سيردون له الدَّينَ بوفاءٍ وصفاءٍ. وهكذا، الشمس تغزل، والرياح تُسيّر، ومضى كل شيءٍ على ما يُرام برفقة ذلك النسيج البخاري الهائل كما هو مرجَّح له في أغلب الظن.

وفي نهاية المطاف، وبعد عددٍ لا يُحصَى من المغامرات كلُّ واحدةٍ منها أجمل من سابقتها، رأى توم أمامه مبنىً ضخماً، ضخماً للغاية، وما يبعث على الدهشة أكثر أنه إلى حدِّ ما، أبشع من مصحة عقلية جديدة، غير أنه لم يُشَيِّد من نفس المواد بالضبط. لا شيء من ذلك على الأقل. أو في الواقع لا شيء يُشبهه أيّ جزءٍ من أيّ مبنىٍ آخر سبق وأن رأيته في حياتي على الإطلاق. كان مغلفاً من الداخل والخارج بطوبٍ قُطرهُ تسع بوصات، مرصوص بالأثلب فيما بين الجدران. وذلك من أجل أن يشعر أيّ رجلٍ موقوفٍ بأمرٍ من صاحبة الجلالة، أنه غير موقوفٍ وفق ما يرتئيه هو، ويتمشَّى في الحديقة المجاورة لرفع معنوياته بعد ساعةٍ من تعرُّضه للشمس وجهدٍ جهيدٍ مع شوكتِه لتناول العشاء أو مع إحدى ساقِي سريره الحديدي.

كلا.. تُشيدت جدران هذا المبنى وفقاً لطريقةٍ مختلفةٍ تماماً، لا يلزمها وصفٌ بما أنها لم يتمَّ اكتشافها بعد.

سار توم صوب هذا المبنى الهائل متسائلاً عن ماهيّته، وقد تمكَّن منه ظنٌّ غريبٌ بأنه قد يعثر على السيد غرايمز بداخله. حتى رأى أربعة أفراد يركضون باتجاهه، وهم يصرخون: «توقَّف!».. وعندما اقتربوا منه، لم يكونوا سوى هراواتٍ لرجال الأمن تجري دون أَرْجُلٍ أو أذْرُع.

لم يندهش توم مما رأى. لقد تخطَّى مرحلة الدهشة بعد رحلته الطويلة تلك لزمٍ طويلٍ، بعد أن شاهدَ لمراتٍ عديدة، طحالب الدياتوم تجري في المياه بلا أذْرُعٍ أو أَرْجُلٍ، أو أيّ شيءٍ آخر يحلّ محلّ الأيدي والأرجل وما من أحدٍ يعرف كيف! كما أنه لم يكن خائفاً لأنه لم يُؤذِ أحداً. لذلك توقَّف توم. وعندما وصلتِ الهراوة الأولى وسألته عما يفعله في بلدهم، أظهر توم تصريح دخول الأم كاري. فنظرتِ الهراوة للتصريح بطريقةٍ غريبةٍ للغاية، لأنها كانت تملك عيئاً واحدةً في منتصف طرفها العلوي، بحيث أنها حينما تنظر لشيءٍ ما، عليها أن تصير متيبسةً تماماً، وأن تميل بجسدها لتحركه، وبدا عدم سقوطها أعجوبةً. ولكن بما

أنها فردٌ مفعمٌ بروح العدالة - كما ينبغي أن يكون رجال الشرطة وهراواتهم - فلا بد أن يتصرف بحالة من التوازن المستقر، أيًا كانت الطريقة التي يُسيّر بها نفسه.

«طيب، امض في طريقك».. قالت الهراوة في النهاية، ثم أردفت قائلةً «حريُّ بي مرافقتك، أيها الصغير».

لم يُبدِ توم أيَّ اعتراضٍ، فمثل هذه الرفقة جديرة بالاحترام ومأمونة الجانب. وهكذا طوت الهراوة زئارها حول مقبضها بإحكام كيلا تتعثر به، لأن الزئار الذي ترتديه يرتخي أثناء سيرها وتزحف مع توم.

«لم لا تملكين شرطياً ليحملك؟».. سأل توم بعد بُرهةٍ من الوقت.

«لأننا لا نُشبه تلك الهراوات في عالم الأرض المصنوعة بطريقةٍ غيبيةٍ بحيث يستحيل عليها المُضيُّ دون أن يحملها بشريٌّ من لحمٍ ودمٍ! إننا نقوم بعملنا بأنفسنا، وتُبلي في ذلك بلاءً حسنًا، مع أنني أقول ذلك لمن لا يعي».

«إذن، لم تضعين زئارك على قبضتك؟»

«لئُعلّق أنفسنا عندما ننتهي من الواجب».. أجابت الهراوة.

وبذلك، حصل توم على إجابته، ولم يكن لديه المزيد ليقوله، حتى وصلوا إلى الباب الحديديّ الكبير للسجن. وهناك، طرقت الهراوة باب السجن بطرف رأسها مرتين.

انفتح بويبٌ صغيرٌ من البوابة، وظهرت بندقية نحاسية قديمة ضخمة مشحونة إلى فوّهتها بالرصاصات. وكان هذا هو البوّاب. فعاد توم قليلاً إلى الوراء فور رؤيته.

«ما القضية؟».. سألت البندقية بصوتٍ أجشٍّ صادرٍ من فمها الواسع المجلجل.

«لو سمحت يا سيدي، ليس هناك قضية، إنه مجرد ولدٍ صغيرٍ قادمٍ من سيادتها، ويريد أن يرى سيّد مُنظّفي المداخن، غرايمز».

«غرايمز؟».. قالت البندقية، وسحبت ماسورتها، ربما لتتفحص قوائم سجنائها. «إنه في الأعلى، في مدخنة رقم 345. لذا من الأفضل أن يصعد الشاب الصغير إلى السطح».

فرجع توم بصره إلى السور الهائل الذي يبلغ ارتفاعه تسعين ميلاً على أقل تقدير. وراح يتساءل مع نفسه كيف عساه أن يصل إلى هناك! ولكنه ما إن ألمح للهراوة عما يدور في خَلده، حتى حسمت المسألة خلال لحظات. حيث دارت بخفة حول توم، ثم دفعته من الخلف بطريقة جعلته يصل لأعلى السطح بلمح البصر، برفقة كلبه الصغير الذي حملته تحت ذراعه.

وهناك، مشى توم على طول الصفائح المصنوعة من الرصاص. حتى التقى بهراوة أخرى، وأخبرها عن مهمته.

«إذن، هيا بنا، ولكن لا فائدة من ذلك. فهو أكثر بشريّ فاقدٍ للشعور بالذنب، قابلته على الإطلاق. إنه متحجّر القلب، سليط اللسان، ولا يفكر بغير البيرة والغلايين الممنوعة هنا بطبيعة الحال».

وهكذا، مضى الجميع على طول صفائح الرصاص، التي كانت مَسْحَةً للغاية. فرأى توم أن المداخن تحتاج لتنظيفٍ أكثر. لكنه فوجئ عندما لاحظ أن السناج لا يلتصق بقدميه ولا حتى يلوّثها على الأقل. ولم يخرقه الجمر المتقد المرمي في كل مكان بكمية كبيرة. لأن توم صار ابن البحر، وصارت أخلاطه الفطرية ذات طبيعةٍ نديّةٍ باردةٍ، كما قد تقرأ في شروحات وأعمال ليڤينوس ليمنيوس وكاردان وقات هيلمونت، وغيرهم من السادة العارفين، ممن يعلمون بقدر ما يمكنهم، وما من شخصٍ بمقدوره أن يعرف أكثر منهم. وفي النهاية وصلوا إلى المدخنة رقم 345. حيث يظهر من قمّتها مباشرةً رأس المسكين السيد غرايمز ومنكباه. كان مظهره بشعاً للغاية، مغلفاً بالسناج حتى أن توم بالكاد تحمّل النظر

إليه. وفي فمه ثمة غليون غير مشتعل على الرغم من أنه كان يسحب منه أنفاسًا بكل ما أُوتِيَ من قوة.

«انتباه سيد غرايمز!.. صاحت الهراوة. «ثمة صبيٌّ محترمٌ هنا جاء لرؤيتك».

غير أن السيد غرايمز لم يكن بوسعِهِ إلا أن يتلفّظ بكلمات نابية، وطفق يتذمّر قائلاً: «غليوني لا يشتعل! غليوني لا يشتعل!».

«أمسيك لسائك وكّف عن استعمال ألفاظ نابية! وانتبه..».. قالت الهراوة، ثم قفزت فجأةً كما لو أنها استحالت لصفعة يد، وراحت تضرب غرايمز ضرباً قوياً على رأسه حتى شعر أن دماغه يهتزّ بداخل صدغِهِ كما تهتزّ الجوزة الجافة في قشرتها. فحاول أن يُخرِج يديه ويمسّد رأسه، لكنه لم يستطع، لأنهما كانتا عالقتين في المدخنة. عندئذٍ أُجبرَ على الالتفات.

«مهلاً، عجباً! إنه توم. أحسبُك جئت لتسخر مني أيها الصغير الحاقدا!»

فأكّد له توم أنه لم يأتِ ليسخر منه، وإنما راغبٌ في مساعدته، وحسب.

«لا أريد شيئاً غير البيرة، وهذه لا أستطيع الحصول عليها. وناراً لهذا الغليون المزعج، وهذا ما لا أستطيع الحصول عليه أيضاً».

«سأجلبُ لك النار».. قال توم، والتفّظَ جمرةً متقدّةً حيث هناك الكثير منها ملقى حوله، ووضعها في غليون غرايمز، ولكن من دون جدوى لأنها انطَفَأَتْ على الفور.

«ما من جدوى».. علّقت الهراوة التي اتّكأت إلى المدخنة، وراحت تجول بنظرها «قلّت لك لا فائدة من محاولتك، فقلّبهُ حَجْرِي، باردٌ وخالٍ من الرحمة، لدرجة أنه يُجمّد كل شيءٍ يقترب منه، وقد رأيت ما حصل للجمر الآن».

«أوه، إنها غلطتي. دائماً يكون الخطأ خطئي! والآن، ألن تضربني مرةً أخرى؟».. قال غرايمز، لأن الهراوة بدأت تستقيم مجدداً، وبدأ الشّرُّ يقدح من عينها الوحيدة، «أتعلمين؟، لو كانت

ذراعاي حرّتين، فلن تجرؤي على ضربني حينها».

عادت الهراوة لمتكئها على المدخنة ولم تُعزِ اهتمامًا لهذه الإساءة الشخصية، كأى رجل أمن مُدرَّبٍ تدريبًا جيدًا، مع أنه كان على أهبة الاستعداد للانتقام حال حدوث تجاوزٍ للنظام أو الأخلاق.

«لكن ألا يمكنني مساعدتك بأيّ طريقة أخرى؟ ألا يمكنني مساعدتك للخروج من هذه المدخنة؟».. تساءل توم.

«أبداً..» قاطعته الهراوة. «إنه في المكان الذي ينبغي فيه على الجميع أن يساعدوا أنفسهم. وآمل أن يكتشف كيفية ذلك قبل أن ينفد صبري».

«أوه صحيح...».. أجاب غرايمز. «بالطبع هذا أنا. هل طلبتُ منكم إحضاري إلى السجن؟ هل طلبتُ منكم إرغامي على تنظيف مداخنكم القذرة؟ هل طلبتُ منكم إشعال القش ووضعه أسفل قدمي وحرقي؟ هل طلبتُ منكم أن أعلّق في أعلى مدخنة بين المداخن كلها لكونها مسدودة بالسناج تمامًا؟ هل أنا من طلب البقاء هنا لزمّن طويل أجهل مدّته بالضبط - لمئات السنين كما أعتقد - وألاً أحصل على غليون ولا بيرة. وما من شيء هنا صالح حتى لحياة الوحوش، ناهيك عن حياة إنسان؟».

«كلا..».. أجاب صوتٌ مهيبٌ من ورائه.. ولا حتى لحياة توم، عندما عاملته بنفس هذه الطريقة».

كان الصوت هو صوت السيدة بدايد. وعندما رأتها الهراوة، اعتدلت في وقفته، واتخذت وضعية الاستعداد وانحنت لها على نحوٍ مائلٍ، ذلك أنها لو لم تتصرّف كضابطٍ مفعمٍ بروح القوانين فقد ينتهي بها الأمرٌ مُنهارَةً على أحد أطرافها، ولعلها بذلك تصيب عينها الوحيدة. وانحنت توم كذلك للسيدة.

«أوه يا سيدتي.. لا تكثرني لأمرى. كل ذلك ماضٍ وانتهى، ومرت معه كل أوقات الشدة والأوقات الطيبة وغيرها. أما الآن، ألا يمكنني مساعدة السيد غرايمز المسكين؟! ألا يمكنني إبعاد هذا الطوب عنه علَّه يتمكَّن من تحريك ذراعيه؟!».. قال توم.

«بإمكانك المحاولة بالطبع».. أجابت السيدة بدايد.

فبدأ توم بهزهزة الطوب وسحبِهِ، لكنه لم يستطع تحريك طابوقةٍ واحدةٍ. ثم حاول أن يمسح وجه السيد غرايمز لكنَّ عملَهُ لم يُؤتِ ثمارَهُ. فالسناج ملتصقٌ بوجه غرايمز أيَّما التصاق!

«يا إلهي، قطعْتُ كل هذه المسافة عبر كل تلك البقاع الرهيبة من أجل مساعدتك، والآن أعجز عن ذلك!».. قال توم. فأجابه غرايمز: «كان عليك أن تتركني وشأني، إنك غلامٌ صغيرٌ، حَسَنُ الطباع، ومتسامحٌ، وهذه هي الحقيقة. عليك مغادرة المكان. فالبرد سيهطل قريبًا، وسوف يقتلع عينيك من رأسك الصغير من شدَّته إن لم تغادر».

«أي برد؟».. سأل توم.

«عجبًا! البرد الذي ينهمر كل مساءٍ هنا، حتى يصير قريبًا مني فيصبح كأنه مطرٌ دافئٌ، ولكن بعد ذلك يتحوَّل إلى وابلٍ يَزُخُّ فوق رأسي ويصيبني كما لو أنه طلقاتٌ صغيرةٌ».

«لن يكون هناك بردٌ بعد الآن».. علَّقت السيدة العجيبة. «أخبرتك من قبل ماذا يكون هذا الصقيع. إنه دموع أمك، تلك التي ذرقتها وهي تُصَلِّي من أجلك بجانب سريرها. غير أنَّ قلبك الخالي من الرحمة جمَّدَ دموعها وحولها إلى برد! لكنها الآن، في الجنة، ولن تذرف الدموع بعد الآن على ابنها الجاحد الذي تعوَّزهُ الفضيلة».

خيَّم الصمتُ على غرايمز لفترةٍ قصيرةٍ، ثم بدا مغتمًا للغاية.

«إذن.. فقد رحلتُ أمي العجوز دون أن أكون هناك بقربها، ودون التحدُّث معها! آه، كانت امرأةً سالحةً، ولربما كانت لتكون سعيدةً في مدرستها الصغيرة في فينديل، لولا سلوكياتي السيئة وشري».

«أُدير مدرسةً في فينديل؟!» .. سألتُ توم. ثم أخبر غرايمز كامل قصّته عن ذهابه لمنزلها، وكيف أنها لم تستطع تحمّل مشهد مُنظّف المداخن الذي كانه، وكيف أحاطته بعنايتها ولطفها، وكيف تحوّل إلى طفلٍ مائيّ.

«هذا سببٌ مقنّعٌ لأن تبغض رؤية عمّال المداخن. فهربتُ منها وانخرطتُ في هذا العمل، ولم أخبرها قطّ عن مكاني، ولم أرسل لها فلسًا واحدًا لمساعدتها، والآن فات الأوان.. فات الأوان!».

ثم طفق يبكي وينتحب كأنه طفلٌ كبيرٌ، حتى سقط الغليون من فيه وتهدّمت إلى أجزاء صغيرة.

«يا إلهي، ليتني أعود مجرد صبيّ صغيرٍ لأعيش في فينديل مرةً أخرى وأرى الجدول الرقراق، وبستان التفاح وشجيرات الصنوبر. كم كنتُ سأُمضي حياتي بطريقةً مختلفة! لكن هيهات. امضِ قُدّمًا أيها الصغير اللطيف، ولا تلبث مكانك لتتنظر إلى رجلٍ ينتحب. إنني كبيرٌ بما يكفي لأكون والدك، ولا تخشَ أبدًا من مواجهة البشر، ولا ما أسوأ منهم أيضًا. إنني مُرهقٌ الآن، وحرِيٌّ بي ذلك. لطالما كنتُ شقيًّا قاسي القلب، وسأظلُّ كذلك كما أخبرتني المرأة الأيرلندية ذات مرّة ولم ألقِ لها أذنًا صاغيةً. كل ما حصل ذنبي، لكن فات الأوان!.. وعاد يبكي بمرارةٍ ليس لها مثيلٌ، مما دفع توم للبكاء كذلك.

«لم يَفُتْ الأوان بعد..».. قالت الجنيّة بنبرة رقيقةٍ عجيبةٍ ومختلفةٍ، لدرجة أنه عندما رفع بصره إليها، رآها ساحرة الجمال في تلك اللحظة، حتى أن الشك ساور توم في أن تكون أختها السيدة دايو.

لم يفت الأوان حتى الآن، فلما بدأ غرايمز المسكين يبكي، ساعدته دموعه التي ذرفها كما لم تفعل دموع أمه من أجله، وكما لم يستطع توم ولا أيُّ أحدٍ على وجه الأرض أن يذرفها من أجله. فقد غَسَلَتِ السناج من على وجهه وملابسه، وجرفت المِلاط (52) من بين الطوب وانهارت المدخنة، وبدأ غرايمز بالتحرُّر منها والخروج. فهبَّتِ الهراوة على طرفها، وكانت على وشك أن تضربه على هامته ضربةً شديدةً وتدفعه إلى أسفل المدخنة مرةً أخرى مثلما تُدفع السدادة الفلينية في زجاجة. لكن السيدة العجيبة نحَّتها جانبًا.

(52) خَلِيْطٌ مِنَ الْكِلْسِ وَالرَّمْلِ أَوْ مِنَ الْإِسْمَنْتِ وَالرَّمْلِ يُضَافُ إِلَيْهِ الْمَاءُ اللَّازِمُ وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْبِنَاءِ لِتَمَاسُكِ الْحَجَارَةِ فِيمَا بَيْنَهَا أَوْ تُظَلَّى بِهِ الْجُدْرَانُ.

«هل سَطيعني إن منحتك فرصة؟».. قالت السيدة الجنيّة.

«كما تشائين يا سيدتي. أنت أكثر قدرةً مني، وهذا ما أعرفه حقَّ المعرفة. وأكثر حكمةً وهذا ما أعرفه جيدًا كذلك. وبالنسبة لكوني سيّد نفسي، فقد سئمتُ من ذلك حتى الآن. لذا سوف أطيّعك أيًّا كان ما تأمريني به سيادتك وبما يحلو لك. فأنا مرهقٌ وهذه هي الحقيقة».. قال غرايمز.

«فليكن الأمر إذن. يمكنك الخروج، ولكن صَعُ في بالك، إن عصيت أوامري مجددًا، فسوف أقوم بنفيك إلى مكانٍ أسوأ من هذا».

«أستميحك عذرًا يا سيّدي، لكنني لم أعص أوامرك أبدًا. لم أحظ بشرف رؤيتك حتى وصلت إلى هذه الأصقاع البشعة».. ردَّ غرايمز.

«لم تَرني أبدًا؟! ومن قال لك ذلك؟ أولئك القذرون قُساة القلوب الذين سيظلّون قذرين قُساة قلوب؟»

فرفع غرايمز بصره إليها، وكذلك توم. لأن الصوت كان صوت المرأة الأيرلندية التي صادفتها في الطريق في اليوم الذي خرجا فيه معًا متوجّهين صوب هارتوثر.

«لقد حذرتك حينها، ولكنك لم تمنح فرصةً لنفسك من قبل، ومنذ ذلك الحين لآلاف المرات. فكل كلمة بذينة تفوهت بها وكل فعلٍ لئيمٍ ووضيعٍ اقترفتهُ، كنتَ تعصيني فيه! كل لحظةٍ تملتَ فيها وكل يومٍ قضيتَهُ قذراً كنتَ تعصيني فيه، سواء كنت تعرف ذلك أم لا!».

«ليتنى كنتُ أعرف يا سيدتي...!».

«كنتَ مدركاً بما فيه الكفاية أنك تعصي أحداً حتى لو لم تدرِ بأنَّ من تعصيتها هي أنا. هيّا غادر. ولا تُضَيِّع فرصتك، فلعلها تكون الأخيرة.».

وهكذا خرجَ غرايمز من المدخنة. وحقيقةً، فقد بدا نظيفاً محترماً كما يجب على سيّد عمال المداخن أن يكون، لولا الندوب الموجودة على وجهه.

«خُذيه من هنا...».. قالت الجنيّة للهاوة. «وامنحيه تذكرةً المغادرة.».

«وماذا سيفعل يا سيّدتي؟»

«خُذيه إلى فوهة بركانٍ إتنا ليعمل على جرف مخلّفات البركان. سيجد عدداً من الرجال موطّدي الأركان ممن يستثمرون وقتهم هناك في تطوير مهاراتهم، وسوف يُعلّمونه ما يفعل. ولكن إن غصتُ فوهةً البركان مرةً أخرى ووقعتُ هزةً أرضيةً نتيجةً لذلك، فأحضرهم لي جميعاً، وسوف أتحقّق من القضية بكل صرامة.».

وهكذا هرعتُ الهاوة صوب السيد غرايمز الذي بدا صاغراً مثل دودةٍ تغرق. وهو على حدّ علمي، يعمل عند فوهة بركانٍ إتنا حتى يومنا هذا.

«والآن..».. قالت الجنيّة لتوم. «انتهى عملك هنا، ويجدر بك أن تعود.».

«سأكون سعيداً بالعودة ولكن، أنى لي اجتياز ذلك التجويف الصخري الشاسع مرةً أخرى! هل توقفتُ الأبخرة عن التدفق حالياً؟».. أجاب توم.

«سوف أحملك من فوق الأصقاع الخفية، ولكن يجب أن أضع عصابةً على عينيك أولاً، لأنني لا أسمح لأحد برؤية تلك الأصقاع الخفية خاصتي».

«كُونِي على ثقةٍ بأنني لن أبوح لكائنٍ عنها يا سيدتي، ما لم تأمريني أنتِ بذلك».

«آها! هذا ما تظنُّه يا صديقي الصغير. لكنك سرعان ما ستنسى وعدكَ حالما تطأ قدمك عالم الأرض. ولو أُتيح للناس معرفة أنك وصلت لمكاني هذا، فسوف ترضخ لك كل الجميلات، وسيفرغ الأثرياء حقائبهم عند قدميك ويعرض عليك رجال الدولة المناصب والسلطة. سوف يجيئون إليك شبيبةً وشباباً فقراء وأغنياء ويتباكون أمامك ويطالبونك: «فقط أخبرنا عن سرِّ الأصقاع الخفية العظيمة، وسنكون عبيدك! سوف نُصيرك سيِّداً، ملكاً، إمبراطوراً إن شئت، أسقفاً أو مطران، أو حتى نجعلك حَبْرنا الأعظم(53). إن أردت، بمجرد أن نخبرنا عن سرِّ تلك الأصقاع! فقد عَكفنا منذ آلاف السنين، نسدّد ونُقْضِل ونطيع ونعبد الدجالين الذين أخبرونا أنهم يملكون مفتاح الأصقاع الخفية وأنهم قادرون على تهريبنا إليها! وبغض النظر عن خيبات آمالنا المتراكمة، فإننا سنعمل على تكريمك وتمجيدك وعبادتك ونَعُدُّك في عداد الأبرار والقديسين ونفسر أقوالك ونتخذك إلهاً كذلك على أمل كونك تعرف شيئاً عن تلك الأمكنة حتى يتسنى لنا جميعاً أن نذهب في رحلة حجٍّ صوبها، وحتى لو عجزنا عن الدخول إليها، يكفي أن نرتمي عند أعتابها ونبكي ونُناجي:

(53) الحبر الأعظم أو بونتيفيكس ماكسيموس حسب الترجمة اللاتينية للاسم؛ هو لقب كان يُطلق على أعلى قسيس في هيئة الأحرار بروما القديمة. كان يعتبر هذا المنصب أهم وأعلى رتبة في المؤسسة الدينية الرومانية، ولذلك السبب لم يكن مسموحاً بحيازته إلا لأفراد طبقة الباتريكيان حتى سنة 254 ق.م

«أوه أيها العالم الخفي الذي لا يُقدَّر بثمن. اللازم المِعْوَان حيث لا يشعُر فيه المرءُ بالغرابة. آه أيها العالم الفيّاح الذي يشعُّ أصالةً ولطفاً ونفعاً ووفرةً. المنطقيّ الوثير. يا عالمنا الرحيم المنشود الذي نرؤم وصاله، يا أنبل الموجودات وأقومها، يا عالماً جلياً قديراً لا يمكن إنكاره. يا كُليّ القدرة.. يا كُليّ الوجود.

خَلَّصْنَا مِنْ عَوَاقِبِ أَفْعَالِنَا. وَمِنَ الْجَنِّيَّةِ الْقَاسِيَةِ السَّيِّدَةِ بِدَائِدٍ».

«أَلَا تَعْتَقِدُ أَنَّكَ سَتَمِيلُ إِلَى حَدِّ مَا، لِلْبُوحِ بِمَا تَعْرِفُهُ أَيُّهَا الصَّبِيُّ؟!»

فَتَأَمَّلْ تُوْمَ الْأَمْرَ مَلِيًّا، ثُمَّ طَرَحَ سَوْأَلًا: «لَكِنْ مَا السَّبَبُ وَرَاءَ رَغْبَتِهِمُ الشَّدِيدَةِ فِي مَعْرِفَةِ شَيْءٍ عَنِ عَالَمِ الْخَفِيِّ؟» وَسَاوَرَ تُوْمَ الْخَوْفَ مِمَّا قَالَتْهُ الْجَنِّيَّةُ مِنْ عِبَارَاتٍ طَوِيلَةٍ مَبَالِغٍ فِيهَا، وَالتَّتِي لَمْ يَعِيهَا تَمَامًا! لِأَنَّهُ فِي الْوَاقِعِ، لَيْسَ مِنَ الْمَفْتَرَضِ عَلَيْهِ فَهْمُهَا وَلَا أَنْتَ كَذَلِكَ.

«هَذَا مَا لَنْ أَخْبِرَكَ بِهِ، لِأَنِّي لَا أَشْغَلُ عَقُولَ الصِّغَارِ بِأُمُورٍ قَدْ تَكُونُ وَليدَةً ذَوَاتِهِمْ! وَالآنَ أَقْبَلُ كَيْ أَضَعُ الْعَصَابَةَ حَوْلَ عَيْنَيْكَ».. وَهَكَذَا، رَبَطَتِ الْعَصَابَةَ عَلَى عَيْنَيْهِ بِيَدٍ، ثُمَّ خَلَعَتْهَا بِالْيَدِ الْآخَرَى فِي لِحْظَاتٍ.

«وَالآنَ..».. قَالَتِ السَّيِّدَةُ الْجَنِّيَّةُ «إِنَّكَ بِمَأْمَنِ الْآنَ بَعِيدًا عَنِ الْعَالَمِ الْخَفِيِّ».

فَتَحَ تُوْمَ عَيْنَيْهِ عَلَى وَسْعِهِمَا وَفَغَرَ فَاهُ مِنَ الدَّهْشَةِ. فَهُوَ بِحَسَبِ اعْتِقَادِهِ، لَمْ يَتَحَرَّكَ خَطْوَةً وَاحِدَةً، غَيْرَ أَنَّهُ حِينَ نَظَرَ مِنْ حَوْلِهِ لَمْ يُخَامِرْهُ أَدْنَى شَكٍّ بِأَنَّهُ فِي مَأْمَنِ بَعِيدًا عَنِ الْعَالَمِ الْخَفِيِّ – أَيًّا كَانَ ذَلِكَ الْعَالَمِ – وَهَذَا مَا لَنْ يَعْرِفَهُ أَحَدٌ لِسَبَبٍ بَسِيطٍ، لِأَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ بِإِمْكَانِهِ مَعْرِفَةَ شَيْءٍ عَنْهُ.

أَوَّلُ شَيْءٍ رَأَاهُ تُوْمَ كَانَتْ أَشْجَارُ الْأُرْزِ الْغَزِيرَةِ الَّتِي تَنْتَصِبُ بِشَمُوحٍ أُنِيقٍ صُوبَ سَمَاءِ الْفَجْرِ الْمَشْرِقِ. وَجَزِيرَةٌ سَانَتْ بَرِينْدَانَ يَنْعَكِسُ رَدِيفُهَا عَلَى وَجْهِ الْبَحْرِ الْفَضِيِّ الْوَاسِعِ. حَيْثُ الرِّيحُ تَحَفُّ بَيْنَ أَشْجَارِ الْأُرْزِ بَرَقَّةً مَفْرُطَةً وَتَنْسَابُ الْمِيَاهُ فِيهَا بَيْنَ الْأَفَارِيزِ بِهَدِيرٍ جَلِيٍّ، وَتَغْرِيدَاتِ أُسْرَابِ الطَّيُورِ الْبَحْرِيَّةِ وَهِيَ تَتَدَفَّقُ عَائِدَةً إِلَى الْمَحِيطِ بَيْنَمَا تَبْنِي الطَّيُورُ الْبَرِّيَّةُ أَعْشَاشَهَا بَيْنَ الْأَغْصَانِ. كَانِ الْجَوُّ مَلِيًّا بِالتَّغَارِيدِ وَالْأَغْنِيَّاتِ الَّتِي أَثَارَتِ الْقَدِيسَ بَرِينْدَانَ وَحَوَارِيِيهِ الْغَافِينَ تَحْتَ ظِلِّ الْأَشْجَارِ وَهُمْ يَحْرُكُونَ شَفَاهَهُمُ الذَّابِلَةَ مَتْرَمِينَ بِتَرَاتِيلِ الصَّبَاحِ فِي غَمْرَةِ أَحْلَامِهِمْ. وَلَكِنْ فِي خَصْمٍ كُلِّ هَذِهِ التَّرَانِيمِ وَالتَّغَارِيدِ، عَلَتْ تَرْنِيمَةُ أَحَدِهِمْ عَبْرَ الْمِيَاهِ، وَكَانَتْ الْأَحْلَى وَالْأَنْقَى مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ التَّرَانِيمِ. لِأَنَّهَا مَنبَعَثَةٌ مِنْ فَتَاةٍ صَغِيرَةٍ.

وما هي الترنيمة التي كانت تترنم بها تلك الفتاة؟ أه يا صغيري، إنني كبيرٌ جدًا على إنشاد تلك الترنيمة، وأنت صغيرٌ جدًا على فهمها، ولكن تحلّ بالصبر، وأبقِ عينيكَ الفريديتين مفتوحتين وحافظُ على يديكَ نظيفتين، ولا تتورط بشيءٍ لا ينبغي الخوض فيه، وستتعلم يوماً ما، كيف تغنيها بنفسك، دون الحاجة لتعليم من أيِّ كائن.

وما إن اقترب توم من الجزيرة، رأى فتاةً تجلس على إحدى الصخور، من أجمل المخلوقات وأصحبها وجهًا. كانت ترمق النهر في الأسفل بنظرات طويلة، وذقنها على يدها، وهي تُحرِّك قدميها في المياه. وعندما وصلا إليها، رفعت الفتاة بصرها للأعلى، وإذا بها الآنسة إيلي!

«أوووه! الآنسة إيلي! كم كبرتِ!».. قال توم.

«أوووه! إنه توم! كم كبرتِ أنت أيضًا!».. ردَّت إيلي.

ولا عجب من ذلك، لقد كبرا حتى صار توم رجلاً فارغَ الطول، وإيلي امرأةً آيةً في الحُسن والجمال.

«لعلِّي كبرتُ، فقد كان لديّ الوقت الكافي لذلك بعد أن لزمْتُ مكاني هنا بانتظارك لمئات السنين، حتى ظننتُ بأنك لن تأتي أبدًا».

«لمئات السنين؟!» تفكَّر توم لكنه لم يعد يشعر بالدهشة، بعد أن شهد العجب العُجاب في أسفاره، وفي الواقع، لم يستطع التفكير في شيءٍ سوى إيلي. وهكذا، لم يبرح مكانه وهو يُنعم النظر إلى إيلي، وإيلي كذلك! وقد راق الأمر لهما لدرجة أنهما ظلَّا على هذي الحال لمدة سبع سنواتٍ أخرى دون أن يتحرَّكا أو يفعلا شيئًا سوى النظر في عيني بعضهما بعضًا!

وفي النهاية، سمعا الجنيّة تقول: «انتباه يا صغار، ألن تنظرا لي مرةً ثانيةً؟».

«ما فتئنا ننظرُ إليكِ طيلةً ذلك الوقت».. أجاب كلاهما، وهكذا خُيِّل لهما.

«حسنًا، ألقيا نظرةً إضافيةً عليّ».. قالت السيدة.

وما إن نظر الصغيران إليها، حتى نَدَّتْ عنهما صرخةٌ في آنٍ واحدٍ.

«أوه، من أنتِ؟»

ثم أضاف أحدهما:

«إنكِ عزيزتنا السيدة دايو».

فجاء ردُّ الآخر:

«كلا.. إنكِ السيدة بدايد الطيبة. لكنكِ غدوتِ جميلةً للغاية!»

«حسنًا، لكن انتَبِها أكثر».. قالت السيدة.

«إنكِ الأم كاري!».. قال توم بصوتٍ منخفضٍ مهيبٍ، لأنه اكتشف شيئًا، أحيا في قلبه سعادةً عارمةً، وفي نفس الوقت، بَثَّ فيه رهبةً أكثر من كل ما شَهِدَتْه عيناه يومًا ما.

«ولكنكِ عُدتِ شابةً مجددًا!»

«طَيِّب، أنعمًا النظر من جديد».. قالت الجنيَّة.

«إنكِ الأيرلندية التي قابلتُها في اليوم الذي كنتُ متوجِّهًا فيه إلى هارتوفرا!».. قال توم.

وعندما أنعمًا النظر إليها، وجدا أنها لم تكن أيًّا منهن، ومع ذلك، كانت جميعهن في نفس الوقت!

«اسمي منقوشٌ على مقلتي عيني، إن كنتما تملكان عينيْن لثُبصرا ذلك».

ونظرا في عينيها العميقتين الواسعتين الحنونتين، وكانتا بلونٍ يتغيَّر مرارًا وتكرارًا متقمِّصًا الألوان جميعها، كما يتغيَّر لون الضياء في الجواهر.

فقالَت الجنِيَّة في آخر المطاف: «والآن، فلتقرؤوا اسمي».

وأومَصَتْ عيناها للحظةٍ واحدةٍ، بنورٍ أبيضٍ ساطعٍ. بَيَدَ أَنْ الصغِيرين لم يتمكَّنَا من قراءة اسمها لأنهما انبَهرَا بوهج النور فأخفيا وجهيهما في أيديهما.

«لم يَحِنُ الوقت بعدُ أيها الصغِيرين. ليس بعد».. قالت الجنِيَّة وارتَسَمَتْ على شفَتَيْها بسمةٌ ثم التفتت ناحية إيلي وقالت: صار بإمكانك أخذُ توم معك في أيام الأحد يا إيلي. لقد أثبتت جدارته في كفاحه العظيم، وأصبح مؤهلاً للذهاب معك، وأن يغدو رجلاً بعد أن أنجز ما لم يرغب بإنجازه».

لذلك، رافق توم إيلي إلى مسكنها أيام الأحد، وأحياناً خلال أيام الأسبوع أيضاً. وهو الآن عالمٌ عظيمٌ يُشارُ له بالبنان، يهندس سكك الحديد والقاطرات البخارية، يوجه البرقيات، ويصنع البنادق، وما إلى ذلك. وغداً مُلماً بكل شيءٍ عن كل شيءٍ، ما عدا أسباب عدم تحوُّل بيضة الدجاجة إلى تمساح، وبضعة أمورٍ صغيرةٍ أخرى لن يعرفها أحدٌ حتى قدوم الكوكتسيغرو. وكل هذا كان حصيلة ما تعلَّمه عندما كان طفلاً مائياً يسكن البحر.

«وبطبيعة الحال، توم تزوج إيلي؟».. سأل الطفل الراوي.

يا لها من فكرةٍ سخيفةٍ يا صغيري! ألا تعلم أنه ما من بطلين في قصةٍ خياليةٍ ينتهيا بالزواج من بعضهما بعضاً دون أن يكونا برتبة أميرٍ وأميرةٍ؟!

«وماذا حصل لكب توم؟!»

أوووه. لربما تلاحظه في أي ليلةٍ صافيةٍ من ليالي يوليو. فنَجْمُ ألفا الكلب الأكبر القديم(54) صار منهكاً وشاحباً خلال المواسم الثلاثة الماضية للصيف القائظ، لذلك لم يعد هناك أيام صيفٍ قائظة منذ ذلك الحين. لذلك أنزلوا النجم العتيق ووضعوا كلب توم في مكانه. وهكذا، وبما أن الغربال الجديد له شدة، نأمل أن يكون الطقس لهذه السنة دافئاً. وهذه هي نهاية قصتي.

(54) ويدعى أيضًا نجم الشعري اليمانية أيضًا.

مغزى حكايتنا..

والآن يا صغيري العزيز، ما الذي ينبغي أن نتعلّمه من هذه الحكاية التي تنطوي على مغزى أخلاقي؟

لا بُد أن نستمد من هذه الحكاية سبعةً وثلاثين أو تسعةً وثلاثين مغزىً وموعظةً، لست متأكدًا من عددها بالضبط: ولكن ثمة أمرٌ واحدٌ على الأقل، حريٌّ بنا أن نضعه نصب أعيننا ألا وهو:

ألا نرمي الأحجار على السمادل في البرك عندما نراها أبدًا أبدًا، وألا نصطادها بمسامير معقوفةٍ أو نحتجزها في حظيرةٍ لحيوانات التجارب برفقة أسماك أبي شوكة التي قد تقوم بوخزها في معدتها الصغيرة فتضطرها للقفز هربًا في علبة تضم أدوات عملٍ لشخص ما، وبذلك تؤول إلى نهايةٍ سيئةٍ. فهذه السمادل ليست سوى أطفالٍ مائين حمقى قذرين ذوي سلوكٍ سيئٍ، لم يحفظوا دروسهم، ولم يحافظوا على نظافتهم الشخصية. وبالتالي - كما سيقول لك خبراء التشريح المقارن بعد مُضيّ خمسين سنة مع أنّهم لم يتعلموا ما يكفي ليقولوه لك حتى الآن - فإن جماجم السمادل تغدو مسطحةً وتنبثق أشداقها وتصغر عقولها وتزداد أذنانها طولًا وتفقد كل أضلاعها - وهذا ما أنا واثقٌ بأنه لن يروق لك لو حصل معك - وتستحيل جلودها قذرةً ومُرْقطةً. فلا تقصد الأنهار الصافية أبدًا، ناهيك عن التوجّه إلى البحر الكبير الواسع، بل تبقى في البرك الوسخة وتتسكّع فيها، وتعيش في الوحل، وتأكل الديدان، كما يستحقون.

ولكن هذا ليس بالسبب الذي قد يدفعك إلى إساءة معاملتهم، بل إنه السبب الوحيد الذي قد يدفعك إلى الشفقة عليهم والتعاطف معهم، وترجو أن يتنبّهوا ذات يومٍ ويشعروا بالخجل من أسلوب حياتهم البغيض الذي يطغى عليه الكسل والغباء. فيسعون لإصلاح أنفسهم ليصبحوا كائناتٍ أفضل من جديد. لأنهم إن سعوا لذلك فلربما بعد 379 - 423

عامًا، وتسعة أشهر، وثلاثة عشر يومًا، وساعة واحدة، وإحدى وعشرين دقيقة – غير أن كل ذلك يبدو منافيًا كما يبدو – إن عملوا بجهد جهيد واغتسلوا كما يجب طيلة ذلك الوقت، فإن عقولهم قد تكبر وقد تتقلص أشداقهم وتعود أضلاعهم وتختفي أذناهم. ثم يتحولون إلى أطفالٍ مائيين، ولربما بعد ذلك إلى صغارٍ بريين، ومن ثم إلى بشرٍ بالغين.

أتعرف أنهم لن يقوموا بذلك؟ حسنًا، تحسبُ أنك تعرف الأفضل ولكن كما ترى، بعض الناس يُكثون حُبًا عظيمًا لأولئك السمدال الصغيرة المسكينة. لم يُلحقوا ضررًا بأيِّ كائنٍ وليس بوسعهم ذلك حتى إن حاولوا. ذنبهم الوحيد هو أن من يفعل الخير منهم، لا يتجاوز عددهم أكثر من بضعة آلاف من أفضلهم. ولكن ماذا بشأن البَطِّ وماذا بشأن أسماك الكراكي وأسماك أبي شوكة، وماذا عن خنافس الماء وما بال الأولاد الأشقياء؟! فهم يضطهدونهم بطريقةٍ موجعةٍ كما يقول الإسكتلنديون. إنه لأمرٌ عجيبٌ كيف يستمرّون بالحياة! وبعض الناس لا يسعهم إلا أن يأملوا كما يأمل الأسقف جوزيف بتلر الطيب، أن تسنحَ لهم فرصةٌ أخرى لإصلاح ما اقترفته أياديهم، في مكانٍ ما، في زمانٍ ما، بطريقةٍ أو بأخرى.

فيما بين ذلك، أثقنْ دروسك، واشكُرْ الربَّ أنك تحظى بوفرةٍ من المياه الباردة للغسل والاستحمام فيها مثل أيِّ إنكليزيٍّ أصيل. ومن ثم، إن لم تكن قصتي هذه قصة حقيقية، فإنها فاقت الخيال جمالًا. وإن لم أكن على حق، فستظنون كذلك، ما دمتم تعكفون على العمل بجِدِّ والاستحمام بمياه باردة. ولكن صَعُ في بالكِ دومًا، وكما أخبرتك في البداية، أن كل هذه الحكاية ليست سوى حكاية خرافية، بمثابة تسليةٍ وابتداعٍ فحسب، وبالتالي عليك ألا تُصدِّق كلمةً منها، حتى لو كانت حقيقية!

1. الغلاف
2. 2
3. أطفال المياه
4. 4
5. مقدمة إذا كان مؤلف تشارلز داروين «أص»
6. الإهداء إلى نأصغر أبناء غرينقل آرثر وكس
7. الفصل الأول «بينما كنت أتوسد العشب»
8. الفصل الثاني هل من قلق في جنات النعيم
9. الفصل الثالث «ترفع صلاته من يجب»
10. الفصل الرابع «مغربة هي المعرفة المتأت»
11. الفصل الخامس إلى صاحب الشريعة المعروف بح
12. الفصل السابع «وأخذت الطبيعة راعتنا
13. الفصل الثامن والأخير هلموا إلي يا ص